سراج منير

جنوب عشق في الهادي

رواية

فريق متميزون
E-BOOK

دار البشير

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

عشق في جنوب الهادي

سراج منير

عن الرواية..

"كان ينساب داخل روحي ببطء، كنت أبني سدا فلا يكسره بل يلتف حوله، كان نهرا هادئ التيار لا سيلا جارفا لكن تياره الهادئ مستمر يفيض على الدوام. عبر السد تلو الآخر دون أن أشعر، كانت السدود كثيرة سببها كثرة التجارب التي عانيت فيها من الذين صادفتهم قبله من الجنس الخشن، وخشن هنا لا تنطبق على أجسادهم فقط بل على أرواحهم وقلوبهم أيضا"

ينسج الكاتب في هذه الرواية حكايتين متوازيتين تدوران في مكانين بينهما آلاف الأميال وأجواءٍ متباينة تماما لكن تتقاطع الخيوط وتظهر لنا حكاية واحدة جديدة لنعرف في النهاية كيف يصنع الحب المعجزة حقيقة لا مجازا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اهداء

إلى د. إيناس مصطفى ود. سحر السمان ...

عرفانًا وتقديرًا لعلي أوفي قليلًا من كثير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١

أروى- القاهرة، فبراير ٢٠١٧

صباح الثلاثاء هو الأسوأ في الأسبوع، أستيقظُ فيه بصعوبة وأنا أقسمُ أنّني سوف أستقيل من تلك الشّركة، وأجلسُ في البيت أنتظر العَدَل. المصعدُ ضيق يخنقني كالعادة، لكنّه يوم الثلاثاء يكون أضيقَ من المعتاد، كأنّه يمرّ بدورة أسبوعية، ينكمش تدريجيًّا طولَ الأسبوع حتى يصل قمّة انكماشه في هذا اليوم، وبعدها يعاود التمدّدُ ثانية.

السيارة يومَ الثلاثاء ضجيجها أكثرُ من المعتاد، والسائقون حولي في قمّة تهوّرهم، كأنهم في أحد سباقات الفورميلا، ينظرُ أحدهم نحوي ونحنُ متوقّفون في إشارة مرورية سمجة، لكنّ ابتسامته التي قذفها نحوي كانت أكثرَ سماجة. نعم.. قذف الابتسامة، أنا لم أخطئ التّعبير، هكذا شعرت بها وهي ترتسمُ على وجهه، وتنطلق كالحجرِ لترتطمَ بوجهي. أغلقت الزجاج، وأغلقت صوتَ المذياع، وشغّلت أغنية لميادة الحناوي، وحاولت أن أندمجَ معها حتى أصل لمقرّ الشركة.

المصعدُ في مبنى الشركة يمرّ بنفس دورة الانكماش، كالمصعد في بيتنا، لكنّه يزيد عليه في الازدحام، يومُ الثلاثاء يكون في قمّة انكماشه وقمّة ازدحامه، ولكن لأنّني تأخرت في الوصول أكثرَ من نصف ساعة كان المصعدُ فارغًا إلّا منّي ومنه. لم أتبين ملامحَه جيدًا فلم يكن من اللائق أنْ أنظر إليه ونحن وحيدين في المصعد، لاحظتُ فقط أنّه كان يبدو في نهاية الأربعينيات، يغطّي الشيبُ جانبي شعره النّاعم المصفف بعناية، وتظهر بعض الخطوط الخفيفة على جانبي عينيه وبين حاجبه، تغطّي نظارته الطبية ذات الإطار الدقيق بعضًا منها وهي ترسو على أنفٍ أشمّ ممتلئ قليلًا، ووجه مستدير.

كان مصعدُ الشركة بطيئًا، وشعرت بثقلٍ ما من وجودنا بمفردنا كأنّنا في غرفة مغلقة، وهذا إحساسٌ أجرّبه لأوّل مرة. الرجل كان مهذبًا يتجنّب النظر إليّ، أو محاولة بدء حديث معي، فقط ضبطتُه يختلسُ نظرة خجلى يحاول بها قياسَ أنوثة المرأة التي أمامَه كما يفعل أغلب الرجال، خاصّة حين تكون مثلي سامقة العود زكيّة الرطب. ضبطته مرّة أخرى ينظر إلى شعري المنْسَدل الذي كنت قد صبغته مؤخّرًا؛ فبدا فاتنًا، أشاح بنظره كأنه تلميذٌ ضبطه معلمه وهو يختلس النظرَ إلى هاتفه أثناء الدرس. أعطاني ذلك فرصةً لأنتبه إلى أناقة السترة التي يرتديها وربطة العنق التي رستْ في نعومة على قميصه مزدانة بدبوس ذهبي.

وصل المصعد أخيرًا، توجّهت لباب المصعد، وكدت أصطدم به لوْلا أنْ تنحّى بأدب في اللحظة الأخيرة. قصدت مكتبي بخطواتٍ متعجّلة، تشيّعني نظرات الموظفين الذين بالتأكيد يقول بعضهم «إذا كان ربُّ البيت بالدفّ ضاربًا» وهُم يتعجبون من نائبة مديرِ الموارد البشرية التي لا تتهاون في الغياب والتّأخيرات مهْما كان العذر، وتأتي هي متأخّرة. كنت مُعتادة على تعليق قائمة أسبوعيّة بأسماء الموظفين أصحابِ التأخير والغيابات، وقرّرت أن أضيف اسمي لقائمة هذا الأسبوع حتّى أخرس ألسنتهم.

جلستُ على مكتبي وأنا أداعبُ قلمي، وأفكّر في ذلك الغريب الذي شغلتني نظراته لي في المصعد. قدّرت أنّه أكبر منّي بعشر سنوات؛ فأنا في منتصف الثلاثينيات، وهو يبدو في منتصف الأربعينيات، كانت يداه مثل يدي خالية من دبلة الزّواج، لكنّني أعرف أنّ الكثير من الرجال المتزوّجين يخلعون الدبلة مِن يدهم أوّلَ ما يخرجون من المنزل، ولا أستبعدُ أن يكون واحدًا منهم. كنتُ على موعد الآن مع أحدِ الموظفين لأحقّق معه بشأن شكوى قدمها فيه رئيسه المباشر، كانت مسئولية التحقيق مُلقاة على عاتقي لأنّ مدير الموارد البشرية لا يحضر إلّا لمامًا ويترك لي أغلبَ مهامّه؛ فهو شقيقُ صاحب الشركة، ولا يمكن أن يلوم عليه أحد. لو كان الأمرُ بيدي لوضعتُ اسمه على لائحة الموظفين المهملين أسبوعيًّا.

جاءتْ سكرتيرة المديرة، ووضعت أمامي ملفًّا، وأخبرتني أنّه ملف رئيس قسم الحاسب الآلي الجديد. أثار ذلك دهشتي، فلم يكن لدينا قسمُ حاسب آلي أصلًا، كنّا نستعين بخدمات شركة متخصّصة دون الحاجة إلى تعيين موظفين بدوام كامل. أمسكتُ الملف في ملل، وفتحته، وشعرت بدهشة عارمةٍ حين وجدت صورةَ رجل المصعد تتوسط أول الأوراق، وعرفت منه أنّه أعزب. فكّرت ما السبب الذي يجعل رجلًا بهذه الأناقة أعزبَ، ثمّ قلت لنفسي قد يكون سبق له الزّواج لكنه فضّل أن يكتبها هكذا.

أكملتُ تصفّح الملف، شهادات كثيرة ومؤتمرات وخبرات، هذا الرجل من حقّه أن يؤسس شركة مستقلة، فلماذا يزعج نفسَه بالعمل في شركتنا هذه؟! ألقيتُ نظرة على خانة الراتب، وزالت دهشتي حين رأيت المرتبَ الضّخم الذي خصّصته له إدارة الشركة، والذي يتجاوز خمسة أضعاف مرتّبي. قلبتُ الصفحة وأنا أمطّ شفتي متعجبة من صاحب الشركة الذي يريد تبديدَ أمواله بدون طائلٍ على قسم حاسب آلي لا أهمية له.

قبلَ أن أنهي التصفح والتأمل وجدتُه واقفًا أمامي وهو يبتسم ويقول «أستاذة أروى، صباح الخير، قالولي إنّك المسئولة تعمليلي أوريانتاشن بالشركة». اضطربت وأحسست بالدماء تتصاعد في وجهي، وأقسم أنّه لاحظ؛ فقد اتّسعت ابتسامته كأنّه كان يتوقع منّي هذا الاضطراب، ولكنني تماسكتُ

بسرعة، ورحّبت به بشكل روتيني، وأنا أتجنّب النظر إلى وجهه، ثمّ طلبت منه الانتظارَ لخمس دقائق حتى أنهي ما في يدي من عمل.

في الحقيقة لم يكنْ في يدي أيّ عمل، لكنني كنت أريد فرصه لأتماسك قبل أن أقوم مع هذا الرجل، وأعطيه جولة في الشركة التي سيبدأ عمله بها. لا أعرف سرّ تلك السحابة التي غلفتني حين اقترب منّي، ذلك التوتر والترقب والإحساس أنّ وجوده حولي يحمل احتمالات لا حصر لها، لكنّه أبى أن يُريحني، جلس أمامي منتظرًا أنْ أنهي المهمة الوهمية التي تحججت بها، تصرّف بمنتهى الأريحية، وأشار لعامل البوفيه، وطلب منه كوبَ ماء بارد، كنت أتظاهر بالتّركيز في أحد الملفات وأنا أشعر أنّ نظراته تتفحّصني، وقد اكتسبتْ جرأة بعد أن كانت خجولةً عندما تقابلنا في المصعد.

قمتُ معه، ودرتُ به على مكاتب الشركة تباعًا، المكاتب الموجودة داخل غرف، وتلك الموجودة داخل مكعّبات من الحواجز، بدا لي أنّه غير مهتمّ تمامًا، فقط ينظر إليّ وأنا أتكلم كأنه يستمع لكلامي ويركّز فيه وهو في الحقيقة يتأمّل انفعالاتي ويحاصرني بنظراته. ضايقني ذلك فقرّرت أن أبادرَ أنا، وسألته عن السبب الذي جعله يأتي للعمل معنا، ما الذي سيفعله أكثر ممّا كانت تفعله الشركة التي كانت تخدمنا من قبْل. كان كلامي حادًّا هجوميًّا، لكنّه استقبله بابتسامة كأنه يتوقّعه، كأنه يعلم أنني امرأة قوية لا أحبّ أن يعاملني رجلٌ وكأنّني فتاة يحاصرها شابّ أكبر منها بنظراته، وكان يتوقّع أن أثور ضدّ تلك الطريقة. كنّا كأننا نخوض حربًا خفية لا نتحدث عنها، استجاب هو لكلامي الحادّ بابتسامة هادئة وهو يقول إنّ صاحب الشركة يريد إنشاء تطبيق إلكتروني وموقعًا على الإنترنت لتوسيع خدمات الشركة، وإنه بدأ تأسيس قسمٍ سيعمل فيه شابّ وفتاة تحت إمرته.

تنفّست الصّعداء حين أنهيت الجولة معه، مدّ يده ليصافحني، فمددت يدي له، كانت قبضته قوية دافئة، لكنّه لم يحاول أن يطيل المصافحة، كان يتصرّف كرجل راقٍ في كلّ خطوة. طلب منّي قبلَ أن ينصرف أن أترفّق بالشاب والفتاة اللذَيْن سيعملان معه، قال بابتسامة عريضة «بيقولوا إنّك صعبة قوي، رغم إنّي شايف غير كده، خلّي بالك منهم، دول لسّه متخرجين جداد، ومش حمل بتوع الإتش آر».. ثمّ ضحك ضحكة قصيرة كتمتها نظرتي الحادة.

بعدَ أقلّ من ساعة جاءني إشعارٌ على الفيس بوك، طلب انضمامٍ لمجموعة الشركة على الموقع، والتي كانت مجموعة خاملة بلا نشاطٍ يُذكرٍ وقد حلّت محلها مجموعة الواتس اب، والتي كانت أكثر فاعلية. كان صاحبُ الطلب هو «كامل محمود»، قبلتُ الطلب وفتحت صفحته، منشوراته معتادة هادئة، صورُه كانت تعكس رجلًا محبًّا للحياة يجوب بلادًا كثيرة، في أوروبا وآسيا، وعدّة صور في رحلات بحرية يصيد فيها الأسماك معَ رفاق كثيرين؛ رجال

ونساء، من بلاد مختلفة. أخذت أقلّب صفحته لدقائق طالت، وانتهت جولتي في صفحته بضغطة على زرّ طلب الصداقة.

كدت أتراجعُ وألغي الطلب، لكنّه قبله سريعًا، وكأنّه كان ينتظره. شعرت أنّني أريد أن أقذف بهاتفي من الشباك من فرْط غيظي من تهوّري وخطوتي التي لا معنى لها. قاطع أفكاري مجيء الموظف الذي سيخضع للتحقيق أمامي، قد يكون محظوظًا لأني سأكون مشتتة بالتفكير في ما حدث اليوم، أو سيء الحظّ لأنّه جاء لي في لحظة أشعر فيها بغيظ شديد، لكنّني أخذت نفسًا عميقًا، وحيّدت مشاعري، وبدأت التحقيق معه باحتراف، فلا يمكن أن أسمح لحالتي المزاجية بالتدخّل في عملي كما يدّعي بعض الحمقى مِن الذين يناهضون تبوّأ المرأة لموقع المسئولية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢

زياد- المحيط الهادي الجنوبي، أبريل ٢٠١٠

كانت تلك أوّلَ رحلة صيد لي، لكنّها لم تكنِ الرحلة التي حلمت بها، بذلت مجهودًا كبيرًا لإقناع أمّي لتتركني أذهبُ في رحلة الصيد في أعالي البحر لكنّها لم تقبل، قالت إنني مجرد دولفين صغير دون العاشرة، ولن أستطيع الإفلات من الحيتان القاتلة إنْ هاجمت سربنا. سبحت حولها يمنة ويسرة قفزت من الماء عشرَ مرّات متواصلة تعبيرًا عن احتجاجي، لكنّها أعمتْ عينها عن ذلك كله. طقطقتُ وصفرتُ وزمتُ بأعلى تردّد يمكنني استخدامه، لكنْ لا حياة لمَن أنادي. قالت إنّ الدولفين لا بدّ أن يصطاد قربَ السواحل ثلاثة أعوام، ولا بدّ أن يطوف حول الجزيرة بالقرب من ساحلها حتى يستطيع الهربَ من التهديدات التي قد يواجهها في أعالي البحار. اعترضت على قولها وأصررت على أنّني أسرع منها هي شخصيًّا، فقالت بحكمة الأمّهات المضجرة "الأمرُ لا يتعلق بالسرعة، بل بالتحمل والصبر".

خرجنا في مجموعةٍ صغيرة قرب الساحل في ماءٍ ضحل تسبح فيه أسرابٌ وأسراب من سمك الأنشوجة. كنت أعرف أنّ الصيد سهل في تلك المنطقة، ولم يكن طعم الانشوجة سيئًا، لكنّني كنت أتوقُ للخروج من ذلك التّصنيف، لقد كبرت بما يكفي، لكنّها أمّ من النوع القلوق الذي يرتعب من ترك أولاده يواجهون التحديات، ولوْلا أنّ في نفسي همةً وطموحًا لكنت دولفينًا ضعيفًا خنوعًا كبعض أصدقائي الذين أراهم اليومَ خائفين من الصيد دونَ أمهاتهم، رغم أنّ المياه ضحلة، ولا يوجد خطر من المفترسات.

اقتربت مايا منّي، تراقصت بزعنفتها، وطقطقت في سعادة وهي تحيّيني وتسبح جواري متوجّهين للمياه الضحلة. كان وجودها إلى جواري في أيّ وقت يبعث على السعادة، ويجعلني أقفز في الهواء دورةً كاملة حين أراها تقترب، لكنني اليوم استقبلتها بفتور. سألتني عن السبب بقلق ظهر من طقطقتها المكتومة وحركة زعنفتها المتشنجة. حين صارحتها بسبب ضيقي هوّنت من الأمر كما كنت أتوقّع؛ فهي مجرّد فتاة لا تشغل بالها بتلك الطموحات.

أخذت تحاول إخراجي من ضيقي بدون جدوى، في النهاية تحدّتني أن تسبقني في طريقنا للمياه الضّحلة، قائلة: «سوف أسبقك هذه المرّة؛ فقد تدرّبت جيدًا». كان ذلك فعلًا ذكيًّا منها، فلا شيء يصفّي عكارة قلبي مثل السباق. سبحت بأقصى سرعتها، كانت تخترق الماء كالسهم الرشيق، تطيرُ في الهواء كأنها ستطير للأبد، ثمّ تنزلق للماء ثانية، فيفتح لها الماء ثغرةً في قلبه تنفُذ منها لكنّها ما تلبث أن تبدأ دورة أخرى.

كنت أسبقها بسهولةٍ جعلتني أفكر في أنْ أمرح قليلًا حولها، فنوّعت قفزتي. أطير في الهواء فأحني جذعي بكلّ طاقتي لأنتقل من يمينها إلى شمالها، ثمّ أسبقها قليلًا، ثمّ أطير ثانيًا، وأدور بجسدي دورةً كاملة، تلاحظها هي فتنطلق منها صفاراتُ سعادة وهي تغطس لتسبقني، بينما أنا منشغلٌ بحركاتي المتباهية.

وصلنا للمياه الضّحلة، وجماعات سمك الأنشوجة كانت تملأ المكان كأنّها تنتظرنا لكي تقدم نفسَها قرابينًا لإطعامنا. عملية الصيد في المياه الضحلة كانت تتطلب منّا مهارة تدرّبت عليها مع أمّي من قبل، لكنّها المرة الأولى التي كنتُ سأفعلها وحدي. بعضُ البشر على هذه الجزيرة كانوا يراقبون مقدمنا، ويعتبرونه علامةً على وجود سمك الأنشوجة بكميّات كبيرة، فيسارعون برمي شباكهم، وأخذ غذائنا، ولذلك كانت السرعة مطلوبة.

لم يكنْ هناك وقت للاستعداد، فالأسماك تهرب بمجرّد رؤيتنا، كنّا أنا ومايا فريقًا متجانسًا، نخترق الماء سريعًا نحو مجموعةٍ بعينها، أنا من اليمين وهي من اليسار. حين وصلنا لأولها غطسنا حتّى احتككنا بالقاع، مثيرين عكارة تعمي الأسماك الصغيرة، وتجعلها تتخبط في فزع لا تدري أينَ المهرب، وكأنّنا نهاجمها من كلّ اتجاه. كنّا ندور حولها في دائرة كاملة لو نظرت لها من أعلى لظننتها مجرّةً تسبح في فضاء الكون، ثمّ يهجم أحدُنا فيبتلع بعضها من قلب الدائرة ويتراجع مُفسحًا المجال للآخر.

وكأنّ الطيور كانت تجهل وجودَ كلّ تلك الأسماك هنا، أو كانت نائمة واستيقظت حين سمعت الجلبة التي أصدرناها ونحن نلتهمُ وليمتنا. بدؤوا يخترقون الماءَ متساقطين من السماء كالشهب يختطفون الأسماك من الجزء الرائق في المنتصف. طقطقت وأعطيتُ صفيرًا لمايا فغطست في مركز الدائرة، وأثارت عكارة أعمتِ الطيور أيضًا، فصارت تغطس وتصعد خالية الوفاض، وهو ما دفعها للذهاب بعيدًا للصيد في دوائر أخرى.

أكلنا حتى امتلئنا وكنّا ننوي أن نختم زيارتنا للشاطئ بقليلٍ من اللهو كأنْ نفسح للأسماك مجالًا لتحاول الهرب، ثمّ نحاصرها ثانية وهكذا. لكنْ ظهر البشر؛ تلك الكائنات التي تقتل كلّ جميل في هذه الدنيا. كنّا حين نصطاد نحرصُ على ترك أسماك كافية للتكاثر لتنتج لنا محصولًا جديدًا كما علّمتني أمّي، لكنّ هؤلاء الحمقى لا ينظرون إلّا تحت أقدامهم. حين سمعنا صوتَ إلقاء أول شبكة صيادٍ في الماء درْنا بأجسادنا واتّجهنا في طريق العودة.

كان قلبي قد راقَ قليلًا، وكنت وأنا عائدٌ أداعب مايا حين خطرت ببالي فكرة، قلت لها إنني سأمثّل دور حوت قاتل (هو في الحقيقة ليس حوتًا، بل نوع من الدلافين أيضًا، لكن البشر يصرّون على هذه التسمية، ولذلك أستخدمها بما

أنّ من سيقرؤون حكايتي من البشر)، وستمثل هي دورَ الطريدة، وما إن بدأنا حتى توقّفت والتصقت بي وهي تنبهني لزورق يمخر عباب الماء بالقرب منّا. داعبتها مطمئنًا، ثمّ قمنا معًا بأداء قفزات متوالية مثيرين عاصفة من الإعجاب بين البشر الموجودين على الزورق وهُم يرفعون أصواتهم بصراخ مزعج، وقد ظنّوا أننا نلاعبهم وهُم لا يعلمون أننا فقط نحاول تجنّب شرّهم. بعد أن مرّ الزورقُ بسلام هدأت حركتنا وسبحنا بسلامٍ متلاصقين عائدين إلى مكان قطيعنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣

كان ينساب داخلَ روحي ببطء، كنت أبني سدًّا فلا يكسره، بل يلتفّ حوله، كان نهرًا هادئ التيار، لا سيلًا جارفًا، لكنّ تياره الهادئ مستمرّ يفيض على الدوام. عبرَ السدّ تلو الآخر دون أن أشعر، كانت السدودُ كثيرة سبّبها كثرةُ التجارب التي عانيت فيها من الجنس الخشن، وخشن هنا لا تنطبق على أجسادهم فقط، بل على أرواحهم وقلوبهم أيضًا.

زوجي السّابق كان أولهم، كان متيبّسَ القلب، بخيلَ المشاعر والجيب، كان شابًّا وسيمًا غنيًّا متخرّجًا من الجامعة الأمريكية، كان ارتباطي به مثارَ حسد زميلاتي كلهن، وكنت منذ صغري أؤمن أنّ الحب ليس منطقًا نبني عليه ارتباطنا بشخص، كنت أعول على أنّني سوف أجد الحبّ معَ الوقت مادمت قد اخترت الشخصَ المناسب، وأنّني قادرة على جعله يغرم بي لأنني جميلة ومرحة. مرّت الشهور، تبخّرت أحلامي في حياةٍ عاطفية، كان لا يبادرني بكلمة حب، ولم أرَ في عينيه وهجَ عاطفة، كان زواجًا ميكانيكيًّا في كلّ شيء، حتى في أكثر جوانب الزواج حميميّة، مجرّد حركات آلية، استجابات تشبه استجابة الحاسوب لضغطةِ إنتر على لوحة المفاتيح، بل إنّ الحاسوب أحيانًا يصدر حرارة، ويعلو هديرُ مروحته حين تعطيه أمرًا هامًّا بخلاف ذلك الرجل الذي سرق من عمري عامًا ونصف.

بعدَ طلاقي، حاولت أن أغيّر طريقة تفكيري، وأن أجدَ الحب، وأجعله الأساس الذي أبدأ به علاقة مع رجل. كنت ساذجة أيضًا، ولكن بوجهٍ آخر من وجوه السذاجة كنت كالأحمق الذي حاول أن يحرّك فيلًا فأخذ يدفعه من الخلف بكلّ قوة بدون جدوى، وحين يئس ذهبَ وأحضر حبلًا ليحاول أن يجرّه به، وهو لا يدرك أنّ الفيل لن يتحرّك إلّا من أجل أكل العشب فقط إنْ كان راغبًا في أكله، وليس في أيّ وقت.

كامل كان مختلفًا، لم يكن فيلًا، بل كان فرسًا رشيقًا، يحبّ الحركة والجري، سواءً كان العشب موجودًا أم لا، بل إنه لم يبدِ اهتمامًا بالعشب كثيرًا قدر ما كان يبدي اهتمامًا بالحياة نفسها بدون شرطٍ أو قيد. حين مرّ شهرٌ على أول محادثة بيننا، طلب أن يقابلني في المساء؛ مقابلة خارج إطارِ العمل بالطبع. أظهرتُ تردّدًا كبيرًا قبل الموافقة، لم يكن مجرّد دلال امرأة كما يقول البعضُ، بل كان ترددًا حقيقيًّا، كنت أتشوّق لرؤيته خارج الشركة، كنت أريد أن أقابل كامل الذي أحادثه على الفيس بوك، وليس كامل الذي يشاكسني في الشركة لأنّني عاقبت أحد مرؤوسيه لكنّها كانت خطوة تحمل في طيّاتها الكثيرَ ممّا لم نتصارح به بعد.

حسمتُ تردّدي، وافقت على لقائه، قال إنه سيمرّ عليّ ليأخذني بسيارته، فرفضت، وقلت له أنْ يحدّد المكان وأنا سأذهب إليه، قال أنْ أذهب إلى بيت السحيمي في شارع المعز. فكّرت كثيرًا وأنا في الطريق في كيفية اللقاء في هذا المكان، إنه بيتٌ أثري يقيمون فيه بعض الحفلات أحيانًا، وجالَ بخاطري أنه قد يكون لقاء مملًّا نحضر فيه أمسية شعرية، أو عرضًا لموسيقى من تلك التي لا أطيقها.

وقفتُ أمام المرآة الطولية الكبيرة في غرفتي، أتأمّل شكلي في الثياب المختلفة، أختار اللون والشكلَ والقَصّة، حتّى استقريت أخيرًا على طاقم مناسب كنت اشتريتُه منذ شهرين ونسيته تمامًا لكنّه كان المنقذَ لي في هذا الوقت، وقد أظهرَ قوامي المعتدل الملفوف بشكل مريح للعين، وداری بعضَ عيوبه التي كانت بسيطة للغاية.

أمامَ مرآة الحوض، تأمّلت وجهي وفكّرت فيما ينبغي فعله تجاهه، شعري الأسود الفاحم الطويل كان نقطة راحةٍ بالنسبة لي رغم أنّه يتساقط مؤخرًا، عيناي سوداوان واسعتان مسحوبتان قليلًا في نعومة يتمنّاها الكثيرات، لوْلا ذلك الانتفاخ البسيط في جفني السفلي، والذي يبدو ظاهرًا أكثر معَ بعض أنواع المكياج، وهو ما يضطرّني لأخذ وقت أطول في تزيينها.

أنفي كان ذا رسمةٍ حادّة مستقيمة، أرنبته ذات استدارة ناعمة رقيقة، لكنْ يعيبه أن جلده مغطًى بالمسامّ التي يمكنني- لحُسن الحظ- أنْ أغطيها ببعض كريمات الأساس. وجنتاي مستديرتان وخدّي كذلك، وبقليل من المجهود ستبدو الوجنتان مرسومتين بشكل يحدّدهما عن الخدّ، ويعطيهما شكلًا يشبه الممثلات. شفتاي ممتلئتان تحتاجان فقط لحمرةٍ ذات طبقة لون مناسبة، ولن أحتاج أن أضعَ حمرة خارج حدودهما لتعطي انطباعًا كاذبًا بالامتلاء، ففي شكلهما الطبيعي ما يكفي.

حين وصلتُ للمكان، كان واقفًا أمام الباب، استلم يدي بدفء سرَى في جسدي كله، رغم أنها لم تكنِ المرّة الأولى التي أصافحه فيها. دفعَ الباب الخشبي المزخرف، ودلفنا إلى فناء البيت بعد أنْ عبرنا ممرًّا صغيرًا. كانت المرّة الأولى لي في هذا المكان، أخذني من يدي كطفلة، ومضى يشرحُ لي بحماس ما أراه بعيني، ولا أدرك جماله.

كانت هناك فرقةٌ موسيقية في ناحية من الفناء مقابل الحديقة الصغيرة، سألته إن كان ثمّة حفل سيحضرُه آخرون، فابتسم وأجابني "الحفل النهارده على شرف جنابك يا هانم"، اتّسع فمي من الدهشة، فطلب منّي أن أستمتع باليوم، وألّا أحاول أن أسأل كثيرًا. أخذني في جولةٍ في أركان بالبيت، وأنا أسير خلفه مسلّمة قيادي بطريقة لم تحدثْ من قبل، مجرّد تلميذة تتبع

معلمها، أو طفلة تتبع أباها، وتتلقّى منه معلومات، كنت أنظرُ لحائط ما فيشرح لي زخارفه وتصميمه، والكتابات عليه، فتتفتّح عيني وأرى جمالًا جديدًا عليّ.

“قاعة استقبال النساء”.. يقول ونحنُ ندخل قاعة فسيحة رخامها ملوّن ومزخرف وفيها مكان جلسة يبدو أنّها كانت مسرحَ النميمة النسائية في هذا الزمن، ندخل منها لقاعة أخرى فيقول “قاعة النساء”.. ويأخذني في جولةٍ فيها لأيام خلتْ منذ قرون شارحًا لي كيف كانت الحياة في تلك القاعة، يأخذني من يدي إلى المشربية يفتحها ويطلبُ منّي أن أنظر، ثمّ يتركني وهو يقسم عليّ ألّا أصرف نظري عنِ الفناء بالأسفل، أظلّ أنظر مترقبة، يقتلني الفضول ثمّ أراه أسفل المشربية يشيرُ بيده، ثمّ ويقذف لي وردة أتلقّفها وأشمّها وأنا أضحك، حتى دمعت عيناي من فعلتِه التي تشبه أفعالَ المراهقين، وأنا غير مصدّقة لما يحدث.

يكملُ الجولة بي وأنا لا يفارقني ذلك الإحساس المحبّب، أنني في كنف رجل يدلّلني ويهتمّ بأمري، ويريحني من عناء التفكير في الخطوة القادمة. إحساس قد يتهمني الكثيرون بالمبالغة إن قلت إنّه أجملُ من الحبّ، وقد أكون حمقاء فعلًا لأنّ هذا الإحساس لا يكون بتلك الروعة إلّا إذا اقترنَ بالحبّ، والحقيقة أنّ الحب لا يكون كما يصوّرونه إلّا إذا اقترن بما شعرت به في تلك اللحظة مع كامل.

أخذني لآخر محطّةٍ في الجولة، شرفة فسيحة تطلّ على الفناء، ونرى منها الفرقة الموسيقية التي كانت قد بدأت العزفَ بالفعل، تعزف أغنية لميادة حدّثته عن حبي لها سابقًا، كانت في الشرفة مساحةٌ علوية مفروش فيها سجادة، وخلفها خشب أرابيسك، وفيها صينية نحاسية مرتفعة عن الأرض قليلًا، طلب منّي الجلوس أمامها فجلست، ثمّ جاء نادل بدَا غريبًا عن المكان بزيّه الحديث. بدأ يضع لنا عشاءًا شمل كلّ الأصناف التي حدثته عن حبي لها، بينما كنا ندردش في الأيام السابقة. لم أكنْ أتخيل أنْ أجلس على الأرض لأتناول عشائي لكنّ الطاولة كانت ستضيع جمالَ اللحظة. بدأ العشاء، وعزفت الفرقة موسيقى كالموشّحات لتكمل الصورة، وتكمل ليلة لم أكنْ أحلم برؤيتها في أكثر أحلامي تفاؤلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤

زياد- جنوب المحيط الهادي، ٢٠١٢

بعدَ عامين من الصيد في المياه الضّحلة فقط، سمحوا لي أنْ أخرج في رحلة صيد في أعالي البحار، أمّي كانت رافضة كما هي لكنّ كبيرَ السرب أصرّ على أن يشارك كلّ دولفين تجاوز مدّة عامين من الصيد المستقل. كانت الدلافين المستكشفة (وهي دلافين ماهرة في استكشاف تجمّعات الأسماك العميقة) أكّدت لنا أنّ هناك تجمّعًا هائلًا من أسماك الفانوس على مسافة يوم وليلة من مكاننا.

انطلقَ السرب في مسيرته الطويلة بسرعةٍ متوسطة نتراقص فوق سطح الماء في قفزات مُتجانسة، كما لو أنّنا في نزهة للعب. كلّ شيء نفعله في حياتنا كان للمتعة، حتى رحلات الصيد الطّويلة المجهدة، لا يمكن أنْ يتخيل عاقلٌ أنّنا نتجمع بالآلاف، ونسافر مسافة بهذا الطول للأكل فقط، ليست أسماك الفانوس التي نقصدها في تلك الرحلة طيبة الطعم لهذه الدّرجة، لكنّ التحدي الصّعب والرحلة الشيقة هي المتعة.

مايا تعطلني، بطء حركتها يجعلنا معًا في المؤخرة، وهذا ما لا أحبه. اقترحت علي بذكائها المُعتاد أن نغطس أعمق، أنْ نكون في الصف الأسفل من الدلافين، السباحة أسهل هناك لكننا نحتاجُ للصعود كلّ فترة لأخذ أنفاسنا، وهو ما سيعطّلنا بالتأكيد لكنني وافقتها على أية حال.

نزلتُ معها لأسفل، وفوجئت بسربٍ طويل من أسماك التونة الذهبية، أسماك ثقيلة الظل متطفلة لا أعلمُ ما الذي أتى بهم للالتصاق بسرْبنا، ومحاولة النيل من غنيمتنا. إنّهم كائنات أقل منّا كثيرًا، ليس لديهم إمكانيات إلّا التطفل علينا. اقتربت من مجموعة منهم، وأطلقت صفيرًا مزعجًا وأنا أحرّك زعنفتي فأرعبتهم، اقتربت مايا منّي، واعترضت بطقطقات غاضبة على ما أفعله، ثمّ قالت "دعْهم، لماذا تضايقهم، هل تظنّ أنّ ملايين الأسماك التي تنتظرنا هي غذاؤنا نحن فقط، لا تتصرّف كبشري أحمق".

شعرتُ بالماء يفور حولي من فرْط الغضب، فقلت لها "كيف تجرئين على إهانتي بهذا الشكل وتشبيهي بالصنفِ الأحمق من البشر؟" لم تهتمّ باعتراضي ومضت في طريقها، انطلقت بسرعتي وسبقتُها بمسافة طويلة، لكنّني حافظت على وجودي في مرمى موجاتها الصوتية لتظلّ مدركةً لوجودي وأنا أعلم أنّها ستتبعني. انتقيتُ نقطة مناسبة ثمّ ثنيت جذعي بقوة وانطلقت كصاروخٍ موجّه من بين الصفوف، وقفزت في الهواء متجاوزًا الكبار والصغار،

وصانعًا بجسدي دورات، ثمّ غطست في الماء وأنا أميل مُتفاديًا الأجساد المتزاحمة، حتى وصلت لأعمق الصّفوف مرة أخرى.

جاءتْ جواري ثانية وقالت إنّني فهمتها خطأً، وإنّها لم تكن تقصد تشبيهي بالصنف الأحمق من البشر بشكل مطلق (وهي إهانة بشعة في عرفنا)، ولكنّها قصدت أنّني أفكر مثلهم حين أظنّ أن المحيط ملكنا، وأنّني أظنّ نفسي أولى بالرزق من التونة لمجرّد أنني أذكى منها.

جاءنا أحدُ الدلافين الكبار، وأمرني أن أرافق مجموعة الأعماق، كدتُ أقفز في الهواء من الفرحة، فتلك المهمّة لا توكل إلّا للدلافين المهرة والأكثر خبرة. ودعت مايا ورافقتهم نحو الأعماق ونحن نحدّد مكانَ تجمع أسماك الفانوس بأصواتنا. كان سربًا بحجم جزيرة كبيرة وهو ما يعني وجبةَ غذاء وافرة لنا، وللتونة، وللطيور التي قد تصل للمكان حين ندفع تلك الأسماك إلى أعلى.

جزيرةٌ من الأسماك الصغيرة تتماوج في كلّ الاتجاهات في تناغم هادئ وإيقاع بطيء. نزلنا أسفلها بأعدادٍ كبيرة فأثرنا خوفَها ودفعناها للأعلى. كانت السمكات تتدافع بسرعة، لو تابعت كلّ واحدةٍ وحدها لكنّك لو نظرت للمجموعة كلّها لرأيت جزيرةً كاملة تصعد نحو السطح كأن أحدَ جبال الأعماق ملّ الظلام في الأسفل فقرّر أن يصعد ليبصر ضوء الشمس.

الكلّ بدأ يأكل ويغترفُ بفمه عشرات الأسماك دفعة واحدة كأنّها حبات أرز تندفع نحو فم جائع. تركت المجموعة الموجودة بالأعماق- والتي تمنعُ أسماك الفانوس من النزول للأعماق مرة أخرى- وتوجّهت نحو مايا مستدلًّا على مكانها بإشارة بيننا من صفافير مميزة. أنهينا وجبتنا وسبحنا في مكاننا قليلًا، ونحن نشاهد التونة تلتهم نصيبها من الوجبة، ثمّ جاءت أسماك الراي المهيبة التي تبدو كطيورٍ عظيمة الأجنحة، أو كطائرات الشبح عريضة الأجنحة، غير أنّ تلك أجنحتها تتماوج في انسيابية. جاءت متجمّعة في تشكيل يشبه سربَ طائرات مقاتلة يتخذ شكل رأسِ سهمٍ يخترق تجمّع الأسماك وينهل منها كيفما شاء.

مالتْ عليّ مايا، وداعبتني وهي تقول "انظرِ الكلّ يأكل من رزق الله الوفير، ولن ينتهي أو ينضبَ فسوف يتبقّى من هذه الأسماك عددٌ هائل يجعلها تتكاثر وتنشئ جيلًا جديدًا"، فقلت "عندك حقّ، لقد تصرّفت كالصنف الأحمق من البشر للحظة، ولن أكرّرها ثانية"، فقالت "أنا أعرفك وأعرفُ أنك أنبلُ مَن رأيت، ولهذا لا أرافق غيرك في الصيد"، قلت وقد سرتْ في قشعريرة مبهجة من الذيل للخطم "وأنا لا أرافق غيرك، لا في صيد ولا غيره".

لاحظت أنّ أسماك الراي أنهتْ وجبتها وانصرفت، ولم يعدْ هناك مَن يأكل من سرب الأسماك الصغيرة الذي بقي منه أكثرُ من نصفه قبلَ أن يتجمعوا معًا

ويبدؤوا النزول نحو العمق ثانية وكأنّهم كانوا يقدمون جزءًا من قطيعهم قربانًا ليأكل الجميع، وتستمرّ دورة الحياة التي تظلّ مثالية، حتى يتدخّل البشر في المنتصف فيختلّ الميزان وترتبك المعادلة. قلت لها ونحن نلحق بسربنا عائدين "مِن حُسن حظّنا وحظّ تلك الأسماك أنّها تعيش في أعماق لا يقدر البشر على الصيد فيها، فيظلّ فيها رزق وفير للجميع، ولا ينضب مخزونها".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥

أروى- القاهرة، أبريل ٢٠١٨

الصومُ يجعل الأكل يبدو ألذّ كثيرًا، حين كنت صغيرة وبدأت الصومَ لأول مرة كان الامتناع عن الأكل عسيرًا للغاية. كانت أمّي بعد العصر تفرغ أكياس الخضروات وسقطت منها ثمرة خيار ونسيتْ أن تلتقطها ثانية. أمسكت ثمرة الخيار وهممتُ أن أعطيها لها لكن حدثَ تحول غريب، الخيارُ الذي كنت قبلَ ذلك أراه غير جديرٍ بالأكل، وأنّه مجرد ألياف مخلوطة بالماء بلا طعم أو رائحة؛ صار فاكهة لذيذة تذوبُ رائحتها في تلافيف مخّي فتذيبه. كسرت ثمرة الخيار نصفين وسالَ لعابي، كانت عصارته- التي لا طعمَ لها فعلًا- تبدو أمامي كالدهون السائلة من قطعة لحم تشوَى على مَهل، قشرته الخضراء التي كنت أرفضُ ابتلاعها كانت تناديني كنداهة لا تقبل أن أرفضَ نداءها. أكلت الخيارة يومَها، كان الطعم حلوًا في أول قضمة فقط، لكن في القضمة التالية عاد لطبيعته؛ مجرّد ألياف مخلوطة بالماء خسرت من أجلها صيامًا شاقًّا.

بعدَ تلك الليلة مع كامل، شعرتُ بخوف أن تكون تلك الليلة هي القضمة الأولى شهية الطعم التي يعودُ بعدها لطبيعته كرجلٍ مجرّد ألياف مخلوطة بماء، ماء الوجه المتلون والوعود الكاذبة. شعرتُ بالذنب تجاه قلبي، ما الذي أفعله، وفي أيّ طريق أسير به، الطرق جميعها وعرة ومُنحدرة، وتهوي به في أودية سحيقة.

لم أكنِ امرأة كئيبة من قبْل أو متشائمة، بالعكس كنت دومًا مصدرَ البهجة والتفاؤل، بعد طلاقي كنتُ متفائلة، متوقّعة أنْ يطرق الحبّ الحقيقي بابي دونَ قيد أو شرط، لكنني قوبلت بمشاعر ساذجة طفولية تصدرُ عن رجالٍ لم يتخطّوا سنّ المراهقة بعد. لم يختلف الأمر باختلاف طريقة التعارف، مَن تعرفت عليه في العمل مثل مَن تعرفت عليه في النادي، ومَن عرفته في العالم الافتراضي، مشاعري معهم مثلَ ثمرة الخيار؛ أوّل قضمة شهية ثمّ أكتشف أنها مجرد ألياف مخلوطة بماء عديم الطعم.

قضيتُ الليلة كلها أتقلّب في الفراش، النوم كان عصيًّا، السبب الرئيسي لقلقي (والذي اكتشفته أثناءَ أرقي الطويل) هو أنّ كامل لم يخطر بباله أنْ يصارحني بحبّه، ماذا لو كان يريد أن يتسلّى، أن يكون من الرجال الذين يستمتعون برؤية الانبهار في عين المرأة ثمّ لا شيء، أو يكون الشيء مجرّد متعة يصبو إليها، وحين يصل لغرضه ينتهي العرض، ويطلب مني إخلاء المسرح لمتفرجة جديدة.

طلعَ الصباح، وصلت للعمل بوجهٍ مُكفهر، وجدت أمامي ملفّ موظفة تطلب إجازة لظروف مرضِ أمّها، حرقة الأعصاب التي كنت أعاني منها كادت تجعلني أرفضُ الطلبَ دون التدقيق فيه، لكنّي تراجعت في اللحظة الأخيرة، فتحت درج مكتبي فوجدت مظروفًا مكتوبًا عليه "عناية السيدة أروى، سرّي وخاص". قلت لنفسي وأنا أفضّ الظرف "لم يكن ينقصني إلّا خطاب من أمن الدولة" لكنْ حينما وقعتْ عيني على محتوى الخطاب كادَ قلبي يتوقف من الانفعال.

"صاحبة العصمة/ أروى هانم

كنت أودّ أن أسلم لك هذا الخطاب يدًا بيدٍ مساء أمس، لكنّ خجلي الشديد منعني، قد تتعجبين من ذلك، فليس من صفاتي الخجل لكنّك أدخلت هذه الصفة في نظام تشغيلي منذ بدأت التدخل في السّوفت وير الخاصّ بي. اعذريني إنْ بدا التشبيه سخيفًا فهذه هي المحاولة العشرون بعد المائة لكتابة رسالة تليقُ بك، وقد أقسمت أنّها ستكون الأخيرة مهْما بدا شكل الكلام فعاطفتي أكبر من أيّ رسالة يمكن كتابتها.

أنا أحبّك.. هذا ما كنت أريد قوله واستعصى عليّ قوله وجهًا لوجه ورأيت أن مقامك عندي أكبر من أنْ تقرئيها في حروف مكتوبة على شاشة، أردت أن تقرئيها مكتوبة بخطّي وأن تقرئي في انحناءات الحروف التي رسمتها يدي بعضًا من المشاعر التي تموج في قلبي.

العزيزة/ أروى هانم

كنت أتمنى أن أكتب حبيبتي، ولكن ياء الملكية في آخرها لن تكون من حقي إلّا حين أعرف شعورك بي يقينًا، وأن تهبيني بنفسك حقّ إضافة ياء ملكيتي إلى كلمة تشير إليك، ولذلك أرجو منك أن تخبريني- رقميًّا أو كتابيًّا أو شفويًّا- إذا كان يحقّ لي استخدام هذه الكلمة أم لا.

المخلص دوما/ كامل"

انتهت الرسالة التي جعلت يدي ترتجف، وجعلتني لا أتمالك أعصابي من فرط التأثر، ها هي القضمةُ الثانية جاءت أطعمَ من الأولى وأشهى. فكّرت في الرد المناسب، قمت من على مكتبي وذهبتُ إلى الحمام ووقفت قليلًا أنظر في المرآة، وألتقط أنفاسي، ثمّ عدت إلى مكتبي فوجدت الموظفة صاحبةَ طلب الإجازة تنتظرني، أمسكت الطلب ووقّعت عليه بالموافقة دون تفكير والمرأة لا تصدّق عينيها، وتكاد تبكي من فرط التأثر، لكنّني قاطعت وصلة المديح وصرفتها سريعًا من أمامي.

أمسكت ورقة وكتبت عليها..

“السيد المهندس كامل بك المحترم

ردًّا على التساؤل الذي وردَ في خطابكم، وبعد استشارة الجهات المعنية؛ فإنّه يسعدني أن أخبركم أنّه لا مانع لديّ إطلاقًا من تطبيق الصيغة التي اقترحتها في مخاطبتي، بل إنّ ذلك من دواعي سروري.

المخلصة دوما/ أروى”

طويتُ الوقة ووضعتها في ظرف، وكتبتُ عليها “عناية المهندس كامل؛ خاصّ وسرّي” وأرسلته له دونَ اعتبارٍ لمخاوفي، وكأنّني قررت أن أجرّ قدمي لخوض مغامرة لا آمن جانبها، ولا أعلم أين تقودني. بعد دقائق فوجئت برسالةٍ له على هاتفي

“ما رديتيش عليّا”

توقّفت أصابعي بعدَ أن هممت بالكتابة، قرّرت أن أهمل الرد على هذه الرسالة فهو طمّاع، أرسلت له ردًّا ومازال يصرّ على ردّ محدد في رأسه، قلت لنفسي إنّني لن أطيعه ولن أنجرف بتلك السرعة، لكنّني وجدت أصابعي تكتب رغمًا عني رسالة ...

“ردّيت زي ما طلبت، ممكن تقول الكلمة اللّي انت عاوزها معنديش مانع”

“أقصد تردّي على كلمة بحبّك”

“ادّيني عشر دقايق أخلّص اللي ف إيدي”

تركت المحادثة، تخلّصت من ترددي، وأخذت نفسًا عميقًا وقد قررت أن أمضي قدمًا وأدفع هواجسي بعيدًا. بحثت عن أغنية كانت تدور في رأسي ساعتها، حملت الأغنية ثمّ اقتطعت منها فقرة، وأرسلتها في رسالة، ثمّ كتبت الكلمات بعدها..

“قالي بحبّك، قلت بحبّك، كلمة اتقالت بين قلبين

رقصت زهرة وبانت قمرة وغنت نسمة وعصفورتين

حبيبي بيحبني، فيه حاجة أجمل من كده؟”

أرسل لي بعدها ردًّا قائلًا “مشتاق أقعد معاكِ دلوقتِ، عندي كلام كتير” لم أجدْ ردًّا لأقوله فاكتفيت بإرسال وجهٍ مبتسم، تلك الابتسامة المتحفظة. أخذت الشاشة تخبرني أنه يكتب، يكتب، يكتب، أخذ وقتًا طويلًا.. ثمّ في النهاية جاءت رسالة طويلة جدًا كلها عبارة عن قُبلات متراصة مختلفة الأشكال غطّت شاشة المحادثة بشكل تام.

طلبَ أن يقابلني بعد العمل، تهرّبت منه، فقد كان ذلك التسارع مرهقًا لقلبي بشكل كبير، الليلة السابقة لم أنمْ من فرط التفكير والخوف، والآن أعترفُ له بحبّي في لحظات ويريد أن يقابلني، ولا أستبعد أنه يريد أن نمشي متشابكي الأيدي أمامَ الناس دليلًا على ارتباطنا الذي كان خيالًا أو احتمالًا بعيدًا منذ ساعات قليلة.

ذهبت إلى بيت والدي لتناول الغداء، كانت البهجة تكسو وجهي رغم نوبات القلق الذي تخالطه وتظلّ تروح وتجيء. كانا يعيشان على بُعد عشر دقائق من شقتي، بعد طلاقي أصرّت أمّي على أنْ أعيش معهما لكنني رفضتُ بإصرار، ووافق أبي الذي كان يدعم حرية قراراتي منذ الصغر. كعادة أمّي سألتني عن أخباري العاطفية، وهل هناك عريس في الطريق، كانت لا تكفّ عن هذا السّؤال بمعدّل مرتين أسبوعيًّا على الأقل، كانت أمًّا اعتيادية تمامًا، لا تكفّ عن تمنّي زواج ابنتها رغم عملها كطبيبة ورغم الماجستير الذي حصلتْ عليه والمؤتمرات التي تحضرها وتخالط الأجانب فيها.

في المساء، قابلت نجلاء في ممشى النادي، ظروفُ عملينا كانت تضطرّنا لممارسة رياضة المشي تحت الأضواء الكاشفة دومًا. صارحتها بمستجدّات علاقتي مع كامل، كنت أقصّ عليها وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة مِن سرعة المشي أو من فرط الانفعال. قالت "استنّى نقعد الحكاية عاوزه تركيز". جلسنا على طاولة، طلبت قهوة باللبن، وطلبت شايًا أخضر وأنا أحذّرها أن السّعرات التي تخلصت منها للتّو سوف تستعيدها ثانية لو شربت تلك الرغوة الدسمة التي تغطي سطح القهوة.

"لازم أركّز عشان أفيدك".. قالت وهي ترتشف قهوتها. كانت معجبة بكلّ ما قلته وسألتني بفضول كيف استطاع كامل أن يستأجر مكانًا أثريًّا، ويقيم فيها عشاءًا على شرفي فأجبتها أن ابن عمّه ذو منصبٍ هامّ في وزارة الآثار كما قال لي. "الموضوع ده حلو زيادة عن اللزوم، الرّومانسية بتاعته شبه الأفلام".. قالت إنّ الإتقان الزائد قد يدلّ على التصنع، وإنْ كان هذا مجرّد احتمال، فقلت لها وخيبة الأمل على وجهي "الله يسدّ نِفْسك" فأقسمت أنّها لا تقصد أن تقلل من مشاعره وإنما تريدني أنْ أدخل في عالمه بحذر، ألّا أسلم قلبي تمامًا، وأنْ أضع احتمالًا دومًا أنّ ما على السطح لا يعبّر بالضرورة عن ما يوجد أسفله، ثمّ ختمت قائلة "بسّ راجل غني ووسيم زيّه مش هيعمل ده كلّه عشان يلعب بيكِ، هو بيحبك أنا متأكدة، بسّ خدي الأمور بالراحة؛ واحدة واحدة" تراجعتُ في مقعدي وارتشفت آخرَ شاي في كوبي وأنا أفكّر في كلامها وأقول لنفسي "دعنا نستمتع باللحظة الحالية، ودعي الغيب لعالم الغيب".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٦

أروى- القاهرة- مايو ٢٠١٨

ظللتُ يومين أتهرّب من لقائه في الخارج حتّى استيقظت في اليوم الثالث وقد نويت أن أطلق سراحَ مشاعري وأتخلّى عن خوفي قليلًا، أضعه في علبةٍ قطيفة بعناية وهدوء، وأغلق عليه برفق دون أن أوصدَ باب العلبة، هكذا أأمن فلا بدّ أن أترك لخوفي فسحةً للخروج لو أراد، فإغلاقُ العلبة عليه بقفل مُحكم خطيرٌ للغاية.

العجيبُ أنه كتب لي رسالة في ذلك اليوم بخطّه ثانية، استيقظت في الصباح على طرقات باب، ولدٌ من شركة توصيل يمسك بيدِه طردًا صغيرًا، استلمته وفتحته فوجدت كتابًا عن فنّ الحياة أو شيء من هذا القبيل، كان ملتصقًا بغلافه ورقةٌ مطوية بعناية، فتحتها فوجدت رسالة منه..

“حبيبتي أروى، سيدتي الرائعة....” قلتُ في بالي ها قد بدأ الاقتباس من نزار قباني، ولكنّني أكملت على أي حال..

“أنا أحبّك يا أروى؛ كرجلٍ يتعامل مع الأكواد والأرقام المحدّدة يصعب عليّ أنْ أصل إلى استنتاجٍ عاطفيٍ كهذا، خاصّة أنّ هذه الكلمة مرّت في حياتي من قبل حتى صار معناها مختلطًا.

الحبّ كلمة فضفاضة في قاموسي، لا أستطيع أن أجدَ له تعريفًا محددًا، ولا مقاييس علمية، لكنّني استيقظت ذات يوم مدركًا لحقيقة أني أحبّك، كما يدرك الواحد منّا أنّه فرح، أو أنّه حزين أو أنّه غاضب. أعرف أنّ القلب عضو جامدٌ يضخّ الدم فقط، وأن المشاعر تسكن في تلافيف المخ، وأنها إشارات كهربية ونبضات كالموجودة في برمجات الحاسوب الذي أحترفه، لكنني اقسمُ أنّ قلبي يتراقص بين ضلوعي حين أسمع صوتك، أو أرى وجهك. أقسم أنّه ينفطر ويتصدع حين أشعرُ أنّك حزينة أو مهمومة لأيّ سبب. ليس هذا فقط، هناك ذلك الاحتلال الذي تمارسينه عليّ، أنت كلّ شيء يا سيدتي، أنتِ صوت يومي، وسكون ليلي، وإيقاع حياتي. أنت التفاصيل التي تتجسد فيّ وحولي، الابتسامة التي تغلّف شفتي، والتفكير العميق الذي يرتسم على جبيني، أنت فنجان قهوتي، ومفاتيح حاسوبي، وأكواد برمجتي التي تخبئ خلفها صورٌ، وموسيقى تشبه موسيقى، حبّك المختبئ خلف كلّ تلك التفاصيل. لو أنّني كنت طائرًا لكنت أنت الشجرة التي تحتويني، ولبقيت في حضنك ليلَ نهار لو، أنّني كنت بحّارًا لاعتكفت في موانئ عينيك، لو أنّني كنت أيّ شيء لفضّلت أن أكون بعضك يا بعضي”.

طويتُ الرسالة واتّصلت به، وسألته كيف استطاع أن يصوغ تلك المعاني، ردّ بخجل أنه قرأ شيئًا بهذا المعنى منذ فترة، لكنّه كتبه بأسلوبه وانتقى منه ما يتطابق مع شعور، وشبّه الأمر باستدلالي بأغنية حين أعطيته ردّي. قابلته تلك الليلة، أخذني في سيارته، تناولنا العشاء وتمشينا قليلًا، ثمّ ركبنا السيارة، أمسك بيدي وأخذها نحوَ فمه وطبع قُبلة عليها، ذات ملمس عجيب لم أعهدْه من قبل.

ارتعدتْ ملامحي وامتقع وجهي، كانت قبلةً على باطن الكف، لكنّني شعرت بها تمرّ على جسدي كلّه، ما ظهر منه وما بطن. لم أنطقْ حتى وصلت لشقتي، تكلّمنا بقية الليل كتابة، سألته عن سرّ تلك القبلة؟ فقال إنّ السرّ الأساسي والأهمّ أنّها من القلب للقلب، وأنّ الشفتين وكف اليد مجرّد موصلات، ثمّ قال إنّ القبلات على كفّ اليد أنواع، والنوع الذي أهداني إيّاه هو النوع الذي يعبّر عن الحبّ المتّقد كما قال، حين تكون القبلة على باطن الكفّ من فمٍ نصف مفتوح. أطلقت ضحكة بصوت عالٍ وقرنتها بوجوه ضاحكة عديدة أرسلتها في رسالتي لكنّه أقسم أنها الحقيقة، فسألته "يعني ما عملتهاش مع حدّ قبل كده؟" فأجابني أنّه كان يطبق شفتيه دومًا، وأنني أوّل امرأة يقبّل راحتها بفمٍ نصف مفتوح.

لو قصّت صديقة عليّ تلك الحادثة لاتهمتها بالحمق، وأنّها وقعت في رجلٍ يجيد اللعب بالكلمات، لكنّني كنت يومها قد قرّرت أن أضع كلّ الهواجس خلفي، تركتني أستمتع بكلّ كلمة وكلّ لفتة وكلّ مزحة، ماذا سأجني من القلق؟ سألت نفسي وكانت الإجابة لا شيء، مجرّد تنغيص للذةٍ لا تعوّض، وحماقة منّي.

اختلفَ سلوكي في الشركة عن المعتاد، صرتُ أقلّ تجهّمًا وأكثر انفتاحًا، صارت سعادتي بالحبّ تطغى على ما عداها، كنت أحلّق في سماء أخرى، أهبط من عليائي لأزور البشر قليلًا وأتعامل مع مشاكلهم، ثمّ أعاود التحليق لسمائي الخاصة ثانية. كانت نظراتي لكامل تكاد تفضحني، حين أراه مقبلًا، أو أقابله في ممرّ في الشركة، ينير وجهي وتزهر الحدائق في أساريري، وأشعر أنّ الكلّ يلاحظ ذلك، وأنّ الصبّ تفضحه عيونه.

استدعاني المدير ذاتَ يوم، شعرت كأنّ الأرض تميد بي، انتابني إحساس أكيد أن المدير سيتحدّث معي عن كامل، قد يحذرني أنّ علاقتي بكامل أصبحت مثارَ الأقاويل في الشركة، أو ينبّهني من خطورة لقائي به على سمعتي، أو الأسوأ قد يخبرني بأسرار عن كامل تفتت صورته المثالية التي لا أرى غيرها هذه الأيام. أحدُ الجوانب السيئة للانخراط في علاقة حب عذبة هو الخوف الزائد عليها؛ أنت لا تخاف من شيء حين تكون خاليًا، أو في علاقة متأرجحة، لكن ظهور حبّ حقيقي في حياتك يجعلك تشكّ أنّ كلّ شيء حولك يحاول

النيل من تلك السعادة السّاحرة التي تعيش فيها، أنّ مكالمة غير متوقعة ستأتي يومًا لتخبرك أنّ كلّ هذا وهمٌ، ويجب أن تستيقظ.

لحُسن الحظ كان المدير يريدني في أمرٍ لا يخصّ كامل، كان يعاتبني على اللين الذي صرت أبْديه نحوَ الموظفين، ويقول إنّ ذلك اللين يسبّب له إحراجًا، وإنه كان مرتاحًا لجعلي مخلبًا في كفّ الإدارة يوجّهه نحو الموظف المتكاسل دونَ أن تبدو الإدارة متعسفة. كان الموظف الذي يشتكي من تعسفي معه يذهبُ للمدير فيعدُه بأنّه سيتناقش معي، ويحاول تسوية الأمر، ثمّ يقول له "إنت عارف مدام أروى معاها صلاحيات من مجلس الإدارة ومستر أحمد مدير الإتش آر غايب أغلب الوقت، وأنا مقدرش اتدخّل في قراراتها، بسّ أوعدك أكلمها".

كنتُ أعلم هذه الحقيقة وهذا الدور المنوط بي، لكن الحقيقة لم يخطر ببالي أن يقول لهم إنني مخوّلة من مجلس الإدارة، وإنّ المدير بنفسه لا يستطيع تجاوزي، فهذا كلام فارغ بالطبع، والعيب على الموظف الذي يصدّقه. لم أحاول النقاش معه كثيرًا، ووعدته أن أحاول التزام الشدة كالمُعتاد، فكرّر كلامه الفارغ عن أنّ مجلس الإدارة يعطيني صلاحيات لا يستطيع هو بنفسه تجاوزها، وأنّه يتمنّى أن أستخدمها بما يعود على الشركة بالفائدة.

تكرّرت لقاءاتي مع كامل، نتقابل مرتين أو ثلاثة في الأسبوع، يتطور ارتباطنا ويزداد التباسط بيننا في الكلام، وتندمج حياتيْنا بشكل يثير الدهشة، حتى جاء مساء ونحن جالسين في مطعم مفتوح في حديقة الماسة، وفرقة تعزف ألحانًا شرقية، وأنا أمزح معه عن شيء فارغ لا يستحقّ حين قاطعني وكسَا وجهه بالجدية، وأخبرني أنّه يريد التقدم لخطبتي.

منذُ بدأنا نخرج سويًّا كنت أتوقع أن يقدم على تلك الخطوة في أيّ يوم، وكنت أتوتر أحيانًا حين أفكّر أنّه قد تأخر، ويزورني هاجس أنه يريد التسلية وتمضية الوقت فقط. كنت أتوقع لفتة رومانسية من ذلك النوع الذي تمتلئ به شاشات التلفاز والسينما، أن يحضر كعكة وأفاجأ بالخاتم فيها أو بالونات مكتوب عليها طلب بالزواج، إلى آخر تلك الحيل، فهو رجل رومانسي، ولا بدّ أنْ يطلب يدي بطريقة رومانسية. كنت أتوقّع ذلك حقًّا لكنّ فرحتي بطلبه ليدي طغت على فكرة أنّني كنت أتمنّى طلب زواج على الطراز الأجنبي.

"مش تستأذنّي الأوّل، يمكن ما وافقش" قلت له بابتسامةٍ عابثة، فقال "القلب المؤمن دليله" وهو يبتسم ويمدّ يديه ليحتضن كفيّ بهما، فابتسمت بخجلٍ ولم أعقب. "بسّ عندي طلب صغير ونفسي ما تتضايقيش منه" قال متردّدًا، وانتابتني موجة عنيفة من القلق وسوء التوقع، وفكرت في ألف سيناريو لما

سيطلبه منّي، وتوقّعت أنّ هناك مصائبَ كان يخبئها عنّي، وقرّر مصارحتي بها الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧

أروى- القاهرة- مايو٢٠١٨

كنت دومًا أؤكد لنفسي أنّ تحت كلّ غلاف جميل طبقات أخرى مخبأة فيها ما ينغص صورته المغرية. ليس من المعقول أنْ يكون هناك رجل بكلّ تلك اللهفة في الشعور والبهجة في الحضور، والمتعة في الحنين والشوق، دون أن يكون هناك ما يكدّر صفو هذا النبع الرائق المتفجّر بالخمر والعسل.

طلب منّي أن يكون زواجنا في حدودِ العائلة والمعارف المقربين، وألّا ننشر خبره في الشركة، وطلبَ مني أن أمهله عامًا أو عامًا ونصف على الأكثر، حتى ننشر الخبر، ونبدأ في التخطيط لإنجاب أطفال. رغم أنّ عاطفة الأمومة تطغى على أيّ امرأة خاصّة في عمري، وهو ذلك العمر الذي يقع في منتصف سنّ الخصوبة، أو في بداية نصفه الثاني، كانت تلك العاطفة متوارية قليلًا خلف ذلك الوهج العاطفي الذي غمرني به، وخلف تلك الرغبة المحمومة عندي في العثور على الحبّ المثالي الذي يشبع رغبتي.

لم تكنْ تشغل الأمومةُ بالي بهذا القدر، فقد كنت أفتّش عن الحب المثالي، الذي هو بحد ذاته شعورٌ مشبع، طاغ، مُبهج، لكنّه لكي يكتملَ لا بدّ أن يتضمّن في طياته شعور الاستقرار الناتج عن الزّواج، وشعور المتعة الناتج عن العلاقة الجسدية، وشعور الأمومة الناتجة عن الأمومة التي هي بحدّ ذاتها شعورٌ وحدث، هي وسيلة وغاية ونتيجة. الحبّ مهما كان ممتعًا ومثاليًّا ومهمًّا امتلأ بالقصائد والرّسائل والنظرات والأشواق، يظلّ هشًّا ناقصًا إذا غابت عنه واحدة من تبعاتِه الأساسية. تلك هي نظرتي وأنا امرأة في الثلاثينيات، ولا أعرف هل ستختلف مع العمر أمْ لا، ففي مراهقتي كان الحبّ وردة أجدها على حين غفلةٍ في كتابي، وأغنية ترسَل لي.

كان مبررُ كامل ضعيفًا، قال لي وأقسم أنّ أغلب أمواله تحت يدِ طليقته في استثمارات مالية في دبي، كانت كلّها باسمها لتسيير الأمور. عندما تأزّمت الأمور بينهما وحدث الطلاق وعدته أن هذه الأموال له، وأنّها ستعطيه إياها على دفعات، لكنّها مازالت تماطل. المشكلة الكبيرة أن زوج صديقتها- وهو صديق له- قال إنّها تخشى أن يتزوج كامل وينجب أبناءً يشاركون بناتها في ميراثهنّ، وأنّها تريد أن تجني من أمواله أكبرَ قدر من الأرباح قبلَ أن تعيدها له، وأقسمت أنها لو عرفت أنّه تزوج فلن ينال قرشًا منها، وتحجّجت أنه لا يزال يعمل ويكسب الكثير، ولديه مدّخرات أخرى أيضًا.

“يمكن لسّه بتحبك، متعشّمة أنكم ترجعوا سوا وعاملة الفلوس حجّة”.. قلت له بوجه جامد، وأنا أتجنّب النظر في عينيه، وأشغل نفسي بتقليب الملعقة

في بقايا قطعة السوفليه التي كنت قد أنهيتها للتّو. قال "مبتعرفش تحبّ غير نفسها زيّ ما قلتلك".. ردّ عليّ بصوت متوسّل، وهو يقسم أن كلّ ما أخبرني به عن بشاعة الحياة معَ تلك المرأة حقيقي، وأنّه تحمل في آخر ثلاث سنوات ما لا يتحمّله بشر في سبيل أولاده، وأنّه ترك دبي وعاد للقاهرة ليبتعدَ عنها، مكتفيًا برؤيتهم كلّ فترة.

كانتْ قد غزت قلبي في تلك اللحظة طاقة كفيلة بالقضاء على أيّ شعور في قلبي، لكنه لم يكفّ عن القسم والتوسّل، لدرجة أنّ عينيْه دمعتا بطريقة كادت تلفتُ الأنظار. طلبت منه أن ننصرف، كدتُ أطلب سيارة أجرة لكنّه أصرّ أن يوصلني، وقلت لنفسي ليس هناك ضرر من ذلك، سوف أصلُ بيتي وأخلو بنفسي، وأفكّر وحدي بهدوء. ركبنا السيارة وهو لا يزال يعيد ويزيد في قسمه وتوسّلاته، ويتحدث عن حبّه لي، وعن الزمن الظالم الذي جعله يراني متأخّرًا، فقلت بسخرية "وقت ما اتجوّزتها أنا كنت لسّه عيلة بضفاير".. فأقسم أنّه لو رآني وقتها لانتظرني حتى أنضج ويصير من المقبول أن يتزوجني.

كان ثمّة تساؤل في تلك اللحظة يقلقني أكثرَ من ذلك كله، هو أن يكون قد أغدق عليّ كل هذا الحبّ والولْه والكلام المعْسول حتى أتعلّق به، ثمّ يصارحني بعد ذلك حتى لا أجدَ مفرًّا من القبول لأنّني سأكون قد تعلقت به بطريقة تجعل التخلي عنه موجعًا، أن تكون تلك مسرحية وأن يكون قبولي بطلبه هو أحدَ فصولها، وأن تحتوي الفصول الأخرى على تنازلات جديدة أقدّمها.

كان يبكي وهو يقودُ ويقسم على حبّه، أطلق العنان لدموعه التي حبسها ونحن في الحديقة، ثمّ صارَ يبكي بصوت كالأطفال. قبيلَ وصولنا، قبل أن أنزل قال لي "أنتِ أكتر حاجة بتمناها من ربّنا، وأنا مش بطلب كتير، هي سنة واحدة، اعتبريني خاطبك وهنتجوّز بعد سنة".. فقلت بصوتٍ جامد لا انفعال فيه "المشكلة إنك خبّيت عليّا، إيه عرفني إنّ كلّ اللي عملته معايا مش مجرّد حوار عشان تثبتني وتخلّيني أمضيلك على بياض، مش معقول يعني ده أنت أجرت معلم أثري بحاله عشان يبقى أوّل عشا لينا فيه".. فقال "طول عمري كنت بحلم بإنسانه تستاهل إني أعيش معاها اللحظات الحلوة دي، ولقيتك، وقرّرت أعيش معاكِ كلّ أحلامي.." قال لي إنّ السّعادة التي كان يشعر بها حين يرى فرحتي بما يفعل كانت تفوق بآلاف المرات ما كنت أشعر أنا به، قال إنّه كان يفعل ذلك لأنه يحبني، لكنّه أيضًا يفعل ذلك ليجرّب إشباعًا مختلفًا لم يكن ليراه إلّا معي، ومعي أنا دون غيري.

تأثّرت بكلامه وبدموعه، ليس من السهل على رجل أن يبكي بتلك الحرقة أمام امرأة يتلاعب بها ويريد أن يمضي معها وقتًا، أو حتى يتزوجها ليرضي مزاجه. إنه لم يحملني عبئًا منذ عرفته لم يحاول أن يثبت رجولته بالتحكّمات

والأقوال السخيفة، كان يثبتها دومًا بأخلاقه ورقيه واحترامه لي ولأفكاري، حتى وإن كان بعضها سطحيًّا أو مباشرًا. كنت أعتقد دومًا أنّ فيّ ما يكفي من المواصفات التي تجعل رجلًا يطمع في وصالي، ويريد الارتباط بي، لكنني لا أظن أن هناك مواصفات في المرأة تجعل الرجل يبكي أمامها كالطفل إلّا أنه يحبّها بصدق. فكرت ساعتها أن الحبّ لا بدّ أن يشملَ العطف والتسامح والتقدير، وأنّه في الغالب كان خائفًا من رفضي له لو صارحني بتلك المشكلة في البداية.

طلبت منه مهلة للتفكير، حين خلوت في غرفتي حادثت نجلاء، وحكيت لها القصة كاملة فقالت إنّ غضبي غير مبرر، وإنّ الرجل كان من الممكن أن يطلب يدي ويؤجّل الزواج سنة حتى تستقرّ أموره، فترة سنة في الخطوبة ليست طويلة، حتى لو كنت مطلقة رغم تحفظات البعض لكنّه فضّل أن نقضيها زوجين "الراجل مش قادر يستنّى هيموت عليك، وربنا أنا هاين عليّا أقولك سيبيهولي وأنا اتطلّق واتجوزه".. لم يشفِ كلامها غليلي، وشعرت أنّ الحديث بيننا صار أقربَ للهزل منه للجد. طلبت صديقًا لي، مؤتمنًا، كان زميلًا قديمًا، وكنت أرتاح لرأيه كثيرًا، وساندني في أوّل فترة تلتْ طلاقي. قلت إن رأي رجل في هذا المسألة سيكون أفضل، والحقيقة أنّ كلامه أراحني حقًّا، وجعلني أوافق على طلب كامل.

طلبَ منّي كامل أن لا أقصّ على أبي التفاصيل تلك، وأنّه سيقنعه بأسلوبه، قبلت على مضض وفي جلسة ضمّت أبي وأمّي، طلب كامل يدي من أبي، وأخبره بما يعانيه من مشكلات مع طليقته تجبره أنْ يبقي الزواج في حدود الأسرة حتّى عام واحد. لم يعترض أبي مادمت أنا موافقة على هذا الطلب، ثمّ قال له "الطبيعي إنّي مش بشدّد في موضوع المهر والشبكة، أنا جوّزت تلت بنات والموضوع ده بيرجع للزوج ومقامه بسّ في الحالة دي وانت بتطلب إنّنا ما نعلنش لفترة هيبقى ليّا طلبات مختلفة تضمن حقها".

طلب منه أبي نصفَ مليون جنيه مهرًا، والشبكة تركها لتقدير كامل، فهي هدية ثمّ طلب أن يكونَ هناك مؤخّرٌ للصداق مليون جنيه أخرى. شعرت أنّ أبي يبالغ في تلك الأرقام، وأنه يسترجع أصلَه الريفي وهو يطلب ثمنًا مبالغًا فيه لتلك الزيجة، لكن كامل قال إنه موافق، وإنّه يتمنّى أن يضاعف تلك الأرقام لو كان بيده قبلَ أن يقرأ معه الفاتحة ويتّفق على موعد للشبكة وعقد القران.

في اليوم التالي، وجدت مظروفًا في مكتبي، فتحته فوجدت فيه خطابًا رقيقًا واعتذارًا حارًّا مكتوبًا، ومفتاح سيارة كتب لي أنّها هدية القران. نزلت من الشركة وكلّي فضول لرؤية السيارة، كانت موجودة في مرآب على بُعد شارعين من الشركة، كانت سيارة كورية متوسطة السعر من طراز "كيا

سول" شقية المظهر واللون كما يقولون، تجعل التخلي عن سيارتي الحالية خيارًا سهلًا. فتحت باب السيارة، وبدأت أستطلعُها، فوجئت به يفتح الباب المقابل ويحييني، أجفلت ونهرتُه، فقد كاد قلبي يتوقّف من المفاجأة. كان يرتدي سترة مختلفة عن التي كان يرتديها في الشّركة، ويضع ربطة عنق أنيقة. أخرجَ من جيبه علبة صغيرة وفتحها مبتسمًا، كان فيها خاتم من الذهب الأبيض، استقرّ على قمّته فصّ ماسيّ صغير، وهمس برقة "تتجوّزيني".

ضحكت، وقلت له مدهوشة "إيه ده كله؟" ابتسم بحنوٍّ وقال "مش كتير عليكِ" فسألته "بتحبني بجدّ؟" فأومأ برأسه وهو يقسم على حبّي، ثمّ أمسك يدي وهمّ أن يضع فيها الخاتم فقلت له "هو إيه ده؟ أنا ما قلتش ييس ولا آي دو ولا كلام من ده".. فطبع قبلةً على كفّي بفم نصف مفتوح وهو ينظرُ في عيني متسائلًا، فأومأت بالموافقة، وتركته يضعُ الخاتم في خنصري وقلبي يرتجف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨

زياد- جنوب المحيط الهادي- أبريل ٢٠١٨

كنّا نسبح في سربٍ صغير من الدلافين الذكور فقط، كانت وظيفة هذا السرب هي مسحَ المنطقة القريبة منّا، والبحث عن أماكن الصيد المختلفة، والأماكن التي توجد فيها المفترسات التي تهددنا، وخاصّة الأوركا (الحيتان القاتلة كما يسمّيها البشر، وهي أصلًا دلافين مثلنا، لكنها مفترسة).

في طريقنا أبصرنا مركبًا راسيًا فيه بشرٌ يمرحون، أخذنا كبير السرب تجاههم، ومضينا وقتًا طويلًا نلعب معهم ونداعبهم، كان هذا يصيبني بالضيق، طيلة عمري لا أحب البشر، أسمع قصصًا كثيرة عن فظائعهم في حقّ البحار وأهلها، ولا أدري ما الذي يجعلنا نلاعبهم بتلك الطّريقة، ألا يمكن أن يكونوا خطرين، ويختطفوا مجموعة منّا كما فعلوا ببعض أصدقاء أمي قديمًا، كانت حكاية خطفهم فظيعة تثير فزعي كثيرًا.

كانت تقول لي "نحنُ لا نكره الأوركا رغم أنّها تقتل منّا الكثير، لأنّ قدرها أن تتغذى علينا كما نتغذّى نحن على الرنجة والسردين وغيرها، هكذا الدنيا، سلسلة.. كلّ واحد فيها غذاء لمَن يليه، ليس هناك طيبون ولا أشرار هنا، إنّما هي أقدارنا ننفذها، كلّ ما في يدك فعله أن تحاول أن تنقذ نفسَك قدر الإمكان، إنْ نجحت فهذا جيد لك، ويطيل في عمرك، وإن فشلت فهذا جيدٌ للأوركا التي ستأكلك".. ولكن حين يأتي الحديث عن البشر، كانت تقول "إنّهم النقمة التي نعاني منها، الإنسانُ هو الكائن الوحيد الذي يسلب الحياةَ من مخلوق حيّ لمجرد التسلية، والأسوأ أنه يأخذ بعضنا للحياة في الأسر لنصيرَ مجرّد فرجة ولهوٍ يتاجرون به".

كان كلام أمّي يدور في خاطري حين كنّا نلعب حول المركب المحمل بالبشر، سألت كبيرنا "ماذا لو كانت نيّتهم أن يقتلوننا أو يأسروننا؟".. قفز في الهواء ودارَ بجسده ثلاث دورات وهو يلتقطُ سمكة كبيرة قذفتها بشرية من على سطح المركب، تركَ نفسه يغطس في الماء ثمّ طفا ثانية، واقترب منّي وقال "البشر ليسوا كلّهم سيئين يا بنيّ".. فطقطقت مبديًا اهتمامي فقال "هؤلاء مثلًا طيبون موجودون هنا بغرض اللهو، يتسلّون مثلنا، ليس لديهم نوايا شريرة، تسألني كيف عرفت، سأقول لك حين تبلغُ العشرين مثلي ستصير قادرًا على التمييز بينهم بسهولة، وستكون مجسّاتك الصوتية قادرة على تحديد محتويات القارب، ومعرفة إن كان فيه أدوات خطيرة أم لا"

عرفتُ منه الكثير عن البشر بعد أنِ انصرفنا من عندهم، قال لي إنّ البشر مساكين، ويعانون من ابتلاءٍ هو الأشدّ بين الكائنات الحية أجمع، وهو الابتلاء

الذي يظهر في بعظهم كل تلك الشرور؛ إنّهم منذ ميلادهم في صراع مع نفوسهم، لا يعرفون ماذا يريدون، يحملون نقمة تمتعهم باختيارات جمّة أغلبُها لا يمكن تحقيقه، وتطلّعات واسعة لا يملكون الوصول إلى أكثرها، وطمع لا حدودَ له، معجونٌ بخلاياهم، لا يملكون إزالته من طبيعتهم، ومع ذلك مأمورون بقمعه والتحكم فيه. إنّهم يعيشون مأساة التناقض الفظيع أمام المأمول غير الممكن، وأمام الممنوع المرغوب والمشتهَى الذي يحمل الألم في تبعاته.

“لكنّ هذا لا يعني أنهم في جحيم، وأنّهم لا يملكون ميزات تعوّضهم عن كلّ تلك المآسي”.. قال لي وحكى لي عن أشياء يفعلها البشر، ولا نملك نحن فعلها، فنحن وإن كنّا في أمان من مآسيهم فنحنُ لا حظّ لنا من متعهم العديدة. سألني بعد أنْ أمضى ساعة يقارن بين حياتنا وحياتهم “لو جاءتك الفرصة لتكون بشريًّا، هل توافق؟”.. فقلت له “لا أريد إلّا تحقيق قدري، لست مثلهم أطمعُ للحصول على ما في يدِ غيري”.. صفّر وطقطق وهو يهزّ ذيله ضاحكًا وقال “أتعرف أننا كائنات البحر الوحيدة التي تفكّر بهذه الحكمة، أقول لك أيضًا، هناك دلافين قليلة تصل لذلك المستوى في التفكير، سلالات نادرة يبدو أنّك مثلي تنتمي إليها”.

ترك بقية السرب يكملُ طريقه، ثمّ سألني “لو أنّ هناك مكانًا ما، تتمكن فيه من تجربة حياة البشر بمتعتها دون آلامها، هل تسعى للذهاب إلى هذا المكان؟”.. قلت وقد تذكرت أسطورة قديمة “هل تقصدُ الجزيرة المسحورة؟” كانت حكاية مشهورة عن جزيرة مسحورة يتحول الدولفين بشرًا حين يلمس شاطئها، ثمّ يعود إلى الماء دولفينًا، ويقولون إنّها جزيرة مخفية لا يجدها من يبحث عنها، وإنما هي مَن تجد الجديرين بها.

“أنا أراك من الجديرين بها يا بني، فلديك حكمة وعقل نادران”.. سألته والشكّ يملؤني “هل أنت من الجديرين أيضًا؟ هل زرتها؟”.. حرّك رأسه موافقًا فسألته “وكيف كانت تجربتك؟”.. فقفز في الهواء وغطسَ، ودار حولي، ثمّ قال “لا يمكن أن أصف متعة أن تدوس الأرض بقدمين، تشعرُ بالرمل يهبط تحت قدميك، وبالحصباء تعانق جلدك، أنْ تتنشق الأنسام دون أن يختلط ماء البحر بها، وأن تغزو خياشيمك رائحةُ الورود وعبير الروابي الخضراء، أن تتسلق الأشجار وتقفز بينها حاصدًا الثمار، ثمّ تقطعها بأسنانك وتتذوّق عصارتها ببطء، أن تشوي السمك بعد أن تضيفَ عليه بعض النباتات، وتجرّب طعمًا آخر غير الذي نجرّبه، هناك أيضًا أشكال الجمال في الأرض، الجبال المكسوّة بالخضرة والجداول والأزهار اليانعة، والنوم على فراش أو على الأرض حتى؛ له متعة تختلف كثيرة عن النوم عندنا، هناك متعة لكلّ حاسة ليست موجودة إلّا عند البشر، ومأساتهم الكبرى أنّهم معتادون على أعظم تلك المتع، لدرجة أنهم لم يعودوا يشعرون بقيمتها، وهنا تأتي الميزة التي لدينا نحنُ الدلافين الجديرين

بالجزيرة، نحن لا نملّ تلك المتع لأنّها غير مستمرة، فنحن لا نقيم بالجزيرة غيرَ يوم وليلة فقط تعود بعدها للمحيط".

قال لي إنّ البشر الذين قابلناهم اليوم على المركب يعملون بجهد، ويدّخرون كثيرًا كي يأتوا لقضاءِ بضعة أيام في المحيط ليستمتعوا به، المحيط الذي اعتدنا على متعة التواجد فيه حتى صارت شيئًا عاديًّا، ثمّ أضاف "زيارة الجزيرة والتجول فيها كبشري هي رحلة للمتعة لكنها مجانية".. سألته كيف عرفَ هذه الأشياء كلّها عن البشر؟ فقد كان يتكلم كما لو أنّه عاش بينهم فقال "الجزيرة يا بني، إنّها تهبك معرفة هائلة عن البشر، وحياتهم وعاداتهم وألسنتهم، هل تعرف أنّ كلّ مجموعة من البشر لها لسانٌ مختلف عن غيرها؟ أنا أعرف هذا، وأعرف كيف أتحدّث بها حين أكون بشريًّا، رغم أنه لا بشر يأتون لهذه الجزيرة".

ملأتني الرغبةُ في الذهاب لتلك الجزيرة، وسألته عن السبيل إليها، فقال "أوّل شرط ألّا تخبر أحدًا، لا أمّك ولا وليفتك ولا أصدقاءك".. فسألت "وثاني شرط؟" فقال "أن تكون جديرًا بها، الطريق إليها خطرٌ وعسير، لا بدّ أن تمرّ من منطقة يعيش فيها الكثير من الأوركا، لا بدّ أن تفلتَ منهم أوّلًا، ثمّ بعد ذلك تقطع يومَيْن في المحيط القاحل؛ ذلك الجزء الذي لا سمك فيه ولا دليل، ولا جزر ولا أي شيء، أكثر مناطق المحيط إرعابًا لا بدّ أن تعبرها، وعندها ستجدك الجزيرة".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩

أروى- فينيسيا- يونيو ٢٠١٨

لم تعجبني باريس؛ أعتقد أنّ السبب الرئيسي كان تلك الصورة الساحرة لمدينة النور التي كنت أتخيّلها في ذهني حين أحلمُ بالذهاب إليها. كامل خيّرني قبل السفر؛ أي المدن تريدين أن تزوري؟ اخترت باريس بالطبع، لكنّني لم أكن أتخيّلها بهذا الزحام، طوابير طويلة في كل مكان، تقفُ ثلاث ساعات لتتمكن من صعود برج إيفل، والبقاء به لمدّة ساعة. كان كامل مولعًا بالمتاحف، وجعلنا نقضي يومًا كاملًا في متحف اللوفر، ضاع أغلبه في الطوابير.

لكنّ الوقت الأكثر إمتاعًا كان حين قرّر أن نزور قصر فرساي، تدخله من خلال بوابة مذهبة بعدَ طابور طويل، تشاهد قاعة المرايا الطويلة المزدانة بتماثيل مذهبة وأبواب مذهبة، لا أدري من أين أتوا بكلّ هذا الذهب، كنت مبهورة من روعة المعمار لكنّ الحدائق كانت شيئًا آخر، لوحات من الأشجار والزرع والبرك والمنحوتات أروع من تلك الرسومات التي تملأ متحف اللوفر، العرض المسائي الخلّاب في الحديقة كان يشبه الأوبريتات في الأفلام القديمة في بهجتها، لكنّني كنت قد تعبت كثيرًا فلم أتمكّن من الاستمتاع به.

حسدتُ ماري أنطوانيت حين شاهدت مقرّها؛ وهو قصر صغير على مبعدة من القصر الرئيسي، لكنّ الحقيقة أنني لم أحسدها على حياتها في هذا المكان وعلى قطع الأثاث التي تكاد تنطقُ من جمالها؛ بقدر ما حسدتها على أنّها لم تكن تضطرّ أن تكون وسط تلك الحشود الغفيرة لتشاهد هذا الجمال. الزحام يفسد كلّ جميل فعلًا، لو تتاح لي الفرصة أنْ أتمشى في هذا القصر أنا وكامل فقط لكانَ هذا أروع من ليلتنا الأولى.

عذرًا هذا التشبيه مبالَغ فيه فعلًا؛ ليلتنا الأولى محتْ كلّ ذكرى سيئة عن الرجال في هذا العالم. قضيناها في فندقٍ على النيل، أعطى للنيل انطباعًا جديدًا غير ما عهدته طيلة عمري، كان كامل في تلك الليلة أميرًا وكنت أميرته، ثمّ كان شابًّا عابثًا وكنت فتاته اللعوب، ثمّ صار الرجل الوحيد في الدنيا وصرتُ الأنثى الوحيدة. كامل دشّن أنوثتي في تلك الليلة، وجعلني أكتشف أحاسيس لم أكنْ أعلم أنّها موجودة. أعتقد أنني في تلك النقطة تفوقت على ماري أنطوانيت إن كانت هي تفوقت عليّ في حصولها على قصر خاصّ لا يزاحمها فيه آلاف السياح؛ فأنا كنت أمتلك رجلًا عالمُه أشدّ سحرًا من قصورها، ولا يزاحمني فيه نساء أخريات كما كنّ يزاحمن ماري أنطوانيت في رجالها، سواء الزوج أو الحبيب.

قبل أن نسافر، ذهب إلى دبيّ لرؤية أولاده وقضيت خمسة أيام أكاد أموت من الشوق إليه بعد أن ذقتُ النعيم بين يديه. كنّا نتحدث طيلة الليل يحكي لي عن أشواقه وأحكي له كم أتوق للمساته التي أدمنتها، قابلني في مطار دبي حيث كان ترانزيت طائرتي لباريس، ومن فرط شوقه لي، استأجر لنا غرفة في فندقِ المطار قضينا بها عدّة ساعات قبل التوجه إلى باريس التي قابلتني مقابلة فاترة باستقبال مزدحمٍ في مطار شارل ديجول الذي قضينا في طوابيره ساعات.

في فينيسيا، كان الأمر مختلفًا، لم نكن قد خطّطنا لزيارتها أول الأمر، لكن كامل كان يشعر أن هناك شيئًا ناقصًا نحتاجه لتكتمل الرحلة، أعتقد أنّه شعر بهذا لأنه لم يبصر في عيني ذلك الانبهار الذي رآه يومَ عزمني على العشاء في بيت السحيمي وعنده حق. إن انبهارنا بشيء يتناسبُ مع توقعاتنا، والصورة التي كنّا نرسمها في خيالنا لهذا الشيء. كنت لا أتوقع كل ما رأيت حين زرتُ بيت السحيمي، بالعكس كنت أظنني سأقضي أمسية ثقيلة الظل وانبهرت حين رأيتُ كلّ ما أعدّه لي كامل، الرجل الذي كان غريبًا عني وقتها. في المقابل كانت توقعاتي مرتفعة جدًّا حيال زيارة لباريس مع زوجي، والحقيقة أن كامل بذل كلّ ما في وسعه لإسعادي لكن الزّحامَ كان يجعلني أنتظر لحظة عودتنا للفندق بمنتهى الشوق.

فينيسيا استقبلتنا بلا ازدحام في المطار، لكنّ المدينة كانت مزدحمة، كامل في باريس كان خبيرًا يأخذني من يدي يشرحُ هنا وهناك، ويعرف كيف نتجه وأين، لكنه في فينيسيا كان مثلي يتحسس الطريقَ ويتوه مثلي، كان هذا يعطيني انطباعًا أنّ الذكرى هنا ملكي أنا فقط، بينما كنت أشعر أن شبحَ امرأة أخرى- أو أشباح نساء أخريات- كان يرافقنا في باريس، وهو نوع إضافي من الزحام جعل استمتاعي بتلك المدينة باهتًا.

في فينيسيا، كان الزحام أشبه بزحام وسط البلد في أيام الأعياد، زحام مقبول تشعر في اختراقه بمتعة التحدي، وزهْو النجاح، بخلاف زحام الطوابير الباريسية المضجر الخانق. كنا في رحلة بالجندول وهو أبرزُ شيء في فينيسا، وعندها عرضَ علينا السائق رحلة مجانية، قال إنها لزبائنه فقط، وافقت بسرعة وأنا أشكرُه، فضحك كامل وقال له بالإنجليزية "لا يوجد شيء مجاني وخاصّة في إيطاليا".. فأقسم الرجل أننا لن ندفع قرشًا.

كانت الرحلة لجزيرة مورانو، دخلت على جوجل سريعًا لأبحث عنها، كانت مشهورة بصناعة الزّجاج، كانت صورة المصنوعات المتاحة على الإنترنت تظهر منحوتات زجاجية وتحفًا فاتنة، لكنّ الأجمل كان منظر الجزيرة ومنازلها، وهو ما جعلني أصرّ على الرحلة رغم تشكك كامل.

كان موعدُ الرحلة في الرابعة، وكانت لا تزال الثانية، ذهبنا للفندق وتناولنا الغداء، في طريق عودتنا لمرفأ المراكب مررنا من ساحة سان مارك أمام الكنيسة التي كنّا نخطط لزيارتها في اليوم التالي، رأيت مجموعة من الرجال يرتدي كلّ واحد منهم حرملة سوداء كبيرة تغطي سترة وربطة عنق كحلية، كانت أشكالهم تذكّرني بفيلم ما، منظر غامض يوحي بمغامرة، طلبت من كامل أن يستفسرَ منهم ماذا يفعلون، فضحك بصوت عالٍ، وقال إنّهم يعملون في ذلك المقهى الفاخر، وهذا زيّ يجذب السياح المجانين أمثالنا ليجلسوا على المقهى ويتناولوا كوب قهوة بخمسة أضعاف ثمنه. أطلقتُ صيحة استهجان، وجذبته من يده، وقلت "طب يلّا نروح الرحلة أمّ بلاش أحسن".

حين وصلنا لجزيرة مورانوا، اتّضح لي الغرض، لم يجعلونا نشاهد جمال الجزيرة بل دخلوا بنا من ناحية مقفرة يطلّ عليها باب مصنع زجاج. حين رأينا الاسم المكتوب على اللافتة هتف كامل مندهشًا فأثار استغرابي، طلب منّي أن أتأمل الاسم، فلم ألاحظ وجهة نظره، فقال "استيفان روستي، مش عارفاه؟ بتاع نشّنت يا فالح".. عقدت حاجبي متسائلة، فقال مقلّدًا صوت ممثل أعرفه من أفلام الأبيض والأسود، لكنّني لم أكن أعرف اسمه. أعدت النظر للافتة ثمّ نظرت له مبتسمة، وقبّلته وأنا أضحك، وأقول مازحة "يمكن ولاده فتحوا مصنع وحطّوا اسمه ع اليافطة".

أدخلونا لورشةٍ واسعة يجلس فيها رجل ينفخ في الزجاج ويشكّله حتى حوّله إلى حصان متقن الصنع، ألوانه متداخلة بين الأحمر والأزرق. كان ماهرًا لكنّني لم أستمتع بالعرض لدرجة أن المرشدَ الموجود معنا أعطاني الحصان ليجتذب انتباهي. قبّلني كامل في خدّي، وهو مستمتع بالفرحة الطفولية التي ظهرتْ في عيني حين أمسكت الحصان.

أخذونا لجولةٍ في معرض التحف الزجاجية الموجود أعلى الورشة- وهو السبب الوحيد لتلك الرحلة- كانت التحفُ أقرب لمعروضات في متحف، سمعت امرأة بريطانية ترافقنا في المجموعة تسأل عن سعْر تمثال طائر زجاجي، ثمّ ما لبثت أن أطلقت صيحة استهجان بسبب السّعر المبالغ فيه، فضحكت وقلتُ لكامل "الستات ما ينضحكش عليهم، حتّى الخواجات".. فضحك وهو يقول "ما همّ ضحكوا عليكِ وجابوكِ هنا".. فقرصته في ذراعه وأنا أجذبه لنشاهد بقية المعروضات.

في طريق العودة، كانت المرأة البريطانية مازالت تسبّ المصنع والعاملين فيه، وتتّهمهم بالنصب والمبالغة في الأسعار. كنتُ وكامل نكتمُ ضحكاتنا وهي تتكلم حتى وصلنا وعندها طلب منّي أن نحتسي القهوة في ذلك المقهى المبالغ فيه. اعترضتُ وطلبت أن نمشي قليلًا. كانت الشّوارع ضيقة، كلها حواري صغيرة تتفرع وتتشعب لكنّها نظيفة ومنظمة وتتراص فيها محالّ

للهدايا والتحف ومطاعم ومقاهٍ تبدو أرخص كثيرًا من الموجودة في الساحة. جلسنا في أحد المقاهي، فوجئت بكامل يفتح الحقيبة الجلدية ويُخرج طاقم الحلي الزجاجية الذي أعجبني هناك، لا أذكرُ أنّني رأيته يشتريه، هتفتُ في انبهار وسألته عن سعره فتجاهل السؤال وهو يطلب منّي أنْ أرتديه له حين نعودُ للفندق. لم أتمالك نفسي وطبعت قبْلة على فمه، ثمّ تلفت حولي كأنني تلميذةٌ أخطأت فابتسمَ وأخذ يدي وطبع عليها قبْلة طويلة استمرّت حتى جاء النادل بالقهوة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٠

أروى- القاهرة- يوليو ٢٠١٨

اليوم الثلاثاء موعدي مع نهاد؛ صديقتي وطبيبتي النسائية الخاصة، زرتها مع كامل في بداية زواجنا حين أخبرني برغبته في أنْ ألجأ لتركيب أداةٍ لمنع الحمل. يومها طمأنتني نهاد وقالت بطريقتها المرحة أن الثلاثينيّات أمثالنا (كانت من نفس عمري) يجدنَ هذه الوسيلة أسهل وأكثر أمنًا. المشكلة كانت في نوباتِ المغص التي تداهمني من آنٍ لآخر، وهو ما جعلها تطلب منّي أن أزورها اليوم.

كنت في غرفة الانتظار في عيادتها، صالة فسيحة فيها شاشة كبيرة تعرض فيديوهات عن صحّة المرأة، وعن مهارة الدكتورة نهاد في الحفاظِ عليها، كانت عيادة شديدة الأناقة، أثثها لها زوجها وأهداها لها يوم حصولها على درجة الماجستير، كانت زيجتها مثارَ حسد من كثيرات، لكنّني كنت من القليلات العالمات ببواطن الأمور، وأعرف أنّها تعاني الكثير ممّا لا تفصح عنه، وأنّها تدفن نفسها في العمل للبعد عنه قدر الإمكان.

طلبتُ من السكرتيرة أن تدخلني في دوري، وألّا تخبر نهاد بوجودي قبلها؛ كي لا أسبب حرجًا لها، فتحت هاتفي الذي أحضرَه لي كامل من آخر زيارةٍ له في دبي، أخذني الحنين ليومنا الثاني في فينيسيا، ففتحت الصور، صورة التقطها له وهو يناقش المرشدة السياحية التي كانت تشرح لنا تاريخَ كنيسة سان مارك، ونقل رفاته من الإسكندرية لفينيسيا، وهو يؤكّد لها أن هذا الرفات ملكٌ للمصريين، وينبغي أن يعود لمصر. كنّا أمام الضريح، وكان التصوير ممنوعًا، لكنه كان جذّابًا وهو يتحدّث، ما جعلني أخرج هاتفي خلسة، وألتقط الصورة.

صورة ثانية في قصر حاكم فينيسيا أمام لوحة بمساحة الجدار وهو يهمس في أذني بكلام عابث جعلَ وجهي يبدو شديد الخجل في الصورة، صورة أخرى وخلفنا دروعٌ قديمة وهو يقترح علي أنْ يرتدي واحدًا لي وأنا أضحك. الصورة الأخيرة لقطعة من جدار في سجن القصر، عليها كتابات لأحدِ السجون، قضينا معًا وقتًا نخمن معنى تلك الكتابة؛ أنا أؤكد أنها رسالة حب وهو يؤكّد أنّها شكوى من مظالم السجن ووحشته. كانت تلك الذكريات هي زادي الأساسي في فترة بعدِه عنّي وهو في دبي يزور أولاده كما يفعل هذه الأيام.

قاطعتني السكرتيرة وهي تطلب منّي الدخول، استقبالها كان حارًّا كالعادة، طلبت مني في البداية أنْ تكشف عليّ لتطمئنني، ثمّ بعد ذلك نجلس قليلًا لنتبادل الحديث. كان كلّ شيء طبيعيًّا، وصفت لي دواء مسكنًا، وأدوية

موضعية، ثمّ جلست معي على الأريكة الجانبية وهي تسألني عن كامل فأخبرتها أنّه في دبي.

أخبرتني أنّها تشعر بصعوبة ذلك الموقف، وأنه لا توجد علاقة صافية تمامًا دون منغصات رغم أنّ صديقاتنا يقلنَ غير ذلك، وأضافت "عاوزاك تعملي زي البنات الناصحة وتقعدي تشتكي شويّة، ما تبينيش السعادة دي كلّها، وخصوصًا لنجلاء، البت دي بومة".. ضحكت على ملاحظتها لكنّها أعادت الإلحاح علي، لم تكن نهاد من النوع الذي يخشى الحسد، ويتطير من كلام الناس، لكن منذ أنْ ساءت الأمور بينها وبين زوجها وهي تصرّ أن هناك سببًا خفيًّا وراء ذلك، وأنّ الناس- حتى لو كانوا يكنّون لك كل الحب- لا يستطيعون منع أنفسهم من حسد المرأة السعيدة لأنّ وجود امرأة سعيدة هي حالة استثنائية تستوجب الحسد.

كنت أتمنّى البقاء معها وقتًا أطول، لكنّني قدرت أنّ مرضاها يتبرمون في الخارج الآن في انتظار الدخول فتركتها على وعدٍ باللقاء. في سيارتي فتحت الهاتف لأرسل لكامل فوجدت إشعارًا برسالة من شخصٍ غريب. فتحت الرسالة كانت تقول "أنا في القاهرة، ممكن نتقابل؟" كانت الرسالة من طليقة كامل اسمُها على الفيس بوك كما هو في الحقيقة "درية العراقي". كنت قدْ دخلت حسابها مرّات عديدة من قبل بدافع الفضول لكنّني لم أتخيل أنها ستطلب مقابلتي.

فكّرت أن أطلب كامل لأسأله عن رأيه، لكنّني تجمدت، فقدت القدرة على التفكير واتخاذ القرار وأنا أتأمّل صورة البروفايل الخاصّة بها كأنني أراها للمرة الأولى، هي وابناها يرتديان ثيابَ التزلج في مكان مغلق، يبدو أنّه سكي دبي أو سكي مصر، كان وجهها غير واضح المعالم لم ينبئني بدرجة جمالها، وكانت ملابس التزلج تغطي تفاصيل قوامها، فلم أعرف إن كانت أنحفَ منّي أم أسمن.

أرسلتُ إليها أنني موافقة، ولنجعلها الآن إنْ أمكن، كانت فرصة جيدة على الرغم من احتمالاتها المقلقة. هذه الرسالة منها تؤكّد أنها تعرف مَن أنا، وتعرف عن زواجي بكامل بالتأكيد، لكنه لم يخبرني أنّها تعرف، كيف يخبئ عنّي أمرًا كهذا، أيعقل أنّهما اتفقا، وأنّه سيعود إليها، وأنها أجبرته أن يتركها تقابلني؟ لو كان الأمر كذلك لأعطاها رقم هاتفي. قاطعتني رسالتها التي تعلن الموافقة على أن نتقابل الآن، وحدّدت سيلانترو القريب من شركتي كمكان مقترح للقاء.

وصلتُ فوجدتها في انتظاري، ملابسها تبدو عادية للوهلة الأولى، لكن مع التدقيق اكتشفت أنها ترتدي كمية من الماركات العالمية أكثر من أنْ أحصيها،

السترة كانت مزدانة بشعار شانيل على قميص لم أتبين ماركته، تزينه قلادة على شكل بجعة شوارفسكي الشهيرة، ذهبية مزدانة بفصوص أحّاذة، ساعتها من ديور، وحقيبتها الصغيرة التي وضعتها أمامي على الطاولة تزهو بعلامة أرماني. آه.. نسيت، المرأة نفسها كانت جميلة، عيناها زيتونيتان وبشرتها صافية دون تبرّج مبالغ فيه، وشفتاها ممتلئتان مرسومتان بدقة. كانت هي الأخرى تتفحصني، وأعتقد أنّها قد وضعت تصوّرًا لي في الثواني الأولى من لقائنا.

جاءت النادلة وطلبنا عصيرًا، أصرّت أن تعزمني، وقالت إنها طلبت مقابلتي ثمّ أضافت ضاحكة "وبعدين أنا الكبيرة" فهززتُ رأسي وابتسمت مجاملة. عرّفتني بنفسها، قالت إنها تزوجت كامل منذُ خمسة عشر عامًا تقريبًا، وسافرت معه للإمارات، وعملت بشركة عقارية هامة واستطاعت أنْ تنشئ شركة خاصّة بها مع صديقة إماراتية، وأنّ عملها مزدهر. كانت تتحدث كأنها تسرد سيرتَها الذاتية لصاحب عملٍ جديد، وهو أمرٌ لم أفهم غرضه. لاحظتْ هي تبرّمي، فقالت "ندخل في المهم".. ثمّ أخبرتني أنّها ترحب تمامًا بزيجتي من كامل، وإن كانت لم تخبره أنها تعرف حتّى الآن، وأنها تريد التعرف عليّ لتزيل أيّ صورة سلبية ربّما قد يكون كامل نقلها عنها لأنها مُعتادة على احترافه للكذب.

كانت تلك بداية نقدِها لكامل، لكنها تجاوزت النقطة تلك، وقالت إنّها تريد أن تضمن لو استمرت زيجتنا وأنجبت أبناءً لكامل أن تكون علاقتنا جيدة ليكون الأخوة المستقبليّون سندًا لبعضهم بدلًا من أن يكونوا أعداء.

حكايتها مع كامل- طبقًا لروايتها- تتلخّص في زوجة مخلصة، وزوج لعوب، لا يكفّ عن الدّخول في قصص حبّ متتالية، إضافة لبعض العلاقات المشبوهة مدفوعة الأجر. ازدردت ريقي بصعوبة وأنا أقنعُ نفسي أنّ هذا هراء، وأنّ مغامرات كامل بدأت بعد طلاقهما، لكنها قالت "أكيد حكالك عن مغامرات عاطفية بدأت بعد طلاقنا، بسّ الحقيقة مغامراته كانت سبب طلاقنا". أقسمَت أنّها كانت تتحمل خياناته من أجل أولادهما، وأنّها ضبطته مرّات لا تحصى، وكلّ مرة يبكي لها وينتحب كطفل، ويقسم على التوبة. قالت إنّها بعد مغامرة زواجه من فتاة صغيرة- وبعد أن تبرّأ منها وطلقها- أجبرته على أن يضع نصفَ ممتلكاته باسم الولدين في عقارات تديرها شركتها، وأنّها فعلت ذلك لتضمن حقّهم؛ فكامل- كما تقول- سخي جدًّا مع النساء بعواطفه وأمواله، يغرق المرأة بكلام حبّ ورومانسية مفرطة، وهدايا وسفريات ليجعلها تصدّق أنها الأنثى الوحيدة في العالم.. "أنا رميت طوبته كزوج وحبيب من قبْل ما نتطلق بسنين".. وأكدت ثانية أنّها استمرّت معه من أجل ابنيها، لكنّ الأمور في النهاية

وصلت لحدّ لا يمكن تحمله حين نقلَ لها مرضًا من إحدى الساقطات اللواتي يعرفهن.

كانت المعلومات تتدفّق على قلبي كفيضان كاسح، مهما كانت تبالغ لا بدّ أن هناك جزءًا من الحقيقة وسط هذا الكلام، المرأة تبدو عاقلة، ليست بذلك الشكل الذي يصفه، وهي سيدة أعمال ناجحة، ثمّ إنّ مبررها لترك أمواله تحت تصرفها أقوى من مبرره الهزيل. استأذنت منها للذهاب إلى الحمام، وقفت هناك أفكّر في ردّة فعلي؛ لم أكنْ أريد للعفوية أن تسيطر على موقف كهذا، فهذه المرأة "درية" استعدّت ورتّبت كلّ كلمة تقولها دون أن تبيّن الغرض الحقيقي من قولها، أيعقل أنّها مازالت تحبّه وتحاول إفساد زواجي لتستعيده، أم تريد الانتقام منه وتدمير سعادته، أم تريدُ مصلحتى وتريد إطلاعي على حقيقته، إن كانت الأخيرة هي الحقيقة فلا بدّ أنها ملاك، ولا بدّ أنّها طارت من دبي بأجنحتها البيضاء لتنجّيني من مهلكة كامل.

جلستُ أمامها ثانية، حاولت أن تكملَ من حيث بدأت، لكنّني قاطعتها قلت "كلّ ده ما يبررش سبب طلبك لمقابلتي".. ابتسمت وهي تركّز في عيني وقالت "وإيه الغرض في رأيك؟".. فقلت ببرودٍ شديد لا أعرف مِن أين جئت به "مبجّش أخمن، لو خلّصتِ اللّي عندك اسمحيلي أمشي". استوقفتني وتكلّمت بهدوء مؤكّدة أنّ صالح أولادها هو الأساس؛ زوجها لديه أموال وعقارات أخرى، ولا تريده أن يبدّدها على مغامرات تافهة، وأضافت "صدّقيني، أنا نفسي جوازك منه يهديه، على الأقلّ هيبطل يرمي فلوسه يمين وشمال، وهتبقى لولادي وولادك في المستقبل".

توقّعت أن تطلب منّي ألّا أخبره بلقائنا، لكنّها طلبت منّي أن أواجهه، وأن أختبر إخلاصه بأنْ أطلب منه أنْ يعلن زواجنا، وأن نسعى للإنجاب، فقلت لها "ومين قالك إنّنا مش عاوزين نخلف؟".. ابتسمت بسخرية وهي تقول إنّ الحكاية متكرّرة معه، وقال إنّ كلّ حواديته وحيله معروفة لها بدءًا من القبلة على اليدِ بشفتين منفرجتين. "أنتِ بنت ناس، يمكن الوحيدة اللي كامل عرفها وأقدر أأمنها عليه، وعلى إنها تكون أمّ لاخوات ولادي بدال ما يجيبلهم خواجاية تلبّسه عيل مش من صلبه".. ختمت كلامها كمحامية تختم مرافعتها أمام القضاة.

كان هذا كثيرًا لأستوعبه، كامل حكايته معي مليئة بالدراما في حلوها ومرّها، قلت "مش يمكن انتِ لسّه عاوزاه يرجعلك!".. فضحكت ساخرة، وقالت إنّ كامل انتهى من حياتها، وأنّه لديه طاقة من العواطف وحبّ النساء تمنعه من الإخلاص لامرأة واحدة، ثمّ قالت "أنا كمان عندي خططي، أنا ستّ، وعندي احتياجات عاطفية أنا كمان".. ثمّ قامت ومدّت يدها تصافحني وهي تتمنّى لي

التوفيق، وتعتذر إنْ كان كلامها ضايقني، لكنْ تلك طبيعة الحياة، وعليّ أن أتقبلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١١

زياد- جنوب المحيط الهادي- مايو ٢٠١٨

لم يحنْ موعدي بعدُ لأذهب للجزيرة المسحور، هكذا قال الدولفين العجوز ولم يوضّح السبب أو يضرب لي موعدًا، فقط قال لي قريبًا ولم يفصل. أثناء نومي أستخدم نصف مخي المستيقظ في التفكير في تلك الرحلة أكثر ممّا أستخدمه لحماية نفسي من الأخطار، أو لتحديد موعد صعودي للسّطح لالتقاط الأنفاس، بينما نصف مخّي النائم تراوده أحلامٌ عجيبة عن تلك الجزيرة، عن وطء الثرى بقدمي وتسلّق التلال والتقاط الثمار الطازجة، وغيرها.

اليوم، قرّرنا أنا ومايا وصديقٌ لنا الذهابَ للصيد في مكان غامض اقترحه نادر- ثالثنا- وهو دولفين يكبرني بأقلّ من عام، قال إنّ أمّه أخذته للصيد هناك عدّة مرات. مكان ذو عمق متوسط بالقرب من الحيد المرجاني ترقد أسماك كثيرة تحت رماله الناعمة في القاع.

نزلنا للعمق مُتقاربين نمزح بأجسادنا نتدافع ويدغدغ بعضُنا البعض بزعانفه، كنّا متلاصقين نهبطُ بشكل عمودي تقريبًا حتى وصلنا للقاع. كانت المياه عكرة، والرؤية ضعيفة، ولمْنا على نادر لأنّ فكرته بدتْ شديدة الحمق في تلك اللحظة، لكنّه لم يهتمّ باعتراضنا، واقترب بخطمه من بقعةٍ في الرمال، ثمّ غرسه فجأة، واستخرج سمكة والتهمها.

حذونا حذْوه باحثين عن السمك بين رمال القاع بدون جدوى، حتّى هو لم يحالفه الحظ ثانية. التفتَ نحونا وقال "الآن سننتظر".. فقلت له وأنا أطقطق بغيظ "ننتظر ماذا؟".. فصفر وطقطق مشيرًا ناحية سمكتيْن من سمك الراي السام. قال إنّ لديها مجسّات كهربية تجعله تشعر بالأسماك المختبئة أفضل منّا، وما علينا إلّا أن نراقبها ونشاركها في الطعام الذي تكتشفه، لكن علينا تجنّب لمس ذيلها السّام؛ فهو يلسع لسعات مؤلمة.

نجحتِ الفكرة واستطعنا الحصولَ على غذاء وفير، وصار نادر يتبختر بيننا كأنّه صاحب اكتشافٍ علمي جديد، آه.. استطعت ساعتها أنْ أخبره أنّني من بين قلّة نادرة من بني جنسنا لديهم القدرةُ على الذهاب إلى الجزيرة المسحورة التي تحوّل الدولفين بشرًا وهو على أرضها، لجعلته يموتُ من الغيظ، لكنّ تعليمات العجوز كانت صارمة.

وسط نشوتنا بانتهاءِ الصيد وانغمارنا في اللّهو والمزاح والسباحة المتداخلة بين بعضنا؛ فوجئنا بقطيعٍ كبير من الدلافين الغريبة، كلّهم ذكور كبار العمر يتّجهون نحونا بسرعة، وأصواتهم تنضحُ بالعداوة والكراهية. الطبيعي في

موقفٍ كهذا أنْ نحاول الهرب، وأن نرسل استغاثاتٍ لقطيعنا ليأتوا لنجدتنا، لكنّهم حاصرونا بأعدادهم الكبيرة، ولم يتركوا لنا مجالًا للهرب.

مضى الوقت عصيبًا ونحن نحاول تفادي ضرباتهم وعضّاتهم بصعوبة، نالنا بعض من الخدوش والجروح، وباءت محاولاتنا للهرب بالفشل، وتاهت أصوات استغاثاتنا- بل لم تظهر أصلًا- وسطَ أصواتهم المرتفعة العديدة. كنّا نحن الثلاثة ملتصقين ببعضنا، لكنّني كنت أحمي مايا أكثرَ، أحاول أن أمنع عنها أكبرَ قدرٍ من الأذى.

بدَا أخيرًا أنّ الدلافين المهاجمة قد ملّت اللعبة؛ فقد كفّوا عن محاولة إلحاق الأذى بنا، وإن ظلّوا يحاصروننا. تبيّنت أخيرًا ثغرة اندفعتُ فيها ومعي مايا، واستطعنا اختراق صفوفهم، ونادر في إثرنا، طاردتنا مجموعةُ الدلافين مسافة قصيرة، لكنّهم توقفوا حين وجودونا نوغل في عمق الحيد المرجاني. كان الهواء يوشك على النفاد، وكان ينبغي أن نصعدَ للسطح، لكن للأسف كنّا تائهينَ وسط الشعاب المرجانية التي تحيطنا من أعلى وأسفل.

شعرتْ مايا بالذعر وهي تنظرُ إلى هيكل سلحفاة بحرية، وتقسم أنّ سبب موتها أنها تاهت في الأعماق مثلها حتّى انقطعت أنفاسها وماتت مختنقة. سخرَ نادر منها لكنّه دخل في نوبة فزع هو الآخر حين رأى عظامَ دولفين صغير يبدو أنّه مات مختنقًا بدوره. استجمعت شجاعتي وطلبت منهما أن يتبعاني، وأن يكفّا عن الهلع. أطلقت أصواتي حتى اكتشفتُ ثغرة بين الشعاب اتجهت إليها، فوجدت ضوء الشمس يتخلّلها فاخترقتها وأنا أصفر بفرح، وهمَا في إثري.

كانت قفزتنا نحن الثلاثة في الهواء مرتفعة مبتهجة بنجاتنا، ولحُسن الحظ كانت هناك موجات مرتفعة قادمة حملتنا نحن الثلاثة، ورفعتنا أعلى ونحن نعبّ الهواء، ونملأ رئاتنا المشتاقة للأنفاس الطازجة. أعدنا القفزَ نسابق الموجة التي كانت رؤوسنا تتجاوز عبابَها قليلًا قبل أن نغطسَ فيها أثناء نزولنا. لاحظتُ بين تلك القفزات تقاربًا ومداعبة بين مايا ونادر تتجاوز ما اعتدْنا عليه، وهو ما أشعرني أنّهما يوشكان أن يشكّلا زوجًا.

كنت دومًا أعتبر مايا صديقتي مثل نادر، لم أفكر فيها على أنّها وليفتي القادمة أو أمّ أبنائي إلّا في لحظات قليلة للغاية، حين أخبرني العجوز بأمرِ الجزيرة المسحورة فكّرت مرة إن كانت مايا مِن الدلافين المختارة، وفكّرت أيضًا ألّا أقترب منها أكثر حتى أعرف، قلت لنفسي "أنا من سلالةٍ نادرة، وينبغي أن أنتقي أنثى مثلي".. وكنت على استعداد تامّ أن تكون تلك الأنثى واحدة غير مايا. رغم كلّ ذلك شعرت بضيق حين لاحظتُ مداعبتها لنادر، ورغم يقيني أنّ السبب أنها لاحظتْ منّي مؤخرًا تباعدًا روحيًّا.

شعرنا جميعًا أننا مثخنون بالجراح، وأنّنا لا بدّ نحتاج أن نعالج جراحنا، اقترحت عليهما أن نهبطَ للقاع في منطقة قريبة من مكاننا حيث سنجد الشعاب المرجانية الرخوة التي تساعد في التئام الجروح والخدوش، وخاصّة عضّات الدلافين العدوة والحيوانات الشرسة الأخرى. وافقت مايا، بينما تردّد نادر قليلًا، وذكر شيئًا عن وجوب عودتنا، فقد أطلنا الوقتَ بعيدًا عن القطيع لكنّه استسلم أمامَ إصراري وتأييد مايا.

نزلنا للمنطقة التي اخترتها، في القاع كانت قابعة هناك في انتظارنا، شعاب مرجانية تتمايل في نعومةِ بقاع المحيط، تمتدّ فروعها كأنّها ريشات من طائر كبير زاهية ألوانه. توقف كلاهما وظلّا يعومان بثبات في مكانيهما؛ كانا لا يعرفان طريقةَ استخدام ذلك العلاج، تراقصت حولهما في زهو، ثمّ أخذت أحكّ جروحي وخدوشي بالشعاب الرخوة ذهابًا وعودة في رقصة هادئة كنت أسمّيها رقصة الاستشفاء. حسمتْ مايا تردّدها، وتبعتني ورقصنا رقصة الاستشفاء معًا، وعندها انضمّ نادر إلينا حتى شعرنا جميعًا بزوال آلامنا، ثمّ قررنا الصعود لأعلى.

كان صعودنا للسطح مرتبطًا بمشكلة أخرى، وجدنا سربًا من الأوركا على مسافة غير بعيدة منّا. كنّا ثلاثة، وكنّا صيدًا سهلًا لو شعرت الأوركات بنا، وقرّرت اعتبارنا وجبة غدائها القادمة. اتّخذت دور القائد سريعًا، وشرحت لهما طريقة المناورة التي سنتّخذها، قلت "نحن أسرع من الأوركا، لكنّهم أصحاب نَفَس طويل، سنعتمد على تشتيتهم، و.." قاطعتني مايا قبل أن أكمل خطتي، وهي تطلب منّي الصمت والإنصات.

لم أفهمْ ما تعنيه، لكنّني أنصتّ كما طلبت، سمعت صوتًا عميقًا قويًّا، كان نداءًا طويلًا ممتدًّا، نغمته لها شجن مميز. كان صوت أنثى حوت أحدب تستغيث. تنفّسنا الصعداء وقد فهمنا أن الأوركات تسعى نحو صيدٍ أثمن من ثلاثة دلافين فتية، إنّها تنوي صيد صغير حوت أحدب، سمين شهي يكفي قطيعهم كلّه. سبحنا بعيدًا حتى وصلنا لمسافة آمنة، ثمّ تابعنا مراقبة المشهد باهتمام.

أدركنا أنّ الأوركات تلتف في دوائر حول أنثى الحوت وصغيرها لتصنع دوامات قوية تربكها وتجعل صغيرها يسقط بعيدًا عنها، ويكون صيدًا سهلًا لهم. أصدرت الأنثى صوتَ استغاثة آخر وهي لا تزال تدافعُ عن صغيرها، جاءها ردّ من مكان قريب، كان ثمّة ذكر حوت يعلن استعداده للمجيء للدفاع عن الصغير.

"أيّها السادة، كنت أتمنّى أن تستمتعوا بمشاهدةِ تلك المغامرة، لكن لو استطاع الحوت الذكر صدّ الأوركات عن الصغير؛ فلن يكون لديها خيار إلّا

التوجه نحونا”.. قلت لهما بحزم ووافقني نادر في الرأي، فقالت مايا متوسّلة لنا “أريد الاطمئنان على الصغير، لقد سبحت معه منذ أيام قليلة”.. فقال نادر معترضًا متهكمًا “إذا بقينا للاطمئنان عليه فمَن يطمئن علينا!؟”.. فأطلقت صفيرًا ضاحكًا، وغطست في الماء متوجّهًا نحو منطقةِ قطيعنا، وهما معي، ومايا لا تزال غاضبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٢

أروى- بورتو؛ البرتغال- أغسطس ٢٠١٨

كامل تغيّر على يدي، كانت تلك هي الحقيقة التي أكّدها لي بعد أول لقاءٍ لنا بعد مقابلتي المزلزلة معَ درية زوجته السابقة، والتي شعرت بصدقِها اليوم ونحن على شاطئ الأطلسي في مدينة بورتو البرتغالية نشاهد من بعيدٍ أمواجَه العاتية التي يبلغ حجمُ الموجة منها أضعاف حجم الموج الذي كنت أشاهده في ساحلنا الشمالي.

أكّد لي كامل كلّ الكلام الذي قالته درية، وأقسم أنّ كلّ مغامراته كانت من الماضي، وأنّه تغير حينَ أحبّني، وأنّني المرأة الاستثناء (وهي مبالغة، لكنّني تقبّلتها بصدر رحب). في تلك المرة وهو يشرح لي كمْ يحبّني، وكمْ تغير نتيجة ذلك الحب؛ لم يبكِ ولم ينتحب بصوت عال، بالعكس كانت الدموع تملأ عينيه، وتجاهد كي تنزل وهو يمنعها بكلّ قوته. شعرت بصدقه أكثر ممّا لو كان قد انتحب، فالإنسانُ يسهل عليه أن يمثل أنّه يبكي لكن لا أعتقد أنّه يستطيع تمثيل أنه يمنع نفسَه من البكاء، كان يبدو عليه لحظتَها أنه مطعون في كرامته، وأنّ بكاءه سيجرحها أكثر.

أقسمَ أنّه لم ينقل لدرية أيّة أمراض، وأنّها توهمت ذلك، قال لها طبيبُها النسائي إنّ العدوى لديها تحدث نتيجة ذلك في نسبةٍ قليلة من المرضى، وقال إنّ النسبة الأكبر تحدث لأسباب طبيعية ولكنّها رجّحت أنّه السبب فقدْ كانت تريد الطلاق، ووجدت لنفسها حجّة قاطعة عليه. حين قلت له إنّه كذبَ عليّ حين قال إنّ علاقاته النسائية كانت بعد طلاقه اعتذر، وقال إنّه كان يخشى أن أتركَه لو عرفت ذلك.

ليلتها لم أسمحْ له بالاقتراب منّي، وإطفاء شوقه، وتجاهلت لهفتي المتّقدة في أعماقي، طلبت منه أنْ يتركني لأفكر، قلت لنفسي إنّ درية فعلت ما فعلته لأنّها مازالت متعلّقة به، وتكره أن ترى امرأة جديدة في حياته تشكّل تهديدًا شاملًا لها، فأنا لست نزوة ولا امرأة عابرة. قلت لنفسي: أنا فعلًا قادرة على تغييره وجعْله مخلصًا لي، أنا جميلة، ناجحة، قوية، ذكية، وأنا سيدة راقية حين يتطلّب الأمر رقيًّا، وفتاة لعوبٌ غانية حين يتطلب الأمر ذلك، وهو ما ينسي الرجل رغبته في امرأة أخرى. قد تكون درية جاءت فعلًا لتنصحني وترى أنّني زوجة جيدة لأبِ أولادها، لكن بالتأكيد هناك في أعماقها أسبابٌ أخرى لا تفصح بها حتى لنفسها. قال لي كامل إنّ مبررها لمقابلتي “doesn’t make sense” قالها بالإنجليزية وهو يعني أنْ ليس هناك منطق لفعلها، كان مقنعًا، هذه المرأة إمّا أنها لا تزال تحبّه، أو أنها تستكثر عليه سعادة خارج نطاقها.

وربّ ضارة نافعة، في الأيام التالية أعلنّا زواجنا في الشركة، وأقمنا مأدبة في إحدى القاعات بهذه المناسبة، وصارت شقته هي شقة الزوجية، واستقبلنا فيها ضيوفًا كثيرين، من ضمنهم صديقات لي بصحبة أزواجهن، وذهبنا معا إلى النادي، وتجوّلنا هناك عدة مرات، كان هذا تغيرًا للأفضل عوّضني الأيام الصعبة التي تلت مقابلتي مع درية. مع كلّ ذلك، كان هناك شيء في قلبي جعلني أقول له إنّني لن أحاول الإنجابَ منه قبل عام، ولم يمانع.

جاءني ذاتَ يوم في مكتبي وقال لي أنْ أقدم طلب إجازة، وإنّنا سنسافر عشرة أيام، يومان في دبي، وثلاثة في بروكسل، وثلاثة في بورتو بالبرتغال. الغرض من زيارة دبي هو أن أتعرف على ولديه، وأن نقضي يومًا طويلًا معًا، ثمّ يحضر مؤتمرًا في بروكسل أرافقه فيه، ثمّ نذهب لبورتو لسببٍ لم يفصح عنه وقتها، وأكّد لي أنها مفاجأة.

المرأة منّا يهمّها في رجلها أن يشبع رغباتها الثلاث؛ رغبة الحب، رغبة الجسد، والثالثة رغبة التسوّق. كان كامل قبل ذهابنا في تلك الرحلة ناجحًا جدًّا في إشباع الأولى والثانية، ثمّ لمّا أمضينا يومين في دبي أشبعَ رغبتي الثالثة كما لم يحدث في حياتي من قبل. في مول دبي، تسوّقت من عشرة محلات على الأقلّ، كلها ماركات، حلمت كثيرًا بالتسوق منها، ماركات تقع في المستوى الثالث حسب تصنيف الماركات الذي أصدرتُه أنا لصديقاتي في العام الماضي.

شاهدت نافورة دبي لأوّل مرة، وشاهدت برج خليفة الشاهق، لكن كامل لم يرضَ أن أكتفي بمشاهدة النافورة في مكانٍ مزدحم وإنّما أخدني لمطعم لبناني تقع شرفته على النافورة مباشرة، اختارَ توقيت الساعة العاشرة حيث ترقص أمواجُ النافورة على أغنية "إنت عمري" اختلطت في أذني نغمات الموسيقى بقرقعات النافورة وخرير مياهها وصوت كامل وهو يدندنها معي، واختلطت صورة وجهه المشرق وابتسامته الرائقة ونظراته العاشقة برقصات المياه وأضوائها التي تصعد مع الماء أمتارًا طويلة تبدو معها كأنها لهيبٌ متراقص جذاب.

قضينا اليوم التالي مع الولدين؛ أنس في الرابعة عشرة، وبهاء في العاشرة، ولدان ظريفان كأبيهما، ويتحدثان الإنجليزية بطلاقةٍ أفضل من العربية. كانا مرحّبين بي ويتعاملان معي بلطف بالغ، وكأنّني قريبتهما أو صديقتهما، حمدتُ الله أنهما ولدان، فلو كانا بنتين لاختلف الأمر كثيرًا، وكانت المقابلة لتصير مقبضة مليئة بالتحفز. في هذا اليوم تسوّقت ثانية، أقل بالطبع من اليوم الأوّل، لكن أكثر كثيرًا من تسوقي في شهر كامل سابقًا.

استقبلتني بروكسيل استقبالًا أخضرَ، هبطت طائرتنا في مطار بعيد عن المدينة وأخذتنا السيارة نحو المدينة مرورًا بحقول خضراء أنستني المباني

الفارهة التي أدارت رأسي في دبي. في يومنا الأول أخذني للتسوق أيضًا، وكأنه يعلم أنّ التسوق يستميل النساء كثيرًا، ثمّ في اليوم التالي حضرتُ معه في المؤتمر، وقدّمني إلى بعض معارفه من الأجانب والعرب، وتناولنا العشاء معهم في أجواء بهيجة لا تختلف كثيرًا عن مناسبات الشركة الهامّة التي نعقدها في مصر.

كان أجمل شيء في بروكسيل تلك الحديقةَ التي كنّا نطلّ عليها من شرفة مطعم تناولنا فيه الغداء، كانت تحتلّ أغلب مساحتها، تشكيلة من الشجيرات والزهور بدت من الأعلى كسجادة مُتقنة الصنع. حين أبديت ملاحظتي تلك قال إنّهم يشبهونها بالسجادة فعلًا. جاءت النادلة، فتاة خمرية تبتسمُ في دلال، وسألتنا عن بلدنا بإنجليزية ذات لكنةٍ فرنسية، رددت عليها قبل كامل وقلت "من مصر"؛ فانبرتْ تحكي لنا عن أصلها العربي، وأنها تعشق مصر، وتتمنى زيارتها. قاطعت ثرثرتها طالبة أن تأتي لنا بقائمة الطعام. اضطررت على مضضٍ لترك كامل يتفاهم معها بشأن طلبات الغداء، فقد كانت أسماء الأطعمة غريبة علي. انصرفت الفتاة تتثنى وتمشي بدلال، وأنا أنظر لها وأتمتم بغيظٍ أثار ضحك كامل. كدت أفتعلُ معه خناقة لكنه طبع قبلة على شفتي أسكتني بها.

جاءَ نادل آخر، رجل في منتصف العمر، يرتدي بزّة رسمية وربطة عنق، ومعه شاب يجرّ أمامه عربة عليها أطباق صغيرة تحيط بطبقٍ كبير مغطّى في المنتصف. وضع الشاب الأطباق الصغيرة- التي كانت تحوي سلطات متنوعة- أمامنا، ثمّ قام الآخر بكشف الطبق الأخير الذي بدا فيه رغيفُ خبز ضخم. تناول الرجل شوكة وسكّينًا وقطع الخبز سطحيًّا بمهارة ثمّ أزاحه للجانبين، فبدت أسفلَه سمكةُ قاروص كاملة. أخذ يفصص السمكة بشوكة وسكين مخلفتين ويقطع أجزاءًا من لحم السمكة يضعها أمامنا، وأنا مبهورة بدقته، ولم يغادر حتى كان الطبق الكبير يحتوي على الهيكل العظمي للسمكة كاملًا، فيما لحمها في الأطباق أمامنا، وكأنّه يقوم بهذا الأمر منذُ نعومة أظفاره.

في غرفتنا مساء ذلك اليوم، سألته عن سبب ابتسامته حين كنت أراقبُ ذلك الرجل في المطعم، قلت له بغيظ "بتحسّسني إني عيلة جايبها تفرّجها ع المولد!".. فضحك للتشبيه وقال "عشان بحبّك، بحبّ كلّ تفاصيلك وانفعالاتك، كلّ عضلة بتتحرك في وشك بتحرّك حاجة في قلبي".. فقلت له "تعرف أنا كمان بحبّ أبصّ قوي لانفعالاتك ساعة لمّا بـ...".. ثمّ صمتّ وابتسمت بخجل، فقال بجرأة وهو ينظرُ في عيني "طيب هنفضل قاعدين كده، إيه رأيك نبصّ على انفعالات بعض".. ضربتُه بيدي في دلالٍ فأمسكها وانبرى يقدّم فروض طاعته مقبّلًا إياها ظاهرًا وباطنًا كأني مليكته، ثمّ صعد درجاته وارتقى في منزلته حتّى صار هو مليكي وأنا ملكُ يمينه، يقلّبني كيفما شاء، يعلو بي

ويهبط، يسمعني وينصتُ لي، يأخذ منّي ويعطيني، ثمّ عدل وجهي لأبصره في المرآة، أراقب انفعالاته وانفعالاتي، أشياء لم أكنْ أعلم بوجودها قبلَ زواجي من كامل؛ الرجل الذي مزج داخلي إحساسَ القدسية وإحساس العُرْي في نفس اللحظة.

ذهبنا إلى بورتو بطائرة صغيرة للغاية تشبه الباص إلى حدّ كبير. نزلنا هناك في فندق يطلّ على نهر دورو بالقرب من مصبّه في المحيط. كانت بورتو أكثرَ مدينة أحببتها، مدينة هادئة جميلة أناسها طيبون، جمالها خالٍ من الصخب والزحام، يمكنك أن تعيش فيها ولا تشعر بالغربة، كورنيش النهر فيها محبّب، والتلفريك يظهر لك أجملَ ما في المدينة. أسرتني الشوارعُ المبلطة بالأحجار القديمة التي تشبه قاهرة المعز، مصبّ النهر العريض الذي يمتزج مع مياه المحيط بدون صخب، وشواطئها التي كانت مغلقة لسوء الحظّ بسبب الأمواج المرتفعة.

أخذني كامل لمكان مختلف في المدينة، برج تجاري يختلف عن الطابع المميز للجزء الذي كنا نقيم فيه، جلسنا فيه وعرّفني إلى مستشار عقار قال لي إنّه يساعده في شراء عقار هنا يتيح لنا الإقامة في بورتو تمهيدًا للحصول على جنسية بعد سنوات عديدة. شرح لنا الرجل الكثير عن النظام في البرتغال، وعن مميزات العقارات المختلفة في بورتو، وفي النهاية شكرنا وانصرفنا. قال لي كامل إنّ ما يعطل خطته هو نقصُ التمويل، وإنه ينتظر فرصة لتقتنع درية وتضع الأموالَ التي كتبها باسم الولدين في عقارٍ باسمه هنا. قال إنّه كان مترددًا إزاء شراء عقار في هذه المدينة لكنّه حين رأى كم أحببتها فقد قرّر أن يشتري فيها أيًّا كانت الطريقة، وأن تكون بورتو هي مزارنا الأول في المستقبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٣

أروى- القاهرة- يناير ٢٠١٩

مرّت أيامي مع كامل صافية لا يعكرها إلّا الأسبوع الذي يقضيه في دبي من فترة لأخرى، في ذلك الأسبوع تنتابني الهواجس عمّا يفعله هناك، يتسرب الشكّ إلى قلبي كأنه حية ذات جرس تصدر ضجيجًا قبل أن تلدغ، أشكّ في عودته لدرية- رغم أنّها مستبعدة-، وأشكّ أكثر أنه قد يضعف حين يرى امرأة جميلة تخضع له بالقول أو بالفعل.

في سفره أتصرّف كمراهقة، أهاتفه كلّ ساعة تقريبًا، أطلب منه أن يشاركني صوره في فسحه ومعَ أولاده. أحيانًا كان لا يجيب هاتفي، وأحيانًا كان يخبرني أنه سينام مبكرًا ويغلق الهاتف، وكانت تلك المرات كفيلة بإشعال غيرتي وشكوكي لدرجة أنّني منعته من إغلاق هاتفه تحت أي ظرف. طلبت منه أن يأتي بهم هنا مرّة ويذهب إليهم مرّة، لكنّه قال إن الأولاد مرتبطون بحياتهم هناك، ولم يعودوا قادرين على التأقلم مع الحياة في مصر.

مرضتْ أمي، أصيبت بحصواتٍ في مرارتها، وقرّر الأطباء إجراء عملية جراحية لها، كان ذلك منذُ شهرين تقريبًا، وكان كامل في دبي، طلبته وأخبرته فجاء في اليوم التالي، أظهر قدرًا كبيرًا من الرجولة، وكان يريد أن يدفع تكاليف المستشفى لوْلا أن أبي أقسم ألّا يفعل. مكثت أمّي سبعة أيام في المستشفى؛ وعدد من الأنابيب يخرج من بطنها، كنت معها في تلك الفترة وكان كامل يمضي معنا أغلب اليوم، ثمّ نتناول العشاء معًا في مطعم قريب، ثمّ يعود للمبيت في شقتنا وأبيت أنا جوار أمّي.

أثّرت فيّ تلك الشهامة التي أظهرها، وجعلتني أتوقف عن الشك به، وأفكر جديًّا في إزالة أداة منع الحمل. قلت لنفسي هذا الرجل هو مَن أتمنى أن يكون أبًا لأولادي؛ رجل أهداني الحب والأمان، ولم يبخل عليّ بأي شيء. لم يكن الحدث الأخير هو السبب الوحيد لقراري بالطبع لكنه أزالَ آخر طبقة من الشكوك، التي تنتابني حول علاقتنا وحول شخصه، بعدما نجح في إزالة طبقات كثيرة بحبّه وعطائه في الفترة السابقة.

كنت أنوي أن أبلغه بذلك القرار بعد عودته من رحلة دبي التالية، لكنّه هذه المرة أقلقني عليه كثيرًا، كانت تمرّ ساعات بأكملها لا يجيب اتصالاتي، في مرّة راسلت أحد أبنائه لأطمئن عليه فأخبرني أنّه لم يره منذ شهر. حين عاد لم أحدّثه في شيء، فقط تركته نائمًا وقلّبت في جواز سفره لأكشف عن آخرِ أختام الخروج لأتأكّد من أنه كان في دبي فعلًا، وجدت أختام الدخول والخروج من دبي، لكنْ كانت المفاجأة أنّه ذهب إلى أذربيجان دون أن يخبرني.

حين واجهته أقسمَ أنه كان ينوي إخباري حينما يستيقظ، وقال إنّه ذهب إلى هناك مع صديقين له، كان يريد أنْ يشاهد باكو؛ فهي مدينة جميلة كما قال وفيها أماكن صيد مميزة بالقرب من شواطئها والصيد طبعًا هوايته الأثيرة كما أخبرني دومًا. برّر عدم إخباري بالأمر بأنه وعدني أنْ أكون معه في أيّ سفرة كتلك، وأنّه أول مرة منذ زواجنا يسافر من دوني، وأنه كان يريد أن يخبرني عندما يعود بدلًا من إخباري على الهاتف.

المنطق كان غائبًا عن كلامه، لكنّني حاولت ابتلاع المسألة كلها، وحذّرته أنه إذا كذب علي ثانية فسوف يفقد كلّ مصداقية له عندي. في اليوم التالي، كنت في عملي أراجع بعض المسائل العالقة حين وجدت عدّة صور على الواتس آب تتوارد وتتوالى، إشعار خلف الآخر جعلني أترك عملي وأفتحُ الهاتف. صور لجزر ومناظر طبيعية وغابات فيها أناس يتأرجحون على حبال مشدودة بين الأشجار، وأعماق ممتلئة بالشعاب المرجانية والأسماك الملونة وحيتان ودلافين. أكواخ وسط الماء يبدو خلفها شاطئ به نخيل وأشجار وخلفه من بعيد جبل بل جبال كلها مكسوّة بالخضرة، أشياء تحبس الأنفاس، تجعلك تتمنّى لو تقفز داخل الصور وتغيب عن العالم في جنتها.

أرسل رسالة طويلة بعدها قائلًا "اعتذار بسيط منّي، احجزي لنا رحلة هناك وصممیها على ذوقك".. أرسلت له قلت لا أعرف هذا المكان، فأرسل لي قائلًا "في تاهيتي وبورابورا جزيرتين في جنوب المحيط الهادي".. ثمّ أتبع رسالته برابط يشرح كلّ شيء عن الجزيرتين بالعربية، وطلب منّي أن أحجز كلّ شيء، الطيران، الفنادق الرحلات البرية والبحرية والميزانية مفتوحة في البطاقة الائتمانية الأمريكية التي أهداها لي منذ فترة.

حين عدْنا للبيت قلت له لا داعي لكلّ تلك المصروفات، الخطأ حدث، وأنا سامحته، لكنّه صار سابقة لن تمحوها سفرة مهْما كانت تكاليفها. أقسم أنّه كان ينوي أن يفاجئني به ولكن اعتذاره الحقيقي في أن يتركني أحجزها بالشكل الذي أريد. كان قد علّمني كيف أستخدم تطبيقات الرّحلات، وكيف أميز بين الرحلات الجيدة والرخيصة، وطلب منّي أن أستخدمها بالفعل.

حجزت في الأيام التالية كلّ شيء، الطيران إلى تاهيتي، ومنه إلى بورابورا وتفاصيل الإقامة والفسح هناك، كان الإجمالي مبلغًا كبيرًا، لكنني دفعته لتكون تكلفة كذبته مرتفعة، وهي أوّل مرة أفكّر فيه بهذه الطريقة.

بعدَ شهر من هذه الحادثة، كان موعدي مع صديقتي نهاد طبيبتي النسائية، كنت أشعر ببعض الأعراض وذهبت إليها، طلبتُ منها أن أكون آخرَ حالة في العيادة وأن نتناول العشاء سويًّا بعدها فوافقت؛ كنت أريد أن أتحدّث معها قليلًا عن حياتي، وقرّرت أن أحكي لها عن شكوكي بخصوص كامل، ومخاوفي

من المستقبل. رقدت على فراش الكشف، ما إن فحصتني حتى طلبت من مساعدتها أن تخرج. أخذت نفسًا عميقًا وقد تغيّر وجهها، وشعرت أنها على وشك إخباري أنّني أعاني من ورم مثلًا.

“أنتِ واثقة في كامل؟ هل ممكن يكون عرف واحدة كده واللّا كده قبل ما تتجوزوا مثلًا؟”.. قالت وهي تتلعثم، فسألتها عن السبب، فأخبرتني بوجود التهاباتٍ في عنق الرحم ترجّح أنها ناتجة عن عدْوى من النوع الذي ينتقل عادةً عن طريق الجنس، ولا بدّ أن أكون قد التقطت العدوى من كامل. تصاعد الدمُ في رأسي كنافورةٍ تدوّي وتقرقع مثل نافورة دبي التي أجلسني أمامها يومًا ما. تذكّرت كلام درية، وعدتُ لأسألها “هوّ ممكن تكون اتنقلتله قبل ما نتجوّز وغابت قوي كده؟”.. قالت إنّه احتمال ضعيف جدًّا لكنه وارد. ظللت دقائق كلّ ما يدور بخاطري هو أنه خانني، لكن انقلب الأمرُ فزعًا حين أدركت أنه قد يكون نقلَ لي مرضًا أخطر.

طمأنتني، لكنّني لم أقتنع، طلبت منها أن نجري كلّ التحاليل المطلوبة لأستبعد كلّ الأمراض التي تنتقل بهذه الطريقة، وأنْ أجريها عند شخص موثوق به. تحت إلحاحي والهلع الذي بدا علي اتّصلت بصديقة لها تمتلك معملًا قريبًا. ذهبنا إلى هناك أخذت صديقتها مسحاتٍ منّي، وعينات من دمي، وقالت لي إنّ النتيجة ستأخذ يومين على الأقلّ لتطمئنني من كلّ ما أخاف منه.

خرجنا من المعمل، وطلبت من نهاد أن نذهب إلى مكان مفتوح، اقترحت أن نذهب إلى مكان هادئ تعرفه هي، كانت حديقة ملحقة بمطعم كلاسيكي الطبع لم أره من قبل. كان مريحًا للأعصاب، لكنني كنت قلقة بشكلٍ يفوق الوصف. حاولت طمأنتي وقالت إنّ تلك العدوى ليس دليلًا على وجود عدوى أخرى أخطر، وأنها منتشرة جدًّا. لم أكن أشعر بالصدق التام في كلامها لكنّني سايرتها، وحكيت لها ما حدث في الفترة منذ قابلت درية.

خبطتْ بأصابعها على الطاولة عدّة مرات، ثمّ قالت لي محاولة التخفيف عنّي إنّ أغلب الرجال هكذا. لم أقتنع، سألتها عن زوجها فابتسمتْ بمرارة، وقالت إنّها أحيانًا تتمنى لو كان مثل كامل ويخونها، لكنها تعود فتقول لنفسها إنّ من حقّها أن يكون رجلها إنسانًا عاديًّا؛ زوجًا طبيعيًّا، ذا عيوب مقبولة، لماذا يجب عليها أن تتحمّل زوجًا مهملًا وجلفًا كزوجها! أو تتحمّل رجلًا خائنًا مثل كامل! قلت لها وأنا أموت من حيرتي “تفتكري بيحبّني بجد؟”.

ابتسمتْ بمرارة وأجابتني “طبعًا”.. وأكدت لي أنّه يحبني، وأنّ رومانسيته المبالغ فيه، وكلّ تلك الهدايا والرحلات إنّما هي تعويض عن تقصيره في حقي، لأنّه بالتأكيد يكرر خيانته لي، وقد يكون كما قالت درية يقابل الساقطات

بشكلٍ معتاد كما بعض الرجال الذين يعتبرون أن معاشرة الساقطات والذهاب لأماكن التعرّي مجرّد لهوٍ لا يعدّ خيانة زوجية في عرفهم.

“المشكلة الموجودة عندك طبيًّا محلولة، وإن شاء الله التحاليل تطلع سلبية، المشكلة إنه كل ما هيغيب عن عينك هتعتبري إنّه مع واحدة تانية”.. قالت وهي في حيرةٍ مثلي لا تدري ما المشورةُ المثلى التي ينبغي أن تعطيها لي. قالت لي إنّ هناك نساء يرتضين الحياة مع رجل خائن مادام يغدق عليهنّ بالمال والحبّ، ويتجاهلنَ أو يتغافلن عن الباقي، وقالت إنّني يمكنني أن أتّخذ احتياطاتي كي لا ألتقط منه عدوى ثانية.

كان كلامها خاليًا من المنطق، وقد يصحّ لو أنني توقفت عن حبّه، أو أنّ زواجنا مضى عليه سنوات وكان بيننا أطفال. من حقّي أن أرزق بطفل، كيف سأرزق به من رجل أخشى أن ينقل لي مرضًا من إحدى الساقطات. لا أتخيل حقًّا أنني أناقش معها احتمالية أنْ أوافق أن أبقى على ذمّة رجل بهذه الخصلة الحقيرة مهما كان حبّه. كامل حبُّه لي مجرد احتياج نفسي عنده لإشباع رغبته في أن يعيش قصّة حب. مادام جرؤ على خيانتي بهذا الشكل فالقصّة ليست أنه يحب أروى، بل أنّه يحبّ امرأة والسلام. وصلتُ ساعتها إلى استنتاج، كامل لديه احتياجات معقدة أكثرَ من الرّجال الآخرين، يريد أن يشعر بالحبّ الجارف، ويعيش مغامرة عاطفية ساخنة كما لو كان في العشرين، ولديه فائضٌ من العواطف يكفي ألفَ فيلم رومانسي ساذج، يريد أن يشعر دومًا بالانبهار في عين المرأة التي معه (وهو احتياج لم يعدْ يتوفّر مع درية، ولن يجده معي بعد عدّة أعوام من الزواج بعدَ أن نعتاد على بعضنا)، ويريد أن يستمتعَ بنساء مختلفات من كلّ الأشكال والأنواع.. كلّا لن أربط نفسي به، حتى لو بقيتُ وحدي، أو تزوجت رجلًا آخر أقلّ منه جاذبية أو عاطفة أو مالًا، لن أقبل أن أكون ديكورًا يكمل حياةَ كامل حتى لو كنت ديكورًا مكلفًا. لن أقبل أن يشتري حبّي بماله لأثّني عندها لن أظلّ على ذات الدرجة من الاحترام لنفسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٤

زياد- جنوب المحيط الهادي- سبتمبر ٢٠١٨

“اتّجه نحو الجنوب، عموديًّا، لا تحدْ يمينًا أو يسارًا أيًّا كان ما ستقابله، خذْ وجبة كبيرة، املأ معدتك، لكنْ ليس بالقدر الذي يبطئ حركتك، فسوف تمرّ بين أوركات وقروش نمرية، وكلاهما يحاول أكلَ الدلافين، ولا بدّ أن تظلّ محتفظًا بقدرتك على المناورة لتهرب منهم. بعد أن تجد نفسَك في البقعة القاحلة من المحيط، لا تضِعْ وقتك في البحث عن طعام لأنك لن تجدَ إلّا ما يصادفُك بدون بحث، وهو نادر على أيّة حال، سوف تسبحُ يومين بدون طعام وسطَ أمواج عاتية قبلَ أن ترى الجزيرة المسحورة، وعندها ستجد الغذاء الوفير”.

كانت تلك هي نصائحَ الدولفين العجوز قبل أن أذهبَ في رحلتي بيوم واحد. كنتُ أريد حجة لأغيبَ بها عن القطيع، لم أكنْ أريد أن أثير قلق أمّي، أو قلق أصدقائي، لكنّ العجوز طلب منّي أنْ أذهب دون أن أصطنع حجّة، وحين أعود سأخبرهم أنّني كنت تائهًا، أو أبحث عن صيد في مكانٍ جديد. قال لي محذّرًا حين لاحظ تردّدي “لا تخبرهم قبلها حتّى لا يحاول أحد الذهاب معك”.

انتابتني الشكوكُ ليلتها، وأمضيت وقتًا طويلًا أراجع قراري بالذهاب، وأسأل نفسي “ماذا لو كان العجوز يهذي؟”.. عند النوم بنصف مخّي الأيمن كان النصف الأيسر يشجعني أكثر، نصف مخّي الأيسر جريء، أفكارُه مجنونة، لا يشغلِ بالَه بالعواطف ولا بالخوف من العواقب، بينما نصفُ مخّي الأيمن أكثر تحفظًا، وأقرب إلى مخ أمّي. التبادل بين عمل النصفين في المساء الذي يسبقُ الرحلة كاد يسببِ لي جنونًا، وكنت أنتظر طلوعَ الصباح بفارغ الصبر حيث سيكون عقلي كاملًا يوازن بين أفكار النّصفين ويرجّح أحدهما.

كنت أتمنّى لو كان أبي حيًّا في تلك اللحظة، هل كان العجوز سيسمح لي أن أخبره؟ هل كان أبي أصلًا من السلالة النادرة الذين لديهم القدرة على التحوّل بشرًا؟ بالتأكيد طبعًا، وإلّا كيف ورثت تلك الصفة. أمّي قالت إنّه خرج للصيد ذاتَ يوم ولم يعد، ماذا لو كان قد قرر البقاء على الجزيرة المسحورة بعد أن صار إنسانًا، أو رافق قطيعًا آخر من الدلافين ذوي الطبيعة المزدوجة، من الجميل أن تعيشَ مع قطيع كامل من الدلافين بنفس القدرات، نسبح معًا كدلافين ونسعى على الجزيرة كبشر. كلّ تلك افتراضات لنْ أعرف صحّتها إلّا حين أصل إلى الجزيرة وأجرّب الإحساس كبشر، وأعلم كلّ شيء عنهم.

انطلقتُ في طريقي مع مطلع الشمس، جعلتها على يساري وانطلقت بكلّ قوة نحو الجنوب، كانت الأمواج متوسطةً تساعدني، تحملني على عاتقها،

وتقذفني للأمام، لكنّني كنت دومًا بحاجة لتعديل اتجاهي ليكون الجنوبي أمامي مباشرة.

مرّت بالقرب مني سفينةٌ تحمل بشرًا، رآني بعضهم، وأخذوا يصدرون أصواتًا مزعجة، قلت في نفسي "سأرجع عن رأيي أيّها الملاعين، أيّ عقل ذلك الذي صوّر لي أن التحول لكائن مثلكم هو شيء جيد ينبغي السعي إليه والمخاطرة بحياتي من أجله!".. الموجة ترفعني فأقذف جسمي معها، ثمّ أغطس وأغيبُ حيث تخبو، وأراهم بعيني يشيرون إليّ وكأنهم يتعجبون من وجود دولفين وحيد، فهو منظرٌ غير مألوف في عالم الدلافين.

هدأتُ من سرعتي قليلًا كي لا أشعر بالتعب، أكملتُ سباحتي بهدوء أسفلَ الماء لأتجنب الصراع معَ الأمواج للحفاظ على مساري. كنتُ قد صرت في مساحة مفتوحة حيث لا تبدو في مجال موجاتي الصوتية أيّة جزر أو أحياد بحرية. صادفني سربٌ صغير من أسماك أسطوانية التهمتُ بعضًا منها رغم أنّي لا أشعر بالجوع، ولكن تحسبًا لرحلتي الطويلة المقبلة. استمريت في طريقي بعدها بضعَ دقائق أسبح بسرعة متوسطة وأنا أمدحُ موقعي في السلسلة الغذائية الذي سمحَ لي بالتهام تلك الأسماك، لكن عندئذٍ تبدّل موقعي في هذه السلسلة، واختفت فرائسي وجاءت مفترساتي.

مجموعة من الأوركات كانت تتهادى غيرَ بعيد منّي بأجسادها القوية الموفورة وألوانها السوداء الملطّخة بالأبيض. سبحتُ بهدوء أكثر مبتعدًا عنها محاولًا ألّا أصدر أيّ ضجيج، لكن مرة واحدة وجدتُ اثنين تركا المجموعة وانطلقا نحوي. بدأت المطاردة، كنت آمل ألّا أضطرّ لها، وأن أبدو- وأنا وحيد هكذا- مثلَ وجبة ضئيلة لا تستحقّ عناء المطاردة، لكنهم خيّبوا ظني كأنهم كانوا جائعين.

انطلقتُ مسرعًا وابتعدت عنهما في البداية، لكنّهما استمرّا في إثري. ضربات ذيلي تصير أعنف وأكثرَ تشنّجًا، سرعتي تتباطأ، الحوتان القاتلان يقتربان منّي، أكاد أشمّ رائحة النهم تهب من أفواههم المفتوحة، بل أكاد أشمّ رائحة دمي الذي أوشك على السيلان. أريد أن أصرخ بهما قائلًا إنّني دولفين مميز، لست مجرّدَ وجبة عادية، سيخسر المحيط كثيرًا بموتي أكثر ممّا كان سيخسر بموتِ عشرة من الدلافين العادية، أو صغير حوت أحدب، أو مجموعة من الفقمات.

فكّ ينفتح عن آخره وينقبض بعنف ممنّيًا نفسه بالقبض على ذيلي، لكنّني أنحرف فجأة، ثمّ أتقدم وأقفز في الهواء وألفّ بجسدي عدة لفّات مداعبًا الرذاذ ونسمات المحيط التي بدأت تميل للدفء. كانت تلك اللفاتُ لتصفية ذهني وإكسابي شعورًا بتدفق الدماء داخل جسدي وإكسابي شجاعة إضافية، لم تكنْ تهدف لإكسابي سرعة جسدٍ بل سرعة عقل. قفز الأوركا للأعلى

وهبط خلفي مُصدرًا موجة حملتني للأمام أمتارًا إضافية استغللتها وأنا أغطسُ وهما في إثري.

استمرّت المطاردة أكثر ممّا يجب، في المطاردة الطبيعية يكون داخل الفريسة إحساس دفين أن تغذية المفترس والحفاظَ عليه جزءٌ من واجبه، لكن ليس أيّ مفترس، فقط ذلك الجدير بأن يهبه جسدَه وروحه، ولذلك يرهقه بطول المطاردة حتى يختبر أصالة معدنِه وقوة بأسه. في حالتي تلك كان ذلك الإحساسُ منعدمًا تمامًا، فأنا لست فريسة كما قلت، وعلى العكس هما اللذان يجب عليهما التضحية وإمضاء بعض الوقت جوعَى من أجلي. وأنا أهرب منهما شعرت أن إحساسي قدْ وصل إليهما، وأدركا أخيرًا أنني لست مجرّد كتلة من لحم تريح شعورهما بالجوع.

حافظتُ على طريقي، اقترب الليل، خلا المحيط من الكائنات، فكّرت أن أغطس للأعماق قليلًا لكنّني تذكرت أنه يجب ألّا أضيع وقتًا، الشمس تغيب عن يميني، وأنا أسفل السطح بقليل وأصعد لألتقط أنفاسي وسط أمواج مرتفعة من حين لآخر. هبط الليل، غطست أكثر وسبحت بهدوء شاعرًا بحاجتي للنوم، شعرت بحركة تقترب، كان سربًا من قروش النمر التي تعتبر أن دولفينًا في حجمي هو وجبة تستحقّ عناء مطاردة طويلة.

بدأت المطاردة الثانية في مشواري نحو جزيرتي المسحورة. استنفرت نصفي مخي لأستطيع التغلبَ على شعور النعاس الذي بدأ يكتنف النصفَ الأيسر وهو الذي أحتاج إليه أكثر في تلك المرحلة. لا يعني هذا أنّ الأيمن أقلّ أهمية؛ فمشاعر الخوف وطلب الأمان هامة للتغلب على محنةٍ كتلك. انطلقت بأسرعَ ما أستطيع وهُم خلفي يتماوجون بحركاتهم المستفزة كأنهم في رقصة شيطانية تهدف لسلب روحي.

طالَ وقت المطاردة والكائناتُ المقيتة خلفي، لا أكنّ لهم أي احترام، أفضّل أن تأكلني أوركا على أن يأكلني قرشٌ نمري حقير يقتاتُ من قمامة المحيط ومخلفات البشر حين لا يجد أسماكًا يأكلها، لكنّهم كانوا أكثرَ إصرارًا وتمادّوا في مطاردتي لمدى أكبر من الأوركات، يبدو أن إدراكَهم البطيء وعقولَهم الغبية لن تدرك أبدًا أنني دولفين مميز، وهو الإحساس الذي أكاد أجزم أنّه وصل لعقول الأوركا، فهُم أبناء عمومتنا؛ دلافين لكنْ أكبر وأشرس.

نزلت لمستوى أعمق محاولًا الهرب، يائسًا أخذت أنزلُ لأسفل وأصعد ثمّ أقفز في الهواء معتليًا الأمواج، مبتعدًا عنهم قليلًا حتى أجدهم يقتربون منّي ثانية محاولين الإطباق عليّ. نزلت لمستوى أعمق، ثمّ انطلقت كالسّهم متّجهًا نحو الهواء، ودرتُ بجسدي دورة قوية لأعيد تنشيط ذهني، وحين عدتُ للماء وجدتهم قد انصرفوا عنّي فجأة. التفتّ للخلف وأطلقت موجاتي الصوتية

لأكشفَ عن مكانهم، فوجدتهم قد انشغلوا بوجبةٍ من القروش الصغيرة، وأراحوني من مطاردتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٥

أروى- القاهرة- يناير ٢٠١٩

تحجّجت بأن أمّي تحتاجني أنْ أبيت جوارها الليلة، لم أستطع أن أنظر في عينيه تلك الليلة، مازلت أشعر أنني لم أستوعب تمامًا ما حدث. حبّ تمنيت الحصول عليه طيلة عمري، صورة من وصال المتحابّين تشبه ما تخيله الشعراء ومؤلّفو الأفلام الرومانسية، كان هو المتعة الصافية والبهجة الطفولية التي تحلّق معها غير عابئ بالدنيا التي تتلاطم بالأسفل. كنت حين يأخذني في جولاتنا في المدن الساحرة البعيدة كالطفلة التي يأخذها أبوها للملاهي لأوّل مرة في حياتها، لا تفكّر في شيء وهي معه، ولا تحمل همّ شيء، "أريد أن أركب الدوامة يا أبي.. تعالي يا حبيبتي، أريد بيتزا يا أبي.. ها هي ذي ومعها مياه غازية وبطاطس مقلية، الآيس كريم يبدو لذيذًا ها... قرطاس من الآيس كريم بثلاث نكهات من أجل عيونك".. كنت كطفلة مدللة جاب بها أبوها كلّ الملاهي والحدائق والشواطئ التي حلمت بها، ثمّ أخبرها في النهاية أنها يجب أن تدفع ثمنَ كلّ ذلك بؤسًا وندمًا، فهو لن يعيدها للبيت؛ وإنّما سيلقيها تحت أحدِ الكباري مع أطفال الشوارع الآخرين.

دخلت البيت عند أمّي، حاولت الاستفسار، طلبت منها أن تتركني الليلة، لم تتركني، أبي طلب منها أن تتغافل، وأخبرها أنّني كبرت، لكنّها كعادتها في كلّ ما يخصني تتجاهل حديثه. رغمًا عنّي رفعت صوتي وقلت لها "اتخانقت مع كامل يا ماما ارتحتِ! سيبيني أنام بقى، واللّا أروح فندق وأريحك من وشي!".. بهتت أمي؛ لم تسمعني أخاطبها بتلك الطريقة من قبل، نظرت لأبي وطلبت منه أن يتصل بكامل، فلا بدّ أنه قد جرحني بشدّة، فهتفت ثانية أقسمُ عليهما ألّا يحدثه أحد، وكررت كلامَ أبي مؤكّدة أنني كبرت بما يكفي.

جلست في غرفتي في وضع معقد لأستخدم الدهانَ الموضعي الذي أعطته لي نهاد. تفجّر في داخلي إحساسٌ بالمهانة، تقوّست ألسنة من النار من مكان الدهان تزحف نحو أحشائي.. تصعد نحوَ صدري.. تلتفّ حول جسدي وتكوي كلّ بقعة في جلدي لمسَها كامل أو لثمها، كأنّ المرض كان يسكن أنامله وشفتيه، وانتقل إلى كلّ مكان عامله باهتمامٍ زائد. كان يعامل جسدي وكأنه خادمُ معبدٍ يقوم بمهمة إلهية، يمرّغ وجهه في عتبات مقدّسة، ويقدّم فروض العبودية والخضوع، لكنّه كان خادمًا حقيرًا يقدّس آلهته حين يكون في محرابها، ويبصق عليها حين يخرج. شعرت بألمٍ حقيقي في كلّ بقعة أعطاني فيها نشوة، وجع مقبض كأنّ كلّ بقعة تلفظ المتعة التي شعرت بها معه وتكفر عنها.

تهرّبت منه في اليوم التالي، انتظرت لثالث يوم حتى حصلت على نتائج التحاليل من هدى صديقة نهاد. قالت إنّ كلّ شيء طبيعي ما عدا نوع من الجراثيم الضعيفة يحتاج فقط لقرصين مرّة واحدة، لكنّها أكّدت لي أنّه نقل لي العدوى، وأنّه اكتسبها من وقت قريب. كانت متعاطفة معي بشدّة، نهاد استأذنتني وقصّت عليها الحكاية، وشعرت أنّ هدى اعتبرت نفسها صاحبة المشكلة، وأنها تفكر أنْ تنتقم من كامل لأجلي.

ذهبتُ بعدها إلى البيت، كنت في الشركة أتهرّب منه بحجة أن لدي عملًا كثيرًا متأخرًا من اليوم السابق، الذي تغيبت فيه بحجة مرض أمّي.. حين فتحت الباب استقبلني بذراعين مفتوحين لكنني تفاديته، وألقيت بنتيجة التحليل الذي أعطتها لي هدى، والذي كتبت أسفله (عدوى منقولة جنسيًّا) ونتيجة تقرير طبي كتبته لي نهاد عن العدوى الأخرى.

لم أحتجْ أن أطالبه باعتراف، ظهرت آثارُ الخطيئة على وجهه مباشرة، كأنه كان ينتظرها، سألته "كام واحدة يا كامل؟".. فقال والدموعُ الممقوتة تملأ عينيه "ادّيني فرصة أشرحلك".. فقلت "أنا مش زعلانة غير إنّك مخدتش احتياطاتك".. فغرَ فاه غيرَ مصدّق، فقلت له إنّ المفترض أن الرجال الذين يعشقون النجاسة يأخذون احتياطاتهم، ثمّ أضفت "بسّ بختي الاسود إني وقعت في واحد نجس واهبل".

لم أكنْ أتخيل أن أشتمَ رجلًا وأنا على ذمته، في أقصى لحظات الشقاق بيني وبين زوجي السابق لم أقلْ له كلمات قاسية كتلك، لكنني لم أشعر معه بكلّ هذا القدر من الكراهية. دمعت عيناه كالعادة، تلك المرّة لم أرها فقط دموعًا كاذبة؛ وإنّما دموعًا محتقرة لا تدلّ على الإحساس بالذنب قدرَ ما تدلّ على وضاعة صاحبها. فتح فمَه ليتكلم، اعترف أنّه في باكو أخطأ مرة؛ كان مع أصدقائه وانجرفَ مع التيار، لكنه أخذ احتياطاته فهو لا يأمن على نفسه مع الساقطات. المرة التي اكتسب فيها العدوى كانت هنا في مصر، حين كنت مع أمّي في المستشفى، تعرّف بنادلة، أغرتْه وأغراها وانتهى بها في الفراش، لكنّه- وإحقاقًا للحق- لم يقبل أن يأخذها على فراش الزّوجية. ضحكتُ بمرارة وقلت له "كتّر خيرك والله!".. قال إنّه لم يفكر، وإنّ اللحظة جرفته ولم يكنْ ينوي أن يفعلها، لكن (الفاس وقعت في الراس، وغلطة الشاطر بألف).

أخذَ يقسم كعادته على أنّه نادم على المرتين، وأنّه ذكر المرتين ليكون قد اعترف بكل ذنوبه أمامي، وتطهّر بذلك، فهذا هو الشرط قبل توبته الجديدة التي أعلنها أمامي. "وأنا متجوز درية، عمري ما حسّيت بالندم وأنا مع غيرها، بس معاكِ حسّيت بندم رهيب، وكان نفسي أعوضك حتى من غير ما تعرفي بغلطي".

تأمّلته مليًّا، كان صغيرًا جدًّا في تلك اللحظة، تبدل كلّ حسناته في عيني، هو لم يخنّي فقط وإنما لم يصنّي، ولم يحافظ عليّ، وعرّضني لهذا الموقف، لو كانت طبيبتي امرأة أخرى غير نهاد لقالت في نفسها إنّني ساقطة أعاشر رجالًا آخرين غير زوجي، وربّما وقع حظي الأسود في طبيبٍ رجل يكون من النّوع الساقط مثل كامل، ويظنّ أنني رخيصة ويراودني عن نفسي فأنا امرأة جميلة، ولكنّني سهلة.. عرفت رجالًا كثيرين لدرجة أنني أصبت بمرض من أمراض العاهرات، لو لم تكنْ نهاد في حياتي لكان هناك إنسانٌ واحد على الأقلّ يرى أنني ساقطة.

“طلّقني يا كامل”.. قلت له فأخذ يحاول التبريرَ والاعتذار ويبكي وينتحب ثانية، لكنني لم أعد أؤمن بتلك الأفكار الساذجة التي ترى في دموع الرجل صدقًا لا يقبل الشك، فقد علمني كامل أن دموعَ الرجال تكذب أحيانا، وأنّهم يتلاعبون بنا بدموعهم أيضًا، ويعزّزون الخدعة بمبدئهم الشّهير أنّ دموع الرجل ليست هينة.

“طلّقني ودّي، لأنّي هروح المحكمة بالورق ده، وهطلب طلاق وتعويض كمان”.. عاد لمحاولات إبداء الندم، وقصّ عليّ حكايات طويلة، وأمثلة عن نساء غفرنَ لمَن أحبوهن، وأن الرجلَ يحب، لكنه يخطئ أحيانًا مهما كانت درجة عشقه. “قوليلي أعمل إيه يعوّضك، أي حاجة نفسِك فيها”.. قالها وعدّد أشياء كثيرة سوف تكلّفه مبالغ طائلة، لكنني قلت في حسم “أنا مش بالرّخص ده!”.. فقال “أنا جوزك، وده حقّك عليّا، مش رخص”.

حاولَ أن يدلل على صدقه بأنّه رجل غني، وفي عزّ شبابه، ويمكنه أن ينتقي أي امرأة يريدها دون أن يبذل لها نصفَ ما بذله لي، وأنّ السبب الوحيد لكلّ هذا أنه يحبّني ويريدني لآخر العمر. في نهاية نقاش طويل، قلت له “لو سمحت، شوفلك فندق تبات فيه الليلة، وبكره نكمل كلامنا، تكون فكّرت هتطلقني ودّي واللّا أكلم المحامي بتاعي، ده آخر كلام عندي”.. ثمّ تركته واقفًا يتخبّط، ودخلت غرفتي، وأغلقت الباب خلفي بعنف.

بعدَ أن انصرف حدّثت نهاد، قصصت عليها كلّ ما حدث، كانت معجبة بقوتي أمامه، وبينما نتكلّم جاءتني نغمة رسالة استأذنتُ منها وفتحتها، كانت من الوكيل السياحي الذي رتّب رحلة تاهيتي، وقال لي إنّه حجز كلّ شيء بتذاكر غير قابلة للاسترداد كما طلبت. ضحكت حين قرأت الرسالة، سألتني نهاد، فقلت لها “هيكعّ له حوالي خمستلاف دولار ع الفاضي”.. فسألتني فحكيت لها عن الرحلة التي بقي عليها شهران تقريبًا، فقالت “طيب ما تروحيها، جرّبي تستمتعي برحلة لوحدك، داهية تاخد كامل والرجالة كلهم”.. ضحكت بعلوّ صوتي رغم ما أمر به، عرضت عليها أنْ تأتي معي لكنّها تحجّجت بالعيادة والأولاد، واقترحت عليّ أن أطلب من الشركة تحسينَ الخدمة مقابل أن

تكون الرحلة لفرد واحد. أعجبتني الفكرة وشعرت أنّ فيها نوعًا من الانتقام منه أيضًا، فهو كان يمنّي نفسه بعشرة أيام معي في أجمل بقعة في الكوكب كما قال، سأذهب هناك، وأغتسل بماء المحيط من العفن الذي علقَ بي منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٦

زياد- جزيرة موتو موايا- سبتمبر ٢٠١٨

طلعَ الصباح عليّ بعد نوم قصير، مازلت في المياه القاحلة أتّجه جنوبًا، أفكر أنّ المسار لا يزال طويلًا أمامي، يوم وليلة، في فضاءٍ شاسع من الماء الخالي من أيّ كائن، اللهم إلّا سكان الأعماق السحيقة. على الأقلّ أنا هنا في أمانٍ من الأوركات والقروش النمرية، ليس ثمّة خطر الآن غير أنْ يكون ما أسعى إليه مجرّد وهم، جزيرة غير موجودة، أو لا ترغب في أن أجدها.

كان الجوّ صحوًا، والماء هادئًا، والتيارات هادئة، أمضي في رحلتي أبدّل بين السباحة أسفل الماء وبين القفز المتتالي فوقه. قبلَ انتصاف اليوم بدأت سرعة الهواء تزداد، والأمواج تزداد شدّة وارتفاعًا، وبدأتُ أشعر أن السباحة في الأعلى صارت أشدّ إجهادًا. غطست أسفل الماء وحينما صعدت لآخذَ نفسًا وجدت الريح تقذفني، تلعب بي كقطعةِ خشبٍ صغيرة يتقاذفها دولفينان يلهوان. غطست بعدَ نفسٍ قصير لا يكفيني وقتًا طويلًا، كان تيار الماء قويًّا، والأمواج تدفعُ نفسها بقوّةٍ نحوَ سطح الماء الرّخْو. لم ألبثْ كثيرًا، وشعرت أنني على وشك الاختناق، طفوتُ ثانية.. وكانت الريح عاصفة تلك المرّة، انقلبت إلى دوامة، تدور بي، غابت الشمس وأظلمَ الجوّ، والدوامة تدور بي فوق الماء، أجاهدها لأغطسَ فأجد الماء قد صار دوامة هو الآخر، أشعرُ بالهواء يهرب من صدري، وبنصف مخّي الأيمن يغيب في النعاس، أحاول أن أفيقه لكنّ النصف الأيسر أيضًا صار قليلَ الانتباه، الدوامة تدور، الريح تتلاعب بي، الماء يبلعني ويلفظني، وأنا لا حولَ لي ولا قوة، حتى سكنت تمامًا وسكن كلّ شيء.

انتبهت فجأة، استيقظ مخّي كاملًا مرّة واحدة، الماء هادئ، والأمواج ناعمة رقيقة، السماء صافية والشمس مالتْ عن منتصف السماء بقليل، كأني غبتُ عن الدنيا دقائق قليلة. شممت رائحة البر، التففتُ بجسمي، وجدت أمامي جرفًا صخريًّا هائل الارتفاع يميل على الماء بزاوية قائمة، سفحه أملسُ، تكسو الطحالب أسفله وتكسو الأعشاب جزءًا في أعلاه.

هل تلك هي الجزيرة، أيعقل أنّ العجوز لا يعرف الوقت الذي تستغرقه الرحلة بالضبط، أم أنني غبتُ عن الوعي أربعة وعشرين ساعة وبضع دقائق. لا أعتقد.. الأغلب أنه كان يقصد نَوميْن وليس ليلتين محدّدتين، والنوم الذي غرقت فيه للتّو كان محسوبا عليّ؛ أي أنّني نمت ليلة حقيقية أمس، ونمت دقائق اليوم؛ وهكذا مرّ عليّ ليلتان.

كلّ هذا الهراء لم يكن هامًّا وقتها، المهمّ أن أجدَ مدخل تلك الجزيرة، هذا الجرف الصخري يبدو بلا نهاية، أيّ اتجاه أسلك، هل أدورُ حوله من الشرق أم من الغرب؟ أخذت قراري واتجهت نحو الشرق، كانت السباحة هنا ممتعة، لكنني كنت جائعًا، لا أسماك تبدو أمامي في الأفق، حاولت أن أجسّ العمق بموجاتي الصوتية، لم أجد شيئًا، مرّة تلو الأخرى وأنا أسبح والجوع ينال منّي. طالت المسافة والجرف صامدٌ لا ينتهي.

وجدتُ شاطئًا في النهاية، وأسماكًا كثيرة تسبح بالقرب منه، لكنّني لم أستطع الإمساك بواحدة منها. ها هي الجزيرة، هل أغامرُ الآن وأرمي جسدي على الشاطئ كما أخبرني العجوز؟ ينبغي أنْ أفعلها وأخاطر بحياتي لو كانت تلك مجرد جزيرة عادية، سأموت على الشاطئ كدولفين قليل العقل والمهارة حاول أنْ يصطاد في المياه الضّحلة فانجرف على الشاطئ، وعجز عن العودة للمحيط ثانية.

“لا يمكن أن تنال العظمة والتفرّد إلّا حين تخاطر”.. كان الصوت يهتف من أعماقي، ويتكرر بعدَه صوت الدولفين العجوز وهو يردّد قولَ واحد من البشر يقول “ومَن يتهيّب صعود الجبال يعشْ أبدَ الدهر بين الحفر”. الآن تنتابني الشكوكُ في تلك العظمة التي ستأتيني حين أكون بشرًا، يقول العجوز إنّني سأجمع داخلي أسمى كائنين؛ أسمى كائن في البر، وأسمى كائن في البحر. هل يستحقّ الأمر المخاطرة..؟ ماذا يضيرني لو بقيتُ دولفينًا عاديًّا أعيش لمتعتي فقط؟ مشكلتي أنني حتى وقتها- وأنا على وشك المخاطرة بحياتي- لم أعلم ما الفائدة التي ستعود على العالم من قدرتي على التحوّل لبشري سوى أنّ العجوز قال ذلك!

الصوتُ يتصاعد في داخلي، ويدفعني دفعًا نحو الشاطئ، المدّ يدفعني وأنا مستسلم، حائر لا أقاومُ الصوت، ولا أقاوم المد، لكنّني في نفس الوقت لا أسعى بقوّة نحو الخطر. دفعني الموج نحوَ الرّمل، وجذبني ثانية، لكن تلك الدفعة كانت كافيةً لألمس الجزيرة ويغمرني إحساسٌ عارم بالحاجة للدخول إليها كأنّ رملها فيه مغناطيس يجذبني.

في موجة المدّ التالية، دفعت جسدي بقوّة حتى التصقت بأرض الجزيرة، وتمكنت من مقاومة الماء وهو ينحسر. عندما صارَ جسدي بالكامل على الأرض وانحسرت عنه آخر موجة، وجدتني أنتفضُ بقوة، وشعرتُ بجسدي يضيق بي، وبالأرض تتسع عليّ، ورأيت بدل الزعانف أذرعًا، وشعرت بقدمين ينبتان بدلَ الذيل. كنت أتوقع أنْ أشعر بنوع من الألم أثناء التحول لكن كلّ شيء كان يتغير أمامي دونَ شعور بوجع من أيّ نوع. المذهل أنّني كنت أستطيع أن أرى جسدي يتغير ويتشكّل أمامَ عيني، ففي العادة لا تبصرُ عيناي من جسدي إلّا النزر اليسير لكن التحوّلَ مكّنني من أن أديرَ رأسي بطريقة

جديدة ممتعة ومفزعة في آنٍ واحد. مضت لحظة وجاءتْ موجة أخرى، وشعرت بالذيل يعود، فكان نصفي الأسفل أقرب لدولفين، ونصفي الأعلى بشريًّا. عندما انحسرَ الماء ثانية دفعت جسدي لداخل الجزيرة زحفًا حتى ابتعدت عن الماء، ثمّ اعتدلت جالسًا مستندًا على ذراعي.

تحسّست جسدي، تحسّست وجهي، أنفي، فمي، قدمي، إحساسٌ غريب جدًّا لم يخطر ببال العجوز أنْ يخبرني به؛ أنْ ألمس نفسي، أمسك بوجهي بين يدي، نحن الدلافين نشعر دومًا بالحاجة للتلامس، ولذلك نسبح متلاصقين، وتحتكّ زعانفنا ببعض، غير أنّ البشر محظوظون بقدرتهم على أن يمسّوا أنفسهم، أمسكت وجهي واحتضنته بيدي، يا له من إحساسٍ رائع أن أحتضن رأسي، وأمسّد عقلي بتلك الطريقة.

هناك صوتٌ يهمس في داخلي، يطمئنني ويهدّئ من خفقات قلبي. أخبرني العجوز بذلك أيضًا، قال لي إنّها روح الجزيرة تهمس لي بما أريده، تقودني في لحظاتي الأولى كبشري، تقلل وقع الصدمةِ على روحي المسحورة المأخوذة بما يجري، وعلى خلايا جسدي وعضلاتي المرتبكة وأحاسيسي المختلطة. كان الصوتُ يشبه صوتَ الأمّ حين تقود رضيعها في لحظاته الأولى في هذه الدنيا؛ ذلك الصوت الذي يجعله يستسيغُ استنشاق الهواء للتنفس، والتقام الثدي، وبلعَ لبنِه من أجل الارتواء.

كنتُ لا أزال جائعًا، وقفتُ على قدمي، وبدأت أمشي نحو الأشجار، يا إلهي، الأرض تحتي لها شعورٌ غريب، الرمال تداعب كفّ قدمي كما يداعب المرجان الرّخو جسد دولفين جريح. وصلتُ لأول شجرة، تجاوزتها فالصوتُ داخلي يقول إنّها لا تصلح للأكل، قادتني قدماي نحو شجرة تتدلّى ثمارها، أمسكت واحدة، قضمتها، كان طعمُها شهيًّا، يستثير في عواطف لم تثرْ من قبل، ويداعب رأسي بطريقة ممتعة، كان أوّل طعام غير الأسماك، وأوّل شعور تثيره داخلي حلمات التذوق في لساني البشري.

كما أخبرني العجوز، اتّجهت نحو الشرق، كانت قدرتي على تحديد الاتجاه قد انعدمت فاستعنت بالشمس لأحدّد اتجاهي، الرؤية صارت قاصرة على ما يأتي أمام عيني، والسمع صار قاصرًا على ما هو قريب منّي. أن تكون بشريًّا يعني أيضًا أنّ حواسك ستصير أضعف من المعتاد لكن متعتك بتلك الحواس تتخذ أبعادًا جديدة.

الأرضُ تختلف تحت قدمي، كانت الرملُ يداعبها، والآن الأعشاب الخضراء تدغدغها، وأحيانًا بعض الحصا الذي يؤلم في ضغطته، لكنّه ألم متحملٌ ومثير في حدّ ذاته. كنت أسير نحو مكمن القدماء في سفح الجبل. هكذا قال لي العجوز، سأجد ثلاثة من النساء البشريات العجائز يقال إنهنّ كنّ دلافينًا ذات

يوم، لكنهنّ صرنَ حافظات سرّ الجزيرة، وكلّ خمسين عامًا يحلّ محلهنّ ثلاثة أخريات، ويقال أيضًا إنهنّ مجرّد تجسيد بشري لروح الجزيرة.

شعرتُ بالتعب، قدماي صارتَا تؤلمانني، ورأسي أصبح ثقيلًا، وعيناي يغشاهما النعاس معًا، النّعاس يغلّف مخّي ككلّ، وليس نصفه فقط، وعيناي تغمضان معًا وليس واحدة دون الأخرى. جلستُ على أرض عشبية، فردتُ جسدي، كانت الحصباء والأخشاب تجعلني لا أشعر بالراحة. يا للبشر، حسّاسون جدًّا لكلّ شيء رغم أن حواسّهم ضحلة بليدة لو قارنتها بحواسنا كدلافين. اعتدلتُ من اضطجاعي، نظّفت الأرض من الحصا والجذوع الجافة، وقطعت أوراق أشجار وأعشابًا، وفرشتها على الأرض، ثمّ فردت جسدي ورحت في نوم عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٧

زياد- جزيرة موتو موايا- سبتمبر ٢٠١٨

استيقظتُ على ضوء الشمس الذي تسلّل إلى وجهي من بين أوراق الشجر المحيط بي، وصوت الطيور الصغيرة يتسلل إلى أذني رقيقًا ناعمًا كصفير أمّي حين كانت تحثني على الاستيقاظ الكامل لنبدأ دروس الصيد. كنت أشعر أنّ حلقي جاف، لا أفهم السبب، شعرت بالصوت داخلي يأمرني أنْ أمشي لأنّني سأجد ما يعالج هذا الجفاف. أرى نبعَ ماء أمامي ينساب منه جدول صغيرٌ يجري بين الأشجار، أنحني عليه، أتناول الماء بفمي، أبتلعه، أشعر به يسيل على حلقي ويهدّئ الجفاف الذي أشعر به، أشعر بنوعٍ جديد من المتعة، إضافة جديدة للمتع البشرية الصغيرة التي بدأت أكتشفها.

نظرتُ إلى صفحة الماء في الجزء الهادئ من الجدول، رأيت انعكاسًا لهيئتي البشرية في الماء. كان جسدي جزأين؛ جزء مكشوف جلده الداخلي، بنيّ فاتح أقرب للون جلد البشر من أهالي الجزر حولنا، وجزء مغطّى بجلد آخر لونُه رمادي كلوْننا. كنت أقربُ لبشري يرتدي تلك السترة التي يغوصون بها في الماء حولنا، غيرَ أنّ وجهي وأذرعي وسيقاني كانوا مكشوفين؛ كأن الجزيرة تداري أجزاءًا من جسدي بتلك السترة كجزء من طقوس تحولي لبشري. تأملت ملامحي، عيوني سوداء غائرتان، وشعري أسود مجعد، والأنف بشريّ بارز لكنّه غير مدبب، بصفة عامّة كنت راضيًا عن شكلي كبشري.

أكملتُ سيري، أبصرت حيوانات صغيرة تجري على أربع على الأرض، وأخرى على الأشجار، لم أهتمّ بها، الصوت كان يحثني على المضي قدمًا، وتجاهلهم وهم يرمقونني في فضول، أكادُ أفهم همساتهم وهُم يقولون "هذا دولفين جديد يتحوّل بشريًّا، فلنرحب به" فيردّ صوتٌ آخر "ولم؟! أنا لست مهتمًّا". وقفتُ أسفل شجرة أخرى، أخذت بعض ثمارها والتهمتها وأنا أمشي، الحصا أسفل قدمي يضايقني لكنّه غير مؤلم، أحاول تجنّبه وأمشي على الرمل أو العشب.

وصلتُ إلى سفح الجبل، كان الصوتُ داخلي يقودني في اتّجاه معين، أشعر به يعدل من مساري كلّما حدت عن وجهتي حتى وصلت أخيرًا لدغل صغير كثيف الشجر أسفل منحدر مدرج في الجبل. دخلتُ بين الأشجار المتلاصقة، أتلمّس طريقي بصعوبة، لكنّني أمشي متجهًا حيث يقودني الصوت، هبّت رائحة جميلة على أنفي، أخذت نفسًا قويًّا، فأمتعتني الرائحة أكثر، زادت الرّائحة فبدأت تدغدغُ أنفي من الداخل حتى عطست. كان إحساسًا غير محبّب إطلاقًا، وكأنّ كلّ متعة بشرية تأتي معها ما يعادلها من المنغّصات، الارتواء يأتي قبله الإحساس بالحلق الجاف الملتصق، متعة استنشاق العطر يأتي معها الدغدغة

في الأنف والعطاس، متعة الخطو على الرمل والعشب والوقوف منتصبًا يأتي معه تعب الساقين وألم الحصو الذي ينغرس في القدمين وما خفيَ عنّي كان أعظم؛ لم أتوغّل في بشريتي بعد؛ مازلت على الأبواب.

“أهلًا بابن موتو موايا الجديد”.. قال صوتٌ من العمق يناديني، دخلت أكثر، كان الضوء خافتًا لكنّني أبصرت ثلاثة من الإناث خمّنت أنهنّ عجائز الجزيرة اللواتي سيقدنني في رحلة تحولي إلى نصف دولفين ونصف إنسان. الثلاثُ كنّ جالسات على جذع شجرة، كن متلاصقات تتحدث الوسطى منهنّ فقط، والأخريان تتفاعلان معها بالحركة.

“وصلت أخيرًا، أتممت النصفَ الأول من رحلة تحولك، آمنت بالجزيرة وبقدرتك على الوصول إليها وجدارتك بذلك”.. قالت العجوز، فقلت لها “قبل أن أسأل عن نصف رحلتي الثاني، أريد أن أفهمَ مغزى ذلك! ماذا سيستفيد الدلافين الآخرون من قدرتي تلك؟”.. ضحكت بصوت مكتوم واتّسعت ابتسامة أختيها، وأجابت “أنت متعجّل، لو انتظرت لنهاية رحلتك سوف تدرك كل شيء لكنْ لو تريد أن تعرف الآن؛ فسوف أقول لك”.. صمتّ موافقًا فقالت “حكمة البشر وتاريخهم وخبراتهم، آلامهم وأحلامهم وخيالاتهم، كلُّها أشياء ثمينة لا بدّ أن تنتقل لنا نحن الدلافين، لنحافظ على موقعنا بين الكائنات”.. قلت “كيف يحافظ هذا على موقعنا بين الكائنات؟”.. فقالت “المعرفة يا فتى هي كلّ شيء، وهي أصلُ الحكمة ورقيّ النوع. الجمع بين معارف البشر وحكمتهم وحدة حواسّ الدلافين وسعة قلوبهم وخبرتهم البريّة يحفظ لنا مكانتنا”.. صمتت برهة ثمّ أكملت “الدولفين الذي يملك تلك القدرةَ سوف يفيد نوعُه بلا شك، وقد يكون من المختارين الذين يمكنهم الحياة كبشر بين البشر، وليس على الجزيرة فقط”.

قلت وقد ملأت الدهشة خاطري “يعيشون بين البشر، هل هذا معقول؟!”.. فقالت “نعم، فعالم البشر أيضًا يحتاج أحاسيس وخبرات نعرفها نحن الدلافين ويحتاجون إليها، لا تشغل بالك بهذا؛ فهُم نادرون جدًّا، وغالبًا لن تكون منهم”.. انتابني الغيظ حين قالت ذلك، فقلت “أنا أعلم بنفسي”.. فقالت “أنت عجولٌ يا فتى، فيكَ من بني البشر أكثر ممّا تظن، هناك ثلاثة شروط من أجل أن تكونَ من النوع الأكثر ندرة ليس مجالها الآن”.

كدتُ أموت من الفضول، وأوشكت أن أتوسّل لها من أجل أن تشرح لي أكثر، لكنّها رفضت، وحجّتها أنني لا ينبغي أن أسعى لتلك المنزلة، وإنما أتأهّل لها دون أن أدري. “مهمّتك الآن أن تصعدَ إلى قمّة هذا الجبل، ثمّ تقف على الجرف المرتفع وتلقي بنفسك في الهواء، وعندها ستفصح لك الجزيرة عن نفسها”.

كانت المهمّة في نظري بسيطة، خرجت من ذلك الدغل وبدأت أتسلّق الجبل، كان الأمر سهلًا في البداية، لكنّني بدأت أشعر بالتعب سريعًا، بحثت كثيرًا عن شجرةٍ مثمرة بين الأشجار التي تملأ منحدرَ الجبل لكنْ بدون جدوى. الصوتُ داخلي يأمرني أن أعودَ للأسفل وأتغذى أولًا، ثمّ آخذ معي بعض الثمار.

نزلتُ ثانية، خانتني أقدامي البشرية، وأسقطتني، تدحرجَ جسدي في سقطات متتالية، والألم يتزايد مع كلّ سقطة حتّى وصلت للأسفل، وأنا أتألم من أماكن شتى في جسدي، لاحظت وجود خدوشٍ وسحجات على جلدي، وتمزّقات في الجلد الذي أرتديه (الذي ألبستني الجزيرة إياه). وقفتُ متألمًا وأنا أفتقدُ الشعاب المرجانية الرّخوة التي تهدئ آلام السحجات والخدوش. ذهبت حتّى أقرب شجرة مثمرة، تناولت منها بعض الثمار، وشربت ماء كثيرًا من الجدول القريب. أخذت بعض الثمار معي، ودسستُها بين جسدي والجلد الخارجي، وعدت أدراجي للجبل.

ازداد التسلق صعوبة كلّما ارتفعت، والهواء يزداد ضيقًا، تتسارع أنفاسي مع كلّ حركة، وكلّما زاد ارتفاعي، في البداية كانت هناك أشجار كثيرة تساعدني على التسلق لكنّها صارت نادرة كلّما ارتفعت. جلستُ ألتقط أنفاسي وقد بدأت الشمس تميل نحو الغروب، كنت أريد أن أصل قبل الليل، أشعر أن نومًا إضافيًّا في الهيئة البشرية سيكون ممتعًا لوْلا ذلك الهواء الضيق الذي أشعر أنّ أنفاسي التي ألتقطها منه لا تكفيني، ولا أعرف لماذا.

وصلتُ للقمة أخيرًا، الشمس تقترب من المغيب تمامًا، لون الأفق أصفر، والشمس قرصها مستديرٌ هادئ لا يؤلم العين عندَ النظر إليه، وهي تقترب من سطح الماء على وشك أن تختفي خلفه. وقفتُ على حافة الجرف، المياه بعيدة جدًّا، العمق سحيق والأمواج المتلاطمة بالأسفل أراها بالكاد من فرط بعد المسافة.

لم يكنْ من الأمر بدّ رغم المنظر المفزع الذي أراه، كلّما فكرت في القفز شعرت أن الجرف يتطاول ويخرج منه بروز حجرية تهددني بتمزيقي، وأنا في الطريق لسطح الماء. أخذت نفسًا عميقًا، ورميت مخاوفي وقفزت أبعدَ ما أستطيع. كنت أطير في الهواء، الهواء يلفح جسدي ووجهي، أغمضت عيني واستسلمتُ لتلك المتعة الجديدة، السباحة في الهواء أجمل من السباحة في الماء ألف مرّة، كنت أتذوق قليلًا منها حين أقفزُ في الهواء مع أقراني من الدلافين لكنها لم تطلْ لهذا الحد.

حينَ لمست الماء تمدّد جسدي، اختفت التفاصيل البشرية الصغيرة، وظهرت الأحاسيس الدولفينية الغزيرة، عدتُ أسمع صوت المحيط، وعادَ صفيري ينطلق ويتلمّس الطريق ويعود لي ليرسمَ لي ملامح أشياء لا أراها، سربُ

الأسماك الصغيرة يقترب مني، يقدّم نفسه هدية لي، آكل، تمتلئ معدتي وأرتوي من المحيط الذي يتسرّب في داخلي كما انزلقت في داخله. أشعر بالهدوء والسكينة والشبع، ألتفّ بجسدي وأعود أدراجي نحو الجزيرة، نحو شاطئها الرملي، أرمي جسدي، أعود بشريًّا تغطيني بشرة جلدية جديدة خالية من السحجات والجروح وسترة خارجية خالية من التمزقات.

كنت أتمشّى على الجزيرة نحو الأرض العشبية والأفكار تنساب إلى عقلي، تواريخ وأحلام، خيالات ورؤى، أفكار ولغات، عادات وتقاليد، أشكال من البشر كثيرة، الأبيض والأسود وما بينَ بيْن، أرمي جسدي على الأرض وأستسلمُ لهذا الوحي الذي ينساب في عقلي كطوفان لا ينقطع. لا أشعرُ بالأرض تحتي إنْ كانت رملية أو عشبية أو مليئة بالحصا فعقلي كان مشغولًا يتلقّى الوحي، وأنا بين النوم واليقظة حتى غلب النوم في النهاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٨

أروى- هاييتي- أبريل ٢٠١٩

وقفتُ أمام البوفيه الصغير الموجود في صالة انتظار الدرجة الأولى للخطوط الفرنسية، انتقيت بضعَ لقيمات صغيرة، وملأت كوبًا من عصير البرتقال، وعدت إلى طاولتي التي اخترتها في ركنٍ قصيّ بعيدًا عن الناس. أشرقت الشمس بعدما قضيت ثلثي ليلتي في الطائرة من القاهرة إلى هنا في مطار شارل ديجول، حيث سأقضي اثنتي عشرة ساعة في انتظار طائرتي إلى لوس أنجلوس، ومنها إلى بابيتي؛ عاصمة هاييتي. كنت قد نمتُ ثلاث ساعات تقريبًا في طائرتي الأولى، وكنت على وشك قضاء وقت الانتظار كاملًا في تلك الصالة.

مضتْ ثلاثة أشهر منذ حصلت على الطلاق من كامل، لم تكن هناك صعوبة تذكر، كانت تهمته مخجلة، وكان يخشى أن أتحدّث بها، اتضح لي أنّه لم يكن يعرفني بما فيه الكفاية رغم كلّ شيء؛ تربيتي لا تسمح لي أبدًا بالحديث عن أمور كتلك، حتّى تهديدي له برفع قضية كان مجرّد تهديد فلم أكنْ أتخيل نفسي أقفُ أمام القاضي وأقول له سبب طلبي الطلاق منه.

فاوضني على مؤخّر الصداق، قال إنّه يملك نصف المبلغ فقط، وأقسمَ لي أنه سيدفع الباقي عندما تتيسّر له الأمور، لم أجادل كثيرًا، وافقت لكنّ أبي أصرّ أنه يجعله يحرّر شيكًا ببقية المبلغ يستحقّ بعد عام من موعد الطلاق. كانت المفاوضات تلك نفسها مؤلمة جدًّا، لم أشعر قط في طلاقي الأول بهذا الضّغط وهذا الانقباض. الغريب أنّه ذهب إلى شركة السياحة وضغط عليهم لتعديل الرحلة لتكون لي وحدي معَ رفع درجة السفر والفنادق، هو كان يعلم أنه لن يسترجع تلك النّقود، لكنّه أيضًا لم يكن مجبرًا أن يضغط عليهم ليوافقوا على طلبي. ربّما فعل ذلك تحت دافع من الإحساس بالذنب ليس إلّا، وكأنّه يمكن أن ينال مغفرة الله على أمر كهذا.

صرتُ أرثي له حقيقة، هذا الإنسان لن يجدَ امرأة تحبه بصدقٍ وإنْ وجد سوف يفقدها بشكل أسرع مِن فقدي له. مسكين، أظنّ أن حالتَه تلك تحتاج إلى علاج نفسي، قد يكون حرم من شيء ما في طفولته وهذا ما يجعله مصابًا بذلك النوع من النّهم سيء العواقب. كان انتزاعه من قلبي صعبًا مع ذلك، كان ظهوره المفاجئ أمامي في الشركة يصيبني بحالة من الغثيان وانقباض القلب جعلتني أطلبُ منه أن يلزم مكتبه طوالَ وقت وجوده في الشركة، وإن احتاج التعامل معي فعليه أن يرسل أحدَ موظفيه.

ازدحمتِ الصالة، وصار ركني القصيّ عامرًا بزبائن شركة الطيران، جاءت عائلة من رجل وامرأة وطفلة لا يتجاوز عمرها السنتين، جلست المرأة إلى الكرسي الملاصق لي وهي تحمل الطفل، وذهب الرجل ليحضرَ لهم شيئًا للأكل. حانت منّي لفتة صغيرة نحوها، كانت بيضاء، ذاتَ شعرٍ فاحم مُنسدل ثبّتت أعلاه مشبكًا عريضًا تعلوه وردة قماشية، تضع مكياجًا هادئًا، وترتدي ثيابًا خفيفة؛ تي شيرت أزرق بلا رسوم، وبنطالًا قماشيًّا واسعًا أقرب لبناطيل التدريب، وقد وضعت طفلتها النائمة في عربة أنيقة. كنت أشكّ أنّها من جنسية عربية لكنني لم أحاول تبين تفاصيلها أكثرَ حتى لا تشعر أنني فضولية.

أخرجت كتابًا من حقيبتي، ومضيت أحاول أن أقضي الوقت في قراءته إلى أن قاطعتني المرأة سائلة بلهجة شامية "أنت عربية؟".. قلت لها "أيوه من مصر".. فصافحتني وقدّمت نفسها "سارة، من لبنان".. رحّبت بها فقدّمت زوجها "رامي، زوجي".. ثمّ أشارت إلى الطفلة النائمة "تالا". رحّبت بهما، سألتني عن وجهتي فقلت لها فهتفت سعيدة وهي تقول إنّهما ذاهبان إلى تاهيتي أيضًا، ثمّ همست لي بأنّ زوجها كثير النوم، وأنّها سعيدة لأنها وجدت رفيقة تقضي معها ذلك الوقت.

كنتُ قد اتخذت قرارًا قبل انطلاقي في تلك الرحلة أنني سوف أتخلى عن تحفظي وأتعرف على الناس، وأبني صداقات مع الغرباء. كانت فرصتي أنْ أرى دنيا مختلفة، أن أستمتع بذاتي ومن أجلِ ذاتي لا من أجل إنسان آخر، فكما قال أحدهم "حبّ الذات هو الطريق الأسرع لحياة سعيدة". أخذت سارة تحكي لي عن حياتها وحبّها وزواجها، وعن تلك الرحلة التي تخطط لها منذُ عامين، والتي دفعت زوجها دفعًا للموافقة عليها، وزوجها مشغول بهاتفه ويتدخل في الحديث لمامًا، محاولًا تبرئة نفسه من بعض اتّهاماتها له بالكسل أو بالبخل.

كانَا زوجًا ظريفًا ذكّرني- إلى حدّ ما- بالزوج الذي كنّا نشكله أنا وكامل، والذي كنت أشعر أنه يثيرُ حسد الموجودين حولنا. كان اللعينُ ماهرًا جدًّا في اللعب الرومانسية والحكايا الرومانسية والنّظرات التي تقطر حبًّا واهتمامًا. أنا متأكدة أنه لم يكنْ يكذب أو يتصنع ذلك الحب لكنّه زائف معَ ذلك، هو يظنّ الحب كلمات رقيقة وأغنيات واهتمامًا مبالغًا فيه وإنفاقًا ببذخ، لكن هذه عوارضُ للحبّ فقط قد تظهر على الإنسان دون أن يكون العشق متملكًا من قلبه، الحب أنْ تذوبَ في محبوبك، ويذوب فيك، وهذا يعني بالضرورة أنّ عينك لن ترى غيره، أن أناملك سترفض أن تمسّ أخرى مهما أمرها مخك، الحبّ قانونه.. الكلّ أو لا شيء، الحب لا يكون أن تتنازلَ عن قلبك لمَن تحبّ، بل أن تتنازل له عن كلّ خلية في جسدك. اعلمْ أن تلك الصورة المثالية قد تكون غيرَ موجودة كثيرًا لكن لا شيء يكثر عليّ، فأنا منحت كلّ خلاياي له،

وكنت أتوقّع نفس الشيء بالمقابل، أو على الأقلّ الحدّ الأدنى من الإخلاص إلى جانب تملك القلب والخلايا "ذات الصلة" كما أقول في خطاباتي الرسمية.

سارة كانت امرأةً مرحة، لا بدّ أنّ خلف هذا القناع بعض الهموم، لكن كان تعارفنا في بدايته، ولا أريد أن أغرقَ في مشكلاتها الآن، ولا أفصح لها عن حكايتي. غطّ زوجها في النوم كلّ تلك الساعات التي تحدثنا فيها. استيقظت تالا، طفلة جميلة لا تبكي بدون داعٍ مثل آخرين، وإنما كانت تلهو بلعبتها في العربة. أخرجت سارة لها وجبةً من الحبوب المطهوة، طلبت أن أساعدها في إطعامها فرحّبت، كانت الصغيرة تتجاوب معي كأنّها تعرفني لدرجة أنني بعد انتهاء الوجبة أزلتُ الأحزمة وأخذتها في حضني قليلًا.

حين استيقظ رامي، اقترحت سارة عليّ أن نذهب للسوق الحرة ونترك تالا معه، نظرت إليه متوقّعة أن يرفض، لكنّ الرجل وافق ببساطة. قلت في بالي "يا لها من محظوظة!".. لكنني تذكّرت كامل، وقلت في نفسي إنّه ربما وافق لأنّ المضيفة أعجبته، وأحبّ أن يتبادل معها الحديث، والمسكينة تلك تظنّ أنّه طيب القلب، وتركها لتتسوق معي.

"يا لي من امرأة كئيبة.. أهذا وقته؟ هل أستكثر على المرأة أن تكون سعيدة، هل كل رجل يعامل امرأته بحنوّ واهتمام مجرّدُ خائن ومنافق يبطنُ ما لا يظهر.. يا للغباء" قلت لنفسي وأنا أقف معها أمام رصّات العطور، والفتاة الفرنسية الشقراء تعرضُ علينا الأصناف والتخفيضات عليها. كنت أعرفُ الفرنسية، لكنّ سارة كانت تتحدّثها كأنها لغتها الأم.

أنهينا التسوق بشراءِ أشياء بسيطة وعدْنا أدراجنا، مضى الوقت معهما سريعًا، وذهبنا للطائرة التي ستقلّنا إلى لوس أنجلوس. نمتُ ملء عيني خلال تلك الرحلة، كان الكرسي المجاور لي فارغًا ما يسّر ليَ النوم، في منتصف الرحلة- التي كانت مدّتها اثنتي عشرة ساعة أخرى- جاءت سارة ومعها تالا للجلوس في الكرسي الفارغ المجاور لي، تسامرنا قليلًا، وشاهدنا فيلمًا حتى وصلنا إلى مطار لوس أنجلوس في النهاية. بعد انتظار ساعتين ركبنا الطائرة الأخيرة التي هبطتْ بنا في مطار تاهيتي الدولي في الثامنة صباحًا وأنا لا أكاد أرى أمامي من التعب. رغم ذلك لم يفتني رؤية الجزيرة من نافذة الطائرة بشواطئها الممتدة والخضرة التي تكسوها كلها ولا تقطعها إلّا البنايات البيضاء التي كانت تبدو من الأعلى كندف الثلج التي تكسو أجزاءًا من حديقة خضراء مونقة.

اتّجه كلّ منّا إلى فندقه على وعد باللقاء، ركبت التاكسي الذي أرسله لي الفندق وأنا أشعر بصداع وغثيان، ربما كان بسببِ اضطراب ساعتي البيولوجية نتيجة السفر. لم أفكر في كامل ساعتِها قط، كنت مشغولة بمنظر

الجزيرة والجبال في الخلفية والسياح والسكان المحليين، كنت- رغمَ الإجهاد واضطراب الذهن الناتج عن رحلتي الطويلة- أتابع المناظر في حماس، وأمنّي نفسي بأيامٍ أنسى فيها كلّ ما يحزنني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٩

أروى- تاهيتي- أبريل ٢٠١٩

بداية يومي الأوّل كانت مغلّفة بشعور الارتباك الناجم عن اضطراب ساعتي البيولوجية، حاولت النومَ عندما وصلت لكن بدون جدوى، تقلّبت في الفراش ساعتين غفوت خلالهما دقائق قليلة ثمّ قمتُ مقرّرة أن أخرج للشاطئ. جلست على الرمال السمراء التي تكسو الشاطئ وقد ضللتني نخلةٌ كانت تميل على الشاطئ كأنّها تريد أن تستطلع البحر بدلًا من أن تنظر نحو السماء. لم تكن هي النخلةَ الوحيدة المائلة، كان هذا منتشرًا في الشواطئ في الفندق وخارجه. على يميني لسان جبليّ مكسوّ بالأشجار، وأمامي من بعيد تبدو جبالٌ خضراء تخصّ جزيرة أخرى في نهاية الأفق.

قمتُ من جلستي، وفردت جسدي على شيزلونج بلاستيكي، وغطيت وجهي بفوطة، وأغمضت عيني محاولةً النوم في هذا الهواء الدافئ المشبع برائحة المحيط. استغرقت في النوم، كان نومًا هادئًا مريحًا، لا يمتّ بصلةٍ لنومي القلق داخل غرفتي، كانت أنسامُ المحيط مهدئة أفضل من عشرات الأدوية والمشروبات العشبة، أو هكذا شعرت. استيقظت فوجدت النادل يضع جواري كأسًا من العصير الاستوائي مزدانًا بشريحة من الفاكهة على قمته، التقطت هاتفي وأخذت لقطة للكأس، وخلفه اللسان الجبلي النّضر، لقطة تشبه الدّعايات السياحية، ثمّ وضعتها على الإنستجرام، وزيّنتها بتعليق. لم أكنْ قد حظرت كامل على الإنستجرام، وتوقّعت أن يراها وأن يتلوّن وجهه بالحسرة على ما أفتقده هنا. جاءني إشعار بتعليق، وكان من نجلاء تبدي انبهارها بالصورة، ثمّ علّقت نهاد وقالت "ارمي الموبايل واستمتعي بجدّ يا أروى، انسي الدنيا وعيشي الحلم شوية يا بنتي".

السّاعة الآن في مصر كانت قد تجاوزت منتصفَ الليل بقليل لكنّها ليلة الجمعة، فلا بدّ أن الجميع لا يزال مستيقظًا. جاءني تعليق من سارة "كتير حلو الفيو عندك، بسّ البنجالوز هون بتعقد".. ابتسمت، فقد كانت سارة تحدّثني عن أنها تحلم منذ سنوات بالمبيت في واحد من تلك البنجالوز؛ وهي الأكواخ الموجودة وسط الماء، وحاولت أن تقنعني أن ألغي حجزي وأقيم معهم في أحدها، لكنّني قلت لها إنّني حجزت واحدًا بالفعل في بورا بورا التي كنت سأذهب إليها بعد يومين. جاءتني رسالة منها بعدَ ثوان لها وهي تدلي ابنتها تالا في الماء وخلفها بقية الكوخ، كانت البنتُ تبدو مستمتعة متحفزةً للمْس الماء، جعلتني الصورة ألعنُ زوجي الأول وكامل وبقية مَن خذلوني من الرجال وتسبّبوا في حرماني من تلك اللقطة حتى اليوم.

أغلقتُ الهاتف، قررت أنْ أرميه في خزنة الغرفة، أن أهجره وأتخلّى عن التواصل مع عالمي طوالَ اليوم. تنفّست الصعداء وقمتُ أتمشى نحو حمام السباحة الذي كان على ربوة أعلى من الشاطئ قليلًا. غمستُ نفسي فيه تمامًا، وتركتني أستمتع بالماء والمنظر، لم أخرج لتناول الغداء حتى؛ طلبت من النادل بعضَ الشطائر والقهوة، وضعها لي على حافّة المسبح فتناولتها سريعًا وأنا أشعر ببهجة التخلّص من عبء عالمي.

قبلَ الغروب مباشرة، كان موعدُ الرقصات الفولكلورية التاهيتية على الشاطئ ذي الرمال السوداء، تصاعدت أصواتُ العزف أولًا، ثمّ ظهر صفّ من الرجال يرتدون تنورات من خيوط بيضاء زاهية، ويعتمرون قبعاتٍ مستطيلة لأعلى على أطرافها ريش، وأوسطها رسوم، ويزينون صدورهم بقلاداتٍ عظمية، ثمّ ظهر صفّ من الفتيات يرتدين تنورات مشابهة لكنها مزدانة بأشرطة من الجريد المجدول وصديريات شبيهة، قبعاتهنّ كان ريشُها أطول، تزيّنها فيونكات صفراء من الجريد، وقلاداتهن أزهى ألوانًا، إجمالًا كان منظرهنّ أكثر إبهاجًا من الرجال بكثير. الرّقصة استمرّت يتداخل فيها صفّ الرجال وصفّ النساء، وكلّهم يبدو على وجهه سعادة حقيقية كأنّهم يرقصون لأنفسهم لا لمجموعة من السياح الفضوليّين. الأجمل كان حين دخلت في الرقصة ثلاثة قوارب رفيعة طويلة بها رجال يجدّفون، وآخرون يرفعون المشاعل، والقوارب الثلاثة كانت تدور برشاقة في الماء، وكأنّ كلّ واحد منها شخص يرقص بطوله.

في اليوم التالي، كنت قد حجزتُ رحلة سياحية تطوف بي في معالم الجزيرة الهامة، كنت قد أجّلت الرحلات البحرية لزيارتي لبورا بورا، وقرّرت في تاهيتي أن أستمتع بالطبيعة الأرضية. كانت الرحلة تضمّ غيري خمسة؛ زوجين أمريكيّين، ورجلًا فرنسيًّا جلس جواري كأنّنا الزوج الثّالث في العربة. شرح لنا المرشدُ مسار الرحلة بالإنجليزية التي وافق الرجل الفرنسي على أن تكونَ هي لغة الرحلة الوحيدة.

دخلنا مزارنا الأوّل؛ معبد "أراهواهو ماراي"، حين قال المرشد اسمَه للمرة الأولى طلب منّي تكرارَه، فضحكت وأنا أحاولُ نطق الاسم، وقلت له "ألا يمكن اختصارُه، مثلًا تقول أراهو، وتزيل الـ (هو) الأخيرة؟".. فقال لي "كلّا، بالطّبع كل حرف في الاسم له معنى". كان المعبد عبارة عن حديقةٍ واسعة، فيها تمثالان حجريّان لشخوص سمينة مقرفصة بدائية الملامح اسمها "تيكي"، قال المرشد إنّها منحوتات مقلدة، وأنّ الأصلية موجودة في متحف.

تركَنا نتجوّل في المكان، وصلت لجزءٍ مرتفع مبني من أحجار سوداء ملطخة بغبش أبيض، تحيطُ بمساحةٍ طينية منبسطة مُزدانة بعرائسَ خشبية مسطّحة منحوتة ببساطة لتشبه وجهًا يعلوه ريش، كنت أتأمّلها حين انتبهت للرجلِ

الفرنسي يقف بالقرب منّي، ثمّ يقول وهو يشير نحو مكانٍ أكثر ارتفاعًا "هذا هو الـ (اهو) الذي كنت تريدين إزالته من اسم المعبد".. لم أفهم قصده فشرحَ لي أنّ هذا هو المكان الذي كانوا يقدّمون عنده القرابين، واسمه "اهو"، أمّا المعبد فيطلق عليه في اللغة المحلية "ماراي".

كان يبرّر لي الاسم المعقّد أو يشرحه لي، محاولًا أن يفتح معي مجالًا للحديث، لم أكن أمانع؛ ففكرتي عن الرجل الغربي أنه يتحدّث مع المرأة باحترام، ولا يوجد نيّة مختبئة خلف كلّ كلمة ولفتة، قدّم نفسه لي "فابيان من تولوز، فرنسا".. فقلت "أروى من القاهرة، مصر".. فابتسم وقال "هذا هو السّبب إذًا، كنت أحاول تذكّرَ أين رأيتك من قبْل، فيك شبه من نفرتاري ملكة مصر القديمة".. يبدو أنّك لست سهلًا أيها الأجنبي، قلت في نفسي وأنا أبتسم لمجاملته، في الحقيقة أنا لم أكنْ أعرف ساعتها مَن هي نفرتاري، لو كان قال نفرتيتي مثلًا لكان الأمر أكثر سهولة.

استأذنني في أن نتجوّل في المعبد سويًّا، لم أجد حرجًا في ذلك، كان لديه معرفة بالمكان، شرح لي أنّ تاهيتي هي جزءٌ ممّا يسمى "بولينيزيا الفرنسية" وهي من الأقاليم التابعة لفرنسا، وهو من الذين يعتبرون هذا وضعًا غير مقبول، وأنّ هذه الجزر من الأفضل لها أن تتحدَ في دولة مستقلة عن فرنسا. لاحظ أنّ التبرم بدَا على وجهي، فقد كنت أملّ من الجغرافيا والسياسة بسرعة، فعاد يصفُ لي ما نراه في المعبد.

انتقلنا لمحطتنا التالية، مغارة مارا تاهيتي، كانت كهفًا مختبئًا في غابة كثيفة، مدخله عبارة عن بركة تتساقطُ فيها المياه من سقفه، أبعدت نفسي عن فابيان قليلًا، وتجوّلت في المكان وحدي، الهواء كان باردًا في المكان على غير العادة، عدتُ أدراجي نحو الحديقة المحيطة، دجاجات كثيرة تتجوّل في المكان، والسياح يرمون لها بالفتات، فتحت هاتفي وأخذت بضعة صور ثمّ بحثتُ على جوجل عن نفرتاري تلك التي تشبهني. حين رأيت صورتها الوحيدة المتاحة على الإنترنت هتفت "يا ابن النصّابة!" كانت المرأة لا تشبهني بأيّ حال، والصورة أصلًا كانت جانبية، مجرّد رسم منحوت على حجرٍ لا يكشف عن ملامحها كتمثال نفرتيتي مثلًا. يبدو أن دماءَ الرجال مخلوطةً بالكذب، لا يختلف في ذلك المصري عن الفرنسي.

استمرّت جولتنا بعد ذلك، إلى حديقة مليئة بالبرك التي تنمو على سطحها نباتات خضراء وجسور خشبية وأشجار وبطّ كثير وشلال صغير لا يقارن بالطبع بالشلال الذي رأيناه في محطّتنا التالية؛ وهو شلال فاروماي. بعدَ مسافة مشي تجاذبت فيها أطراف الحديث مع فابيان رأينا شلالًا ينساب من مكانٍ مرتفع للغاية، يبدو وكأنّه ينبت من السماء مباشرة، وعلى جانبيه شلّالين دقيقين قصيرين، انسيابُ الشلال كان هادئًا يصبّ في بركة ضحلة.

كان الجميع يقيمون معي في نفس الفندق، تناولنا العشاء سويًّا، حدّثني فابيان عن مهنته، مدرس تاريخ لكنّه يحضّر رسالة ماجستير في تاريخ الجزيرة، "وجدت فرصة لزيارة الجزيرة بحجة الدّراسة، لكنّني أنوي الاستمتاع بالرحلة لأقصى درجة".. قالها بإنجليزيته ذات اللكنة الفرنسية وهو يثبّت عينه في عيني فابتسمتُ بشيء من السخرية وأنا أقول "أنا أيضًا أنوي ذلك".. فسألني "هل أنت مرتبطةٌ بشخص ما؟".. ضحكت بصوت عال، وقلت بعربية "هيّ ناقصاك". الرجال يفتّشون عن رائحة امرأة في أيّ مكان، لا يهمّ مَن هي، ولا كيف تبدو، المهمّ أن تذهب معه لغرفته آخرَ اليوم، هذا كلّ ما يدور برأس الرجل مهما بدَا مهذّبًا أو متحضّرًا، قد يختلف هذا الرجل، وكامل أيضًا، عن الآخرين في أناقة الحديث والطلب بتهذيب، لكنهم في النهاية يفكرون في الشيء نفسه.

هزّ رأسه مستفسرًا عن معنى حديثي بالعربية، فقلت له "أنا ملكة يا عزيزي، لا يمكنني الارتباط بالعامّة".. ضحك للمزحة وقال "تعنين أنّك غير مرتبطة؟".. فقلت "الموضوع معقد، على أيّة حال أنا سوف أذهب غدًا لبورا بورا". بدَا الأسى على وجهه وإن شعرت أنه مصطنع، استأذنتُ منه للقيام، عدتُ إلى غرفتي وفردتُ جسدي لأستريح من تعب اليوم، كانت على وجهي ابتسامة سعادة بعد ذلك اليوم الجميل الذي استحقّ عناءه. تذكرت فابيان ومحاولته التودد لي وابتسمتُ بغرور، فرغم استحالة أنْ أقابل تودّده ذاك بترحيب أو حتى مجرد صمت دون صدّ واضح؛ إلّا أنه يثبت أنّ سحر أنوثتي عابرٌ للقارات، هذا إن كان لسحري وجودٌ أصلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٠

زياد- بورا بورا- أبريل ٢٠١٩

وهبتني الجزيرةُ في الشهور التالية عالمًا كاملًا، أذهب إليها كلّ أسبوع في رحلة لا تستغرق إلّا ساعات تهاجمني في نهايتها دوامةٌ مائية تبلعني، ثمّ تلقيني أمام الجزيرة حيث أترك نفسي للأموج تلقيني على الشاطئ، أتحوّل بشرًا ثانية، وأمارس حياة بشرية منعزلة، ألتقط الثمار وأصطادُ الأرانب، أسلخها وأشعل النيران وأشويها وأستمتعُ بطعم اللحم المشوي اللذيذ.

فكّرت مرّة أن آكل السمك مشويًّا لكنّ اصطياده سليمًا عسيرٌ للغاية، فأنا أعود دولفينًا عندما أمسّ ماء المحيط، ذات مرّةٍ أمسكت سمكة بفكّي برفق دون أن أهرسها بأسناني، كانت لا تزال حيّة تحاول التملص، عندما خرجت من الماء وتحوّلت إنسانًا لم أتحمّل وجودها في فمي، وانزلقت منه بسهولة عائدة للماء.

الجزيرة كانت تهبني في كلّ زيارة أفكارًا جديدة عن عالم البشر، أكتسب الحكمة منها وأتعلم من أفعالهم وعواقبها الكثير، تاريخهم غنيّ حقًّا، قدرتهم المدهشة على الاحتفاظ بالتاريخ وتدوينه هو أكثرُ شيء يميّزهم عن باقي المخلوقات، البشري يحمل ذاكرته وذاكرة الملايين قبله وهذا أعظم شيء لديهم، وأعظم ما حصلت عليه من الجزيرة. اللغات أيضًا، علمتني الجزيرة منها أكثر من عشرة، وسوف أعرفُ غيرها في الأيام التالية. اللغات متعة أخرى عند البشر، اللغة لدينا معشر الدّلافين متقدمة كثيرًا عن غيرنا من المخلوقات، لكنّها قاصرة على توصيل أشياء مباشرة.

الفرق بين اللغة عند البشر وعندنا هو نفسه الفرق بين التاريخ في العالمين. نحن لدينا تاريخ أيضًا، لكنه تاريخٌ من الخبرات، واستجابات الغرائز وتبعاتها. نحن نرث من أسلافنا أفكارًا كثيرة، أدّت إلى تحسّن قدرتنا على البقاء جيلًا بعد جيل، نعرف مواعيد الأعاصير والرياح العنيفة، ونعرف كيف نتنبأ بها، نتعلم الكثير عن سلوكيات البشر وسلوكيات غيرنا من ساكني المحيط، نعرف أوقات هجرات الأسماك وأوقات تكاثرها، نعرف كيف نتزاوج ونتكاثر ونعتني بالصّغار، كلّ تلك الخبرات ليست كلّها غرائز نتبعها بالسليقة، لكنْ جزءٌ كبير منها نرثه من أسلافنا جيلًا بعد جيل، وكلّ جيل يضيف إلى تلك المعرفة جزءًا بسيطًا، يشبه ذلك تراكم المعارف عند البشر، لكنّها اللغة هي ما ساعدهم على أنْ تكون المعارف لديهم ثابتة معقدة تخضع للتحليل والتعديل.

بدأتْ مهمّتي منذ عدت من زيارتي الأولى للجزيرة، أنا وأمثالي من الدلافين المتحولة نستغلّ المعارف البشرية لخدمة جنسنا، لكنّنا لا نعرف ما الذي

ينبغي أن ننقله، وما الذي ينبغي أن نسكتَ عنه، العجائز أخبرنني أنّني سوف أعرف بالممارسة، في المواقف المختلفة في حياتنا في القطيع، أثناء السباحة أو التنزّه أو الصيد أو الاحتكاك بين الأفراد أو القطعان، تستجد أحداث تجعلنا نستغل جزءًا من معارفنا ونوصلها لبقية القطيع.

من الأهمية بمكان أن يظلّ أمر الجزيرة سرًّا، وأمر قدرتي على التحول أيضًا، ولذلك يخبر الدولفين الكبير بقية القطيع أنّهم اختاروني لأتلقى دروسًا من الدلافين الحكماء، وبهذا يفسرون غيابي المتكرّر عن القطيع، وتلك الحكمة التي أكتسبها يومًا بعد يوم. حين تكون دولفينًا حكيمًا تبتعد عن التزاوج، ويصير حولك هالة وقارٍ مختلفة تجعل الدلافين تلجأ إليك في كلّ ظروفها ومشكلاتها وخلافاتها أيضًا.

الشيء الذي حدث ولم أكنْ أتخيل حدوثه حقًّا- رغم أنّ العجوز أخبرني به- هو أنّ كلّ حياتي قبلَ التحوّل صارت ذكرى بعيدة؛ ذكرى واحدة ضمن الذكريات الهائلة التي صرتُ أحملها من تواريخ البشر، وحيواتهم وخبراتهم. أتذكر أمّي، وأتذكر مايا، وأشعر أحيانًا بحنين ذكريات لي معهم، لكنّه صار كالحنين لشيء بعيدٍ حدث منذ مئات السنين. أمّي عرفت أنني صرت دولفينًا حكيمًا، أخبرها الدولفين العجوزُ بهذا، وعرفت أنا من روح الجزيرة أنها تقبّلت الخبر بفرح وفخر، وهنّأها كلّ مَن في القطيع.

ما شغلني بحقّ رغم كلّ تلك الهبات هو أنّ هناك من بني جنسنا مَن يملك القدرة على التحول إنسانًا على أي يابس. تلك قدرة أخرى أكثر إدهاشًا، وهي أن أصير قادرًا على الاختلاط بالبشر، ورغم أنّني أخشى تلك الكائنات من كثرة ما عرفت عن تاريخهم، إلّا أنني أتوق لتجربة الحياة بينهم، فهي مغامرة عسيرة تستفزّ التحدي داخلي.

ذهبتُ إلى كهف العجائز منذُ فترة قريبة، وجدتهنّ في نفس الجلسة وكأنهنّ كنّ ينتظرنني، قدمت احترامي، وجلست أمامهنّ وسألت "كيف أعرف أنّني من صفوة الصفوة؟".. قالت العجوز المتكلمة "ستعرفُ إذا آنَ أوانك".. فسألت "ما الشروط؟ أرجوك أخبريني".. ظهرت ملامح الدّهشة على العجوز اليُمْنى مُختلطة بإعجاب، وكسا التبرمُ سحنة العجوز اليسرى، ونطقت الوسطى قائلة "هذه المعرفة ستجلبُ عليك الهمّ أكثر من اللازم، ليست كلّ المعرفة نعمة يا فتى".

بعدَ إصرار منّي قالت "المشكلة أنّ الشروط هي أنْ يختارك قدرُك لا العكس؛ يجب أن تنقذ بشرية من الموت، وتأتي بها هنا، لا بدّ أن تكون البشرية على وشك الموت، ولا منقذ لها إلّا أنت، هذا أوّل شرط".. قلت لها ضجرًا من مماطلتها "أكملي أرجوك، ما الشّرط الثاني؟".. فقالت "انتظر، أوّلًا أريد أن

أخبرك ببقيّة الشرط الأول، لا بدّ أن تكون تلك البشرية امرأة حزينة، تتوجّع من صدمة شديدة، وأن تكون بلا رجل".

صمتتْ ثانية، فطلبتُ منها أن تقول الشرط الثاني، فقالت "أن تحبّها بصدق، وتحبّك بصدق".. قلت في نفسي "يا للواقعة السّوداء!" ما لي، وما لتلك العلاقة العجيبة التي يوليها البشرُ اهتمامًا لا يمكن تبريره! إنّ أعقد شيء استعصى على فهمي في عالم البشر هو الحبّ بين الرجل والمرأة، شيء بلا سبب يبدأ من الأثير لم يعثرْ إنسان واحدٌ على تفسير له، لكن كلّ اللغات اتفقت على الغناء عنه، والبكاء بسببه، والموت أحيانًا في سبيله. عاطفة غير مقنعة على الإطلاق تهبُ فيها روحك وكيانك بالكامل لإنسانٍ ليس بينك وبينه رباطُ دم، وتدفعك غالبا لارتكاب أفعالٍ لا يقبلها عقل. يا لَه من شرط! إنّ العثور على امرأة عزباء حزينة توشك على الموت في قلبِ المحيط الشاسع هو شرطٌ أسهل عندي من الوقوع في الحب.

"وما الشّرط الثالث؟".. سألتها، فأطلقت ضحكة صفراء، وارتسمت ملامح السخرية على أختيها، وقالت "الشّرط الثالث يتحدّد عندما تحقق الشرطين الأولين، عندها ستدفن جسدك وجسدها تحت رمالِ الجزيرة، لا يبقى مكشوفًا إلّا رأسيكما، وتدع الجزيرة تحدّد الشرط الثالث".

مِن بعدها كنت أطوفُ المحيط أحيانًا في الأماكن التي يتنزه فيها البشر عادة، أقفز حول زوارقهم وأداعبهم، أتأمّلهم وأنا أحاول أن أسبرَ أغوارهم. كانوا جميعًا ساذجين أو هكذا بدوْا لي، يحاولون اللعبَ معي كأنني في سيرك أو حديقة حيوانات. كنت أسمعُ حديثهم وهم يتكلمون عنّي، ويتبادلون العبارات عن ظرفي وذكائي، يندهشون لأنّني أقفز حول القارب أو ألفّ جسدي في الهواء، وهي أشياء يفعلها أيّ دولفين عادي.

كنتُ أبدي اهتمامًا أكثر بالنساء؛ لعلّي أجد امرأة حزينة أراقبها حتى تقع في خطر، وأنقذها، ثمّ أهربُ بها نحو الجزيرة. كان اهتمامي بالنّساء يجعل البشر يندهشون ويضحكون ويؤكدون أن هذا الدولفين ذكر، ولذا هو مولعٌ بالإناث. كان ذلك يتكرّر حتى جاء يوم، كانت امرأة تتهادى في بورا بورا بين الجزيرة الأساسية والحيد المحيط بها، كانت تركب وحدَها على شيء يسمونه الدّراجة البحرية، حين رأتني ابتسمتُ لي بهدوء، لم تهتف أو تصرخ مهلّلة مثلما يفعل الباقون، بل رحّبت بي كأنها تقابل صديقًا.

أخذتُ أدور حولها، لم أحاول الإتيان بحركات بهلوانية أو قفزات قوية، فقط أسبح بهدوء لأعلى وأسفل. استندت بخطمي وزعنفتي على جانب الدراجة فمدّت يدها ومرّرتها على ظهري، كانت أوّلَ مرّة أقترب من بشريّ إلى هذا الحد، كانت لمسة حنونًا، لكنّها لا تدلّ على شيء، فربما لو لمستني أيّ بشرية

لشعرت بنفس الشيء، لا بدّ أنّ ملمس يد بشرية على ظهري له وقعٌ مختلف عنْ زعنفة دولفين أو جسده.

قامتِ البشرية بحركة مفاجئة بعد ذلك، نزلت عن دراجتها للماء وهي تستندُ علي، لم يفعلها أحدُهم من قبل، هُم يعتبرون أن تعاملهم المباشر معنا يقتصر على البشر ذوي الخبرة في الكائنات البحرية، أو على الأقلّ تحت إشرافهم. تجاوبت معها ببساطة رغم دهشتي، أخذت أدور حولَ الدراجة وهي تستند عليّ وتعوم معي، قالت بالعربية "لو تغطس بي".. لم أفكّر؛ غطست قليلًا، لكنها لم تتبعني، صعدتُ والتصقت بها، ووضعت زعنفتي بيديها، ثمّ غطست بهدوء لتغطس معي لكنّها أفلتتني. "يا لغباء البشر، لن تكوني استثناءًا بالطبع"، قلت في نفسي وصعدت لأعلى، ووضعت زعنفتي بيديها، فقالت "عاوزني أغطس؟".. فمسحت رأسي بها وأنا أصفر كأنّني أبلغها بموافقتي "معقول فهمتني!".. قالت، ثمّ أمسكت زعنفتي بقوّة، وأخذتْ نفسًا عميقًا، ثمّ غطست معي وهي تتمسّك بي بكلتا يديها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢١

أروى- بورا بورا- أبريل ٢٠١٩

الهبوط بالطائرة في بورا بورا أمتعني كأنّه كان رحلة بمفردها، المكان يبدو من أعلى كجزيرة جبلية خضراء في المنتصف، يحيطها قوس كبير أخضر، تمتدّ منه أذرع دقيقة تحتلها الأكواخ التي سأقيم في واحدٍ منها، بين الخضرة هنا وهناك تتلوّن المياه بدرجات تبدأ من الأبيض المشوب بالخضرة، إلى الفستقي، فالأزرق الزاهي، فالأزرق الأغمق الذي يمتدّ من نهاية القوس المفتوح إلى المحيط الواسع.

هبطتِ الطائرة في ممرّ يشبه الطريق الزراعي، ممرّ صغير أسفلتي، تحيطه الخضرة من الجانبين، ذهبتُ إلى فندقي مباشرة، قادني الموظفُ في ممرّ صغير وسط الماء تحفه الأكواخ على الجانبين حتّى استقريت في كوخي في نهاية المطاف. من الداخل كان يبدو كغرفة فندق من فئة الخمس نجوم، ذات ديكور مختلف قليلًا، والسقف مائل مخروطي. الجلسة خارجها كانت شيئًا آخر، مساحة صغيرة، جزء منها يقع تحت امتدادِ السقف الخشبي المعرّش، وجزء أسفل يلامسُ الماء، والمنظر يطلّ بالكامل على جبل أوتيمانو، حيث ترى الخضرة تعانق السحب كأنّها تستقي الماء منها مباشرة دون الحاجة لانتظار المطر.

أمضيتُ يومي بالكامل في الغرفة وامتدادها الخارجي، نزلت الماء واستمتعت بدغدغة الأسماك الملوّنة تحاول الأكل ممّا علق بجسدي من الشوائب، خرجت من الماء، تناولت غدائي أمام منظرِ الجبل خارج الغرفة، بعدها فردتُ جسدي وأخذتُ أقرأ في واحدة من الرواياتِ التي جلبتها معي، لم يكنْ فيها رواية رومانسية واحدة؛ كانت كلّها إمّا روايات إثارة أو جريمة أو رعب.

اخترتُ أن أبدأ برواية اسمها الفتاة الهاربة، هي رواية حوّلوها فيلمًا ناجحًا منذ فترة قريبة، وقد شاهدته، لكنني كنت أريد أن أقرأ وصفَ الكاتب للمشاعر الحقيقية ولقدرة الفتاة بطلة الرواية في السيطرة على الرجال، وإرعابهم وتطويعهم لها، بل وقتلهم أحيانًا. كنت أفرغ فيها طاقتي النفسية المكبوتة وأنا أستمتعُ بالماء والخضرة والأكل الحسن. كان أكلهم لذيذَ الطعم، وتوابلهم مميزة أيضًا، وخاصة الأسماك.

اليوم التالي قضيته بين الشاطئ والفندق والمدينة، وفي نهايته سلّمت نفسي لفتاة تقوم بالمساج على الطّريقة المحلية. في اليوم الثالث كان موعدُ الرحلة التي حجزتها، كان من المفترض أولًا أنْ نقوم بجولةٍ في البحيرات بالدراجة المائية أولًا، ندور على المناظر الطبيعية ونشاهد الخلجان

والجزيرات، ثمّ نتناول الغداء، وبعدها نأخذ رحلة بحرية نغوص خلالها لمشاهدة الأسماك، وخاصّة سمك الراي والقروش.

أعطانا المرشدُ بعض التوجيهات أولًا، امتطيت دراجتي بسهولة وجرأة وأنا أرتدي سترة النجاة وأثبّت قناع غطس على عيوني لأتمكّن من فتحهما حين تزيد السرعة. حرّكت دراجتي دون خوف، كانت المرّة الأولى لي، لكنني قررتُ في بداية الرحلة ألا أخشى شيئًا حتى أن المشاركين في الرحلة جميعًا أبدوْا قلقهم من فكرة السباحة إلى جوار أسماك القرش؛ إلّا أنا. انطلقنا بهدوء أوّلًا، ثمّ ازدادت سرعتنا، شعرت أنني أطير، والماء والريح تلذعان وجهي بطريقة محببة، خطر ببالي أنْ أدور بعنف، وأن أترك نفسي لأسقط في الماء بعيدًا، أو أتّجه بسرعة عالية نحو أي علامة بحرية، ثمّ أرفع مقدّمة الدراجة، وأعتلي العلامة بها، وأطير في الهواء مسافة عالية، ثمّ أنقلبُ بقوة ويرتطمُ جسدي بسطح الماء عدّة مرات مثل قطعة خزف مسطحة يلقّيها أحدهم على صفحة بحيرة، أردت ممارسة الجنون لأقصى حدّ يمكن بلوغه، لكنّني احتفظت بتتبعي لخطوات المرشد رغمًا عن شطحات خيالي تلك.

توقّفنا بالدراجات المائية عند أحدِ الخلجان حين حدثَ شيء غريب، كنت أقف بعيدًا عن المجموعة أتأمّل المكان على راحتي حين وجدت دولفينًا يقترب مني. كنت أشعر أنّه يبتسم لي مرحّبًا؛ فابتسمت له، رؤية دولفين في هذا الجزء شيء نادر كما قال لي المرشد، والأندر أنْ يكون الدولفين وحيدًا. اقترب منّي، وأخذ يدور حولي، يعلو فوق الماء ويغطس مقتربًا منّي أكثر.

مددتُ يدي ألمسه، أعرف أنّ ذلك غير مسموح في عدم وجود مدرّب متخصّص، لكنّني قررت التهوّر. قرّب الدولفين رأسه منّي، شعرت برغبة شديدة في نزول الماء والسباحة معه، تلفتّ حولي فوجدت المرشدَ مشغولًا مع بقية المجموعة، نزلت بحذر، استندت عليه، فبدأ يعوم بي حول الدراجة بخفّة، قلت بصوت عال "لو تغطس بي".. توقّف الدولفين لحظة، شعرت أنه تفاجأ بطلبي، وكأنّه يفهم العربية، وضعَ زعنفته بيدي، كان ملمسُها زلقًا، أفلتت منّي حين غطس. صعد ثانية وأخذ يصدر صفيرًا وهو يحرك ذيله أكثرَ من المعتاد، قلت في نفسي "معقول فهمتني!".. مسح رأسه بصدري كقطٍّ أليف، ثمّ وضع زعنفته بيدي وهو يشدّها حتى شعرت بصلابتها "عاوزني أغطس؟".. سألته فصفّر ثانية، التفتّ حولي، كان المرشد لا يراني، أخذت نفسًا عميقًا، وأمسكت زعنفته بقوّة، فغطس وأنا لا أزال ممسكة به.

مكّنني القناع من الرؤية أسفل الماء، وكان الدولفين من الذكاء ما جعله يغطس بالقرب من السّطح كأنّه يأخذني في جولة سياحية. عاكستني سترةُ النجاة فاعتليت جسدَ الدولفين تلقائيًّا كأنه حصان، وأمسكته بذراعي وساقي

بقوة. وكأننا نسبح معًا منذ زمن، كان يصعد ويغطس بي بمنتهى النعومة، ثمّ قفز قفزة خفيفة جعلتني أصرخ جذلًا وأنا معه.

اقتربتْ منّا الدراجات الأخرى، وسمعت صوت المرشد يعترض بصوتٍ مرتفع وهو يقفز في الماء بدوره، ويقترب منّي ومن الدولفين بحذر. وقف الدولفين وكأنّه فهم الاعتراض البادي على المرشد، وتركني أنزلُ من عليه، وانسابَ بهدوء مبتعدًا.

“سيدتي، ما فعلتِه هذا خروجٌ صارخ على قواعد السلامة، إنني يحقّ لي إنهاء رحلتك الآن بدون إعادة مبلغ الحجز”.. هتفَ المرشد غاضبًا وهو يساعدني على صعود الدراجة، لم أردّ عليه لأنّني كنت سأسبّه أو سأضحك، لم يكنْ هناك حلّ وسط. انطلقنا معًا نكمل رحلتنا، وأنا حريصة على التحلّي بالالتزام بعد أنِ اختلستُ متعة قصيرة زادَ من إثارتها أنها ضدّ القواعد، أنّ فيها مخاطرة غيرَ محسوبة، شعرت أنّني فرّغت قليلًا من طاقة التهور التي تملأني تلك الأيام، ملأتني نشوةٌ غير عادية، أكملت معها بقية الجولة على الدراجة، وأنا مازلت أسترجع مشاهدَ الأسماك وأنا أغوص بينهم ملتصقة بواحد من عالمهم.

عدْنا إلى اليابسة لنتناول الغداء في مطعم يطلّ على جبل أوتيمانو، من زاوية أخرى تبرز رسمًا جديدًا لقمّته كأنّها ذات رأسين؛ واحد مدبّب، والثاني مفلطح، كانت المجموعة أناسًا ودودين، لكن أكثرهم ودًّا كان رجل وامرأته أستراليان يتجاوزان الستين، كانا يتجاذبان أطراف الحديث معي كأنّني ابنتهما. بينما كنّا في انتظار الطعام، ذهب المرشد ليحدّث أحدَ موظفي المطعم، قالت المرأة بصوت خفيض “لقد أخطأتِ يا فتاة، أثرت فزعَ الرجل!”.. عقدت حاجبي مستفسرة، فقالت “إنه مسئول عن سلامتنا، الحيوانات البحرية غيرُ مأمونة الجانب دومًا، وهذا دولفين برّي غيرُ مدرّب، كان من الممكن أن يؤذيك أو يتسبّب بغرقك”.. قلت لها معتذرة “لم أكنْ أقصد يا ديبرا، لم أشعر بتلك المسئولية”.. فقال زوجها “أرى أن تعتذري له، قولي له كلمةً لطيفة على الأقل”.

عادَ المرشد، اعتذرت له عملًا بنصيحة ويليام وديبرا، تقبّل الرجل الاعتذار بصدر رحبٍ، واعتذر بدوره عن انفعاله الزائد. أكلنا الاستاكوزا الغارقة في صوص أبيضٍ مختلف الطعم تمامًا، وحلّينا بثمار جوز الهند بعد أنْ أخذنا درسًا سريعًا في كيفية فتحها بسهولة. انطلقنا بعد ذلك في الرحلة التالية على متنِ قاربٍ سريع إلى منطقة الغطس، مكان يزخر بالمخلوقات البحرية، وعلى رأسها أسماك الري والقروش الصغيرة والسلاحف البحرية الملونة. رغم كلّ التأكيدات أنّ القروش هنا لا تهاجم أحدًا، انتابتني قشعريرة حين رأيت أحدَها مقتربًا منّي، لولا أنْ ربّت المرشد على كتفي. سبحت مع أسماك الري التي

كانت ودودة بشكل مفاجئ، وسبحتْ جواري لدقائق سلحفاة بحرية ذكّرتني بتلك الموجودة في فيلم نيمو.

شعرتُ أنّ الدولفين الذي كان معي كان قريبًا منّي، لم أره على الحقيقة لكنْ ملأني إحساس أنه لا يزال موجودًا غيرَ بعيد عنّي يراقبني. حين عدت جاءتني فكرة مجنونة، طلبت من موظف الفندق أن يبحثَ لي عن شخص يجيد التعامل مع الدلافين، واستطعت أن أقنعه (بالمال طبعًا) أن يصحبني في رحلةٍ لنفس المكان الذي قابلني فيه الدولفين، كنت أشعر أنّني أريد السباحة معه ثانية، شعورٌ مجنون لا تفسير له إلّا أنّني امرأة خاوية القلب تتشبّث بأيّ مغامرة والسلام، لم أشبعْ من الغطس بصحبة دولفين، ورأيت أنها فرصة جيدة أنني عثرت على واحدٍ بهذا الود.

قابلتُ ديبرا ووليام على الشاطئ في المساء حيث كانت تعزف فرقة محلية تلك الموسيقى الباسيفيكية، ويتراقص عليها رجل وامرأة بملابس مزركشة أكثر زهوًا من ملابس الراقصين في تاهيتي. عرضَا عليّ أن أرافقهما في رحلة جبلية، رحّبت كثيرًا، ولكنّني طلبت أن تكون بعد الظّهر لأنّني خططت لرحلة صغيرة في الصباح. "أي رحلة؟" سألني وليام، فقلت "درس غطس سريع".. كاد يسأل عن التفاصيل لكنْ ديبرا أسكتته، واقترحت عليّ أن نذهب معهم بعد ثلاثة أيام في رحلة استكشاف الحيتان. "كان بودّي يا ديبرا لكنّ ميزانيتي لم تعدْ تسمح".. ضحكت وقالت إنّ القارب يخصّ أصدقاء لهم، وأنّهم مجموعة كبيرة، ولن يمانعوا في اصطحابي. حاولتُ التملّص فقال ويليام "اسمعي يا بنت، أنتِ في عمر صوفي ابنتنا وتذكّريننا بها، هل تمانعي في إدخال السرور على قلبينا ومرافقتنا؟".. ضحكتُ ولم أجدْ بدًّا من الموافقة، وتركتهما في المساء على وعدٍ باللقاء بعد ظهر اليوم التالي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٢

زياد- ساحل بورابورا- أبريل ٢٠١٩

شعرتُ أنّ لقائي بتلك البشرية لم يكتمل، اغتظت من مسئول الرحلة المرافق لها، وكدت أعلن عنْ ضيقي، لكنّ الحكمة التي اكتسبتها ألهمتني أنْ أنصرف في هدوء. قرّرت أن آتي في اليوم التالي لنفس المكان، لم يكن هناك سببٌ منطقي لعودتي، في الغالب هي امرأة جاءت من الجهة الأخرى من العالم، عربيّة كما ظهر لي من لغتها التي كانت من اللّغات التي تعلمتها. هذه المرأة غالبًا لن تزور نفسَ البقعة مرتين؛ زيارتها قصيرة، وتريد أن ترى فيها الكثير.

لم أتخيّل قبلها أنّني سأشعر بتلك الطمأنينة، والـ... لا أجدُ كلمة تناسب بقية الشعور حقًّا، فأنا وإن كنتُ قد تعلمت تلك اللغات إلّا أن بعض الأشياء في داخلي لا أجدُ لها الكلمة المناسبة، خاصّة ما حدثَ لي عندما التصقت بي البشرية وصارت معي كيانًا واحدًا سابحًا تحت سطح الماء. شعور مريحٌ وجديد وحسب، قد أعرف عنه أكثرَ حين أعود للجزيرة ثانية.

وصلتُ في الصباح، لم أكن أعرف ما الموعد الذي رأيتها به أمس على وجه الدقة، أعرف الآن أنّ البشر يستخدمون الساعات لتقسيم الوقت، لكن ليست لديّ إمكانية رؤية واحدة. ظللت أسبح حولَ المكان، التقطت بفمي سمكتين خلال تلك المدّة قتلًا للملل، مرّ بي بشرٌ آخرون، حيّوني بنفس الصيحات السّاذجة والإشارات المتشنّجة. لم يتفاعل أحدٌ معي كما فعلت إنسانة الأمس، أعتقدُ أنّها الوحيدة التي رأتني مختلفًا بين بني البشر الآخرين.

مضى الوقت وأنا ألفّ وأدور حول نفس البقعة، يقول الناس إنّ الساعات تمضي ببطء في أوقات الترقّب والانتظار، وكانت تلك أوّل مرة لي. كما اكتشفت منذُ لمست الجزيرة أول مرة، لا يوجد شيء يمتع البشر إلّا وله في المقابل شيء ينغّص عليهم. ظهرت الإنسانة أخيرًا، كانت تلك المرة قادمةً على زورق، ومعها رجل آخر، كانت بشرتها قد اصطبغتْ بلون الشمس فبدتْ أغمق من الأمس، كانت مستندة على حافّة الزورق وقد صرفت نظرها للماء في تركيز؛ كانت تبحث عني بلا شك. رأتني فاتّسعت ابتسامتها، وبدتِ الفرحة تتراقص على وجهها، أخذت تحدث لرجل المرافق معها بالإنجليزية، تقول "أقسم لك إنّه هو".. والرجلُ مصرّ على أنّني لست هو، كدت أصرخُ به وأقول "صدّقها أيها الغبي".

عرفتُ اسمها أخيرًا "أروى"، كان الرجل يناقشها وقال لها سيدة أروى، وهو يحاول إقناعها أن تنتظرَ حتى ينزل هو قبلها ويطمئنّ أنّني لا أشكل خطرًا.

تحمّلت نقاشهما في صبر، وحاولت التظاهرَ بأنّني مجرد دولفين عادي يلهو. نزل الرجل أولًا، واقترب منّي، ووضع يده عليّ، واطمأنّ تمامًا، ثمّ سمح لها بالنزول معي والسباحة، وهي تلفّ ذراعها حولي قدر ما تستطيع.

التصقتْ أروى بي أكثر، ثمّ لفّت ذراعيها وساقيها حولي كما فعلت بالأمس، أخذت أسبح بها في دوائرَ حول الزورق، والرجل يحذّرها من عدم النزول معي للعمق وإلّا لن يأتي معها غدًا. حين قالَ ذلك شعرتُ بنشوة تسري داخلي من ذيلي حتّى خطمي، ومن فرط الفرحة قفزت في الهواء وهي ملتصقة بي تصرخُ من الفرحة. قالت بالعربية "أنتَ تجنّن!" سبحت بها في مسارات متعرّجة مقلدًا القروش وهي تضحك سعيدة، والرجل لا يزال يهتف محذّرًا. قالت "اغطس بي" فكّرت أنْ أفعلها، لكنّني لم أطاوعها، كنت أريدُها أن تأتي في اليوم التالي، وكنت أخشى أن يمنعوها من المجيء.

قالت "تريدني أنْ آتي غدًا؟ هل تفهم الإنجليزية أيضًا، هل فهمت تحذيره؟".. كنت أتمنى أن أردّ عليها بلغتها لكنّني اكتفيت بصفير مبتهج، فقالت "لو فهمتني اقفزْ بي الآن".. فقفزت، فقالت "يا الله! مستحيل". كنت في تلك اللحظة أريد أن أقفزَ بها في الهواء، وأدور دورة كاملة، لم أكن أعرفُ كيف أطلب منها أن تتمسّك بي بقوة حتّى لا تسقط، فكرت قليلًا ثمّ قفزت بها قفزتين متتاليتين، وكانت الثانية أعلى. كرّرت الأمر، بدأتْ أروى تفهم أنّني كلّ مرة أقفز قفزتين متتاليتين تكون الثانية أعلى، وبدأتْ تتمسّك بقوة أكثر مع القفزة الثانية كلّ مرة. قلت لنفسي "إنها تتعلّم بسهولة".. بالتدريج زدتُ من قوة القفزة الثانية في كلّ مرة حتى استطعت أن أقفز أخيرًا قفزةً مرتفعة وأنا أدورُ بنفسي في الهواء بقوّة جعلتني أشعر أنّ موجات شعورها بالاستمتاع تنتقل عبر جلدها إلى جلدي فأشعرُ بها أنا أيضًا.

انتهى لقاؤنا وانصرفت وهي تقول إنّها ستأتي غدًا في وقت متأخر قليلًا، وصدقتْ في وعدها، لكنّها جاءت باستعدادات مختلفة. كانت ترتدي بدلة غطس ومعدّات ومعها رجل يرتدي بدلة أخرى، نزلت الماء ووقفتْ جواري، والرجل يقول كلامًا عن علاقة التفاهم الغريبة بين أروى وهذا الدولفين، وأنّه رأى علاقات شبيهة، لكنْ بين مدربين ودلافينهم، لكن ليس شخصًا عابرًا؛ مجرّد سائحة تزور المكان ليومين فقط.

وقفتْ أروى في الماء وهي تخبرني أنّها ستغطس معي، وقالت "كلفتني كثيرًا، لكنّ الوقت معك كالحلم". ضحكَ الرجل الواقف جوارها وهو يسألها عن جدوى الحديث معي، وخاصّة بالعربية فلوْ حتى كان الدولفين مدرّبًا فلا يمكنه أن يفهم إلّا اللغة التي تدرّب بها. لفّت أروى ذراعيْها حولي، وتمسّكت بي بقوة، وطلبت منّي أن أغطس بعدَ أن ثبتت أدوات الغطس.

نزلتُ معها للأعماق، اجتذبت بصفيري مجموعةً من الأسماك الملونة وسلحفاة بحرية ليسبحو حولنا لتستمتعَ أكثر، ثمّ اقتربنا من الحيد البحري وأخذتها في جولةٍ حول الشعاب المرجانية وسكّانها، كلّ هذا وأنا لم أتعمّق أكثر من ثلاثة أمتار حتى لا أثيرَ خوفها أو خوف المدرب المصاحب لها.

شعرتُ بها تشدّني للأعلى، كانت قد اكتفتْ من الأعماق وتريد الصعود للسطح، كان الشعور متبادلًا، نحن هنا في الأعماق نرى الآخرين، الأسماك والشعاب المرجانية والسلحفات البحرية والقروش وأسماك الري وغيرها، لكن حين نقفز فوقَ الماء معًا أشعر أننا نرى بعضنا، أشعرُ بها تبادلني الفرحة والبهجة، وأشياء أخرى لا يسعفني فهمي للغات البشر عن التعبير عنها.

صعدْنا للسطح، أفلتتني وهي تقول "دقيقة واحدة". لم أفهم قصدها من دقيقة واحدة، لكنني رأيتها تصعدُ الزورق وتخلعُ معدات الغطس وتقفزُ في الماء ثانية وتقترب منّي. أمسكت برأسي وتأمّلتني بعيون واسعة، ثمّ ضمّت رأسي على صدرها، انتابتني قشعريرة غريبة، ووجدتني أتمسّح بها بدوري كقطّ أليف قبلَ أن أغطس للماء، وأنا أسحب جسدي للأمام منتظرًا أن تمسك بي لنسبح معًا.

قفزتُ بها في الهواء تلك المرّة كما لو أنها دولفين آخر يشاركني اللهو، قفزت رأسيًّا وأنا أدور حولَ نفسي وهي ملتصقة بي كراقصيْن محترفين على حلبة أمام الناس، لم يكنِ التشبيه جزافيًّا فقدْ تجمّع بعض السياح على دراجاتهم المائية، ووقفوا يشاهدوننا ونحنُ نمارس تلك الرقصة، وبعضهم يتساءل عن تلك المرأة الماهرة في التّعامل مع الدلافين، وبعضهم يطلب منها أن تعطيه الفرصةَ في السباحة معي.

عندما توقفنا عن الرقص، صفّق الواقفون لنا، وهلّلوا بتلك الطريقة البشرية السخيفة لكنني تلك المرّة كنت مستمتعًا بتصفيقهم لنا معًا. أفلتتني أروى، وقالت إنها ستذهب في رحلة بحرية غدًا وتتمنّى أن تراني. كان المرافق لها يبتسم ساخرًا وهو يؤكّد لها للمرة الثانية أنّ الحديث معي بهذه الطريقة غيرُ مفيد، لكنّها لم تهتم. قالت إنّ الرحلة ستزور الحيتان الحدباء، كنت أعرف المكانَ هناك، وقرّرت أن أراها غدًا، وأن أرافقها في السباحة مع الحيتان أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٢٣

أروى- جنوب المحيط الهادي- أبريل ٢٠١٩

وسطَ مياه شاسعة لا نهائية، كان الظلام يبتلع نصفي الأعلى، ويبتلع المحيط نصفي الأسفل، تبقيني سترةُ النجاة طافية بعدَ وقت طويل عجزتُ عن أن أحصيه، لم أعدْ أشعر بأقدامي وكأنها انفصلتْ عني تمامًا. لا أسمع صوتًا غير هدير الأمواج التي تأخذني صعودًا وهبوطًا، وتعطيني أملًا بأنها قد تجرّني نحو شاطئ قريب، أمل يخبو سريعًا كما توهّج سريعًا، فالبرّ يبدو في تلك اللحظة أبعدَ من النجوم المتناثرة في صفحة السماء الخالية من قمر.

أيعقل أن تكون تلك نهايتي، بعدَ ثلاثة أيام من أجمل أيام عمري، كان أجمل ما فيها ذلك الدولفين الرّائع الذي صار كأنّه أقدم أصدقائي في هذه الدنيا بعد دقائق فقط من لقائنا. تكلفت ثروة لأراه في اليومين التاليين، لكنّه كان يستحق، لم أشعرْ بتلك البهجة في حياتي من قبله، بهجة لا ينغّصها تفكير فيما فاتني، ولا ما آمله، فقط أستمتع باللّحظة فقط، أستلبها من كلّ زخم العالم وضجيجِه وخداع أهله، أضمّها في قلبي وأطيرُ بها بعيدًا عن ذكريات سوداء وألم طَويل.

أسميته زياد، ذلك الاسم الذي كنت أخطّط أن أطلقه على طفلي الذي لم يأتِ بعد، كنت أكتب اسمَه على صور الأطفال في كراساتي، وكنت أتحدّث عنه مع كلّ رجل ارتبطت به، تغير الرجالُ في حياتي ولم يتغير اسم ابني المفترض "زياد"، واسم ابنتي المفترضة "لمى". في لقائنا الثاني- الذي تمّ في وجود خبير بالدلافين الذي أكّد لي أنّه دولفين ذكر شاب- سبحنا كثيرًا، قام زياد بتدريبي على التمسّك به بقوّة قبل قفزاته العالية، كنت أشعر به يوجّهني، ويفعل معي كما يفعل مدرّب سباحة مخضرم.

بقية ذلك اليوم قضيته في رحلةٍ جبلية مع الثنائي ويليام وديبرا، واتصلت يومها بأبي وأمّي وعرّفتهما عليهما، كان يعاملانني كابنتهما، وكنت أبادلهما نفس الشعور. في اليوم التالي عدت مع مدرّب غوصٍ لأتمكن من الغوص معَ زياد فترة كافية. كان الجميع مدهوشًا من التقارب بيننا، والتّناغم في الحركات تحتَ الماء وفوقَ الماء، وبلغت دهشتهم ذروتَها في رقصتنا الأخيرة. قبلَ أن أتركه قلت له عنْ رحلتنا لرؤية الحيتان، وكنت متأكدة من أنّه يفهمني رغم سخرية مدرّب الدلافين من أسلوبي.

في المساء، التقيت وليام وديبرا، تناولنا العشاء سويًّا، وأخبراني أننا سنتحرك في الثامنة صباحًا، المسافة بعيدة، سوف نصلُ هناك صباح اليوم التالي، نقضي أغلبَ اليوم هناك ثمّ نتحرك عائدين قبلَ مغيب الشمس لنصل مساءَ

اليوم الثالث. كان اليختُ كبيرًا مجهّزًا بغرف نوم عديدة مؤثثة جيدًا، أعطاني مظهرُ اليخت شعورًا أنّ أصحابه من الأغنياء أصحاب الشركات، قال لي ويليام إنّ صديقهما المقرب يمتلك اليخت، وأنّ تلك الرحلة هي هدية عيد زواجهما الأربعين.

منذُ بدأ اليخت التحرك وأنا أبحثُ عن زياد، أمنّي نفسي برؤيته قبل الرحلة، كانت مسافة طويلة جدًّا، قال قائد اليخت إنّ المكان الذي سنذهب إليه لا يعرفه الكثيرون، الخبراء فقط، وبالتالي لا تقوم رحلات سياحية لهذا المكان؛ فالشركات السياحية عادة تفضّل مناطق الحيتان القريبة من الجزيرة، وقال "الحيتان لا تصل هنا قبل يوليو، نحن سنذهب إليها، كما أنّها في الأماكن البعيدة تكون أهدأ، وتكون السباحة معها أسهل".

أمضيتُ اليوم أستمتعُ معهم بالرحلة والصحبة، وألقي نظرةً كلّ قليل على المحيط الشاسع لعلّني أراه يسبح جوارنا. مرّ قطيع من الدلافين لكنّه لم يكنْ بينهم، عرفت ذلك لأنّ أحدًا منهم لم يحاول الاقترابَ منّا، فقط مضوا في طريقهم يتسابقون بين القفز والغطس.

بعدَ أن مالت الشمس عن منتصف السماء، تلتمع على صفحة الماء الذي كانت أمواجه هادئة تمامًا تعكس صورة الشمس وامتداد شعاعها، ظهرَ زياد من بينها، بزغ فجأة من الصورة المنعكسة لشعاع الشمس على المحيط، فتكسّرت الصورة واعتلاها جسدُه الممشوق المتراقص في الهواء. لم أتمالك نفسي من الفرحة، وأخذت أهلّل لرؤيته بطريقة أدهشتْ ديبرا التي كانت تقفُ جواري. قلت لها "هذا زياد، دولفيني".. علتِ الدّهشة الممزوجة بالسعادة وجهَها، وقالت "لم أكنْ أتخيل أن يتبعك هنا أيضًا، يبدو أنّ كلّ حديثك عنه حقيقي".. انتبهت عندها وسألتها بارتباك "هل أنا أتحدّث عنه كثيرًا؟".. فضحكت قائلة "كأنك طفلة تتحدّث عن قطّها الأليف طوال اليوم".

مضى الطريق وهو يقفزُ حولنا، كنت أتساءل متى يتعب ويملّ مطاردة اليخت، سألت ديبرا فنادت ويليام الذي قال "الدولفين يمكنه السباحة يومًا كاملًا، لا تقلقي سيظلّ خلفنا، ثمّ إننا سنتوقف بعدَ قليل لنستمتع بالسباحة قليلًا قبل الليل".

توقّف اليخت، وأعطونا فرصة للاستمتاع بالماء لمدّة ساعة، قضيت أغلبها بصحبة زياد. أثارت حركاتُنا معًا عاصفةً من الدهشة بين الجميع إلى الحدّ الذي جعل قائد اليخت يقترح عليّ أن يشاركني في إنشاء مكانٍ لتدريب الدلافين كأنّني خبيرة بهم. طلبت ديبرا أن تسبح معه، فطلبت منه ذلك برفق كأنّني أطلب خدمة من صديق، ولم يخيّب ظني، لكنّه سمح لها فقط بالسباحة وهي مُمسكة به دون أن يرقص معها، ويغطس، مثلما نفعل معًا.

حلّ المساء، واختفى زياد في الماء، توقّعت أنه تأخّر عنا، أو أنّه يعوم أسفل الماء ولن يلبث أن يقفزَ ثانية، أو أنه يمنحني فرصة للنوم أنا أيضًا. تناولنا العشاء ونمْنا جميعًا، انتبهت فجأة في حلكِ الليل، كان حلقي جافًّا بشدّة، فتناولت زجاجة ماء وأفرغت بعضها في حلقي، ثمّ حاولت النومَ من جديد، لم أقدرْ أن أغيب في النوم ثانية فخرجتُ نحو سطح اليخت بعد أن ارتديت سترة النّجاة كما تقتضي التعليمات.

وقفتُ أتأمّل المحيط الغارق في الظلمة، وأمواجه التي بدأت ترتفع قليلًا، وترجّ اليخت معها. كنت مستندة على سور اليخت أحاول أن أسبرَ أغوار المياه، غرقت في أفكاري، تذكرت كامل في تلك اللحظة لكنْ بطريقة مختلفة؛ تذكّرت أنه لم يخطر ببالي لمدّة ثلاثة أيام متتالية،استرجع ذكرى خيانته لي، ولم أفكر كالعادة في الصورة المثالية التي رسمها لي، واتّضح أنّها تخفي أسفلها قبحًا لا يوصَف. شفتني الطبيعة الحلوة والخضرة التي تصل قمم الجبال والهواء الدافئ الذي يحمل ريح المحيط وجوز الهند والغابات الاستوائية معًا، وشفاني دولفين رقيق شفيق مرح؛ أسميته زياد.

في غمرةِ تفكّري خيّل إليّ أنني أرى شيئًا يتحرك خلف اليخت، ظننت أن زياد عاود مطاردته، ملتُ بجسدي وأنا أمسك سور اليخت بقوّة، ملت أكثر حين سمعت صوتَ ارتطام شيء بالماء، قلت "لا بدّ أنه هو، يقفز خلفنا ليدركنا بنفس السرعة". لم أدركْ ما حدث بعد ذلك فقد وجدتني أطيرُ في الهواء وأرتطمُ بالماء في عنفٍ سبّب لي آلامًا مبرحة، وكاد يفقدني الوعي.

صرختُ بأعلى صوتي طالبة النجدة، ومترجّية قائد اليخت للعودة، لكن بدون جدوى، صرخت منادية باسم زياد؛ كان نداءً يائسًا مبعثه أنّ الدلافين مشهورة بإنقاذ مَن على وشك الغرق. كان الماء باردًا، حاولت أن أتغلّب على برودتي بحركات يائسة، لكن سرعان ما أدركني التعب فتوقّفت، وتركت نفسي أطفو بفعل سترةِ النجاة. في الدقائق الأولى كنت أظنّ أنهم سيكتشفون سقوطي سريعًا، ويعودون لنجدتي، لكنّ الوقت مرّ دون أن يبدو في الأفق أيّ يخت أو قطعة خشب حتى.

ناديتُ على زياد مرّة ثانية وثالثة، لكنّه لم يجبني، وبدَا واضحًا لي أنني كنت أتخيل أنه يطارد اليخت، وأنّه لم يكن موجودًا بالقرب منّا أصلًا، واكتشفت أنني سقطت بسبب غبائي وسذاجتي، وعليّ أن أقبل بما يحدث لاحقًا. بكيت من الخوف، دعوت الله، أقسمت أني سوف أكفّ عن التذمّر بشأن حياتي، وأنْ أشكره على النّعم التي لم أقدرها من قبل. حاولت أن أتذكر كلّ الأدعية التي أعرفها، والتي سمعتها، وأن أتوب عن كلّ ذنبٍ وخطيئة فعلتها، أو فكرت في فعلها.

“يا ربّ لم أؤذ أحدًا من قبل؛ فخذْ بيدي”.. قلت مبتهلة لكنّني تذكرت أنني في بعض الأحيان اتّخذت قرارات قاسية في حقّ بعض الموظفين اقتضتْها طبيعة عملي وسياسة الشركة التي تجعلني في كثيرٍ من الأحيان مخلبَ قطّ في وجه أيّ موظف يُبدي تكاسلًا ولو بسيطًا. “يا ربّ أقسمُ لو عدت فسأتغيّر، وسأكون عونًا لهم لا عليهم، سأبذل كلّ جهدي لأرفع عنهم أي ظلم أو سأستقيل، وأعيش مع أبويّ حتّى أتزوج أو أكتفي بحياتي معهما”.

كان البردُ يتسلّل من جلدي إلى عظامي، إلى أحشائي إلى عقلي، يجعلني أرتعد ولا أستطيع الحديث أو التفكير. بكيتُ ثانية، قلت “يا ربّ...” التقطت أنفاسي المرتعشة، وأكملت “أنت ال.. المنجي، وأنت الر...ح..يم”.. صمت وأسناني تصطك، شعرت أنها النهاية وتألمت أنها جاءتْ على هذا النحو، موت بطيء موجع، بردٌ يزحف عليّ، ويخنقني رويدًا رويدًا، بدأت الرّؤى تغيب، وبدأت أشعر أنّ روحي تنسحب خارج جسدي بهدوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٤

زياد- موتو موايا- أبريل ٢٠١٩

لم أعدْ مهتمًّا كثيرًا بفكرة أنْ تكون أروى هي المرأة التي ينبغي أن أذهب معها للجزيرة ليكتمل تحوّلي لإنسان على أيّ يابسة. كنت سعيدًا بها فقط، الوقت معها كان أجمل من أن يوضع له اعتبارات أخرى، أو أفكّر في امتيازات أجْنيها من خلفه، فوجودُها وحده امتيازٌ كاف. لو كان هذا هو تعريف الحبّ عند البشر فأنا أحبّها بهذه الطريقة.

الصباحُ الذي كانت تنوي الذهابَ فيه نحو منطقة الحيتان كان موعدَ ذهابي للجزيرة لكنني قرّرت أن أؤجل ذهابي يومًا، لن يضير الجزيرة شيء أنْ أتأخر عليها، في المقابل سوف أشعر بضيقٍ شديد لو فوّتُّ يومًا مع أروى، فأيّامها الباقية هنا معدودة، وبعدها ستذهب إلى حيث لا يمكنني أن أجدها ثانية.

أخذتُ أسبح في الطريق نحو المنطقة التي توجد فيها الحيتان الحدباء في هذا الوقت من العام، المكان بعيدٌ يستغرق أكثرَ من يوم، قرّرت أن أسبقهم ثمّ أستريح في الطريق حتى نتقابل، كان قرارًا غبيًّا، قد تهتُ عن القارب الذي تركبه، أخذت وقتًا طويلًا في البحث، وأجهدني ذلك كثيرًا، كنت أستخدمُ موجاتي الصوتية لتحديد القوارب التي تكون بالحجم المناسب لرحلة كتلك. من حُسن حظّي أنّ القليل جدًّا من القوارب كانت في تلك المنطقة، بحثت حتى استطعت الوصول لقاربها أخيرًا، وبعد إجهاد.

هذه المرّة هلّلتْ أروى عندما رأتني، وكادت تقفزُ من فوق القارب، أعرف أنّ البشر يظنون أن كلّ الدلافين بنفس الملامح، وكنت أخشى أنْ لا تعرفني بسهولة، لكنّها فعلتها، وأدركت أن ذلك الدولفين القادم نحوها هو أنا، أو زياد كما كانت تسميني وهو الاسم الذي أعجبني وقررت الاحتفاظ به، رغم أنّني كنت لا أزال بعيدًا عنها. قفزت عدّة مرات متتالية لأقتربَ أكثر وأنا أتأملها في كلّ قفزة، كنت أشعر أنّها (جميلة) كما يقول البشر، لم أكن أعرف من مقاييس الجمال عندهم إلّا معلومات نظرية بثّتها الجزيرة في عقلي، ولا أعلم حقًّا أهمية ذلك المفهوم، ما الفارق أن يكون الإنسان (جميلًا) بتلك المقاييس أو (غير جميل)؟ هل يشعر الرجل بالسّعادة مع المرأة إنْ كانت جميلة، والعكس؟ هل ذلك الجمال يدلّ على نوع من التميز لأصحابه عنْ فاقديه؟ لم أشعرْ بالسعادة في صحبة أروى لأنّ أنفها دقيق، وعيونها واسعة، وقوامها أهيف، وإنّما شعرت بالسعادة لأنني أحسست بوجودها الآخر، بالحضور الكامن خلف تلك الملامح، والذي لم يكنْ ليختلف لو أنّ أنفها كان أغلظ قليلًا.

كلّ هذا لا يهمّ، فهي ستذهب على أيّة حال، لكنّها ستترك في داخلي علامة، وذكرى عذبة كعذوبة ضحكتها. توقّف القارب ونزلت نحوي أوّل ما نزلت كالطفل يقفز نحو أبويه، قضيت معها وقتًا ممتعًا جديدًا، أضفته إلى رصيد ذاكرتي من لحظات سحرها الطاغي، حتى حين طلبت منّي أن أسبح مع رفيقتها العجوز، كانت تلك لحظة لا تنسى بسبب عيونها اللتيْن لم تكفّا عنْ متابعتي والنظر إليّ بكلّ ذلك الحبور.

جاء المساء، غيّبها القارب في داخله، غلبني النعاس، ورأيت أنّ من الأفضل أن أستغرق في النوم وأترك التيار يأخذني وراءَ قاربها حتى تطلع الشمس فأسرع السباحة في إثرهم. كنت نائمًا بنصف مخّي الأيمن حين وصلتْ لسمعي أصوات خافتة تأتي من بعيد تقول "زياد". انتبه عقلي كاملًا، الصوت بعيد جدًّا، صرخات تستنجد، ميّزت فيها صرخات أروى رغم خفوته، تساءلت خائفًا عن ما حدث لها، وأنا أنطلق في اتّجاه الصوت الذي توقف فأربكني.

كنتُ أبحث عنها، ورأسي غير متّزن من قلة النوم، ومن قلقي عليها، أيعقل أن تكون قد سقطت من القارب؟ تردّد السؤال داخلي وأنا أفتش عنها بموجاتي الصوتية بدون جدوى، قررت الذهاب في الاتجاه الذي كان قاربُها يمشي فيه، وأرسلت موجاتي الصوتية تباعًا، أمضيت وقتًا طويلًا أشعر بالهلع وأنا أبحث بدون جدوى، إلى أن طرق مسامعي صوتها ثانية، كانت تصرخ قائلة "يا ربّ".. استطعت تحديدَ الاتجاه الذي جاء منه الصوت، أرسلت موجاتي الصوتية ناحيته واستطعت تحديد مكانها أخيرًا.

سبحتُ كأنّني أهرب من قطيع أوركا كامل، قفزات متتالية في الهواء، وضربات بذيلي في الماء حتّى وصلت إليها. كانت صامتة، نائمة أو مغمى عليها.. لا أدري، هززتها لم تستجب، كان صوتُ قلبها خفيضًا بطيئًا، شعرت أنّ حياتها في خطر، وأنّ عليّ التصرف سريعا، لا بدّ أن أخرجها من الماء لأنني أعلم أنّ السبب الرئيسي لموت البشر في المحيط هو انخفاض حرارة أجسادهم، أقربُ جزيرة تبعدُ ساعة عن هنا، ولا بدّ أن أبدأ حالًا.

أمسكتُ سترة نجاتها بفمي، ودفعتها أمامي وسبحت بأقصى ما أستطيع في وضع صعب كهذا، الموجُ كان يعاندني لكنّني لم أيأس. خطرتْ ببالي فكرة، إنّ أروى الآن كانت في خطر شديد، وأنا أحاول إنقاذها، وقد أكون أحبّها فعلًا بمفهوم البشر، إذًا تحقّقت أجزاء من الشروط المطلوبة في المرأة التي ستهبني القدرة النادرة على التحول بشريًّا في أي يابسة.

كنتُ في طريقي نحو أقرب جزيرة، أتّجه شمالًا، وعقلي يفكر في هذا الاحتمال، أن أتّجه جنوبًا نحوَ جزيرتي المسحورة حتى أصادف الدوامة التي ستأخذنا معا إليها، سأحقق الشرط وأقضي معها وقتًا أطول. المشكلة أنّني لو

فعلت ذلك فسوف أخاطر بحياتها، إن نبضها يخفت مع الوقت ولنْ تتحمل رحلة طويلة في الماء، لن أضعَها في مخاطرة كتلك، لن أضحي بحياتها من أجل حلمٍ طائش قد يتحقّق، وقد لا يتحقق.

حتّى لو لم تكن حياتها في خطر، وحتى إن انطبقت الشروط جميعها عليها، مَن أنا لأقرّر حياتها وآخذها رغمًا عنها لمكانٍ غريب عن كلّ البشر، يا لتلك الجزيرة التي وضعت شرطًا يستحيل تحقيقه، أن أنقذَ بشرية من الموت وأنْ أحبّها، كيف أعرف أنّني أحبّها، وكيف أكون محبًّا لإنسانة وأخاطر بحياتها من أجل غاية تخصّني أنا فقط، وليس لها فيها ناقة أو جمل!

"اخرسْ يا زياد، وأنقذ أروى، وابحثْ عن تحقيق الشروط بعيدًا عنها، أو كفّ عن تلك الأحلام السخيفة" قلتُ لنفسي حاسمًا ذلك التردد، وقاطعًا ذلك الخاطر الشرير الذي طاف بذهني. استمرّيت في طريقي، سمعتها مرة تئنّ وتقول "زياد" تناديني وهي على شفيرِ الهلاك وأنا أفكر بكلّ أنانية أن أخاطر بحياتها. دفعني صوتها إلى المضيّ قدمًا، والسباحة بقوة، استنفرت كلّ إمكانياتي، وكلّ ما تبقّى في جسدي من قوّة، وأنا أدفعها نحو برّ آمن ينقذها فيه أحدهم أو على الأقلّ أخرجها من الماء كي تستعيد حرارة جسدها.

زادت حدّةُ الأمواج، وصارت تضربني بعنف وأنا ماضٍ في طريقي، هبّت رياح من الغرب والشّرق في نفس الوقت، دارَ بنا إعصارٌ مفاجئ لا مكانَ له هنا، ابتلعتنا دوامة مائية كبيرة وأخذتُ أدور فيها وأنا أمسكُ بأروى بصعوبة. أضغط فكيّ بكلّ قوة على سترتها كي لا تضيع منّي في تلك الدوامة، ثمّ فجأة قذفتنا الدوامةُ خارجها، ووجدت نفسي أمام شاطئ جزيرة موتو موايا المسحورة.

لم أفكّر كثيرًا في سببِ ذلك الحادث العجيب، أردتُ أن أنقذها فقط، خرجت على الشاطئ في هيئتي البشرية، وقمتُ بجرّها حتى ابتعدنا عن الشاطئ مسافة كافية. دخلت بين الأشجار وأحضرت بعض الجذوع الجافة وعدتُ إليها سريعًا، ثمّ أشعلت نارًا بالقرب منها. لم تكن نارًا كافية، جسد أروى كان باردًا للغاية، تركتها وذهبت أحضر حطبًا إضافيًّا، جمعت كمية قليلة وعدتُ بها، أشعلتها ثمّ ذهبتُ أحضر غيرها حتّى استطعت في النهاية أن أشعل نارًا كافية لتدفئتها.

انهرتُ جوارها، وغرقت في النوم أنا أيضًا، رأيت العجائز في نومي، كن في كهفهن والليل يلفّ المكان، وثمّة نار بسيطة تضيء مدخل الكهف. سألتهن "لماذا أخذتنا الجزيرة، كنت أريد أن أصل بها إلى برٍّ أنقذها".. فقالت العجوز "لأنّك فضلتها على نفسك يا زياد، وهذا أبلغ دليلٍ على الحب".. فقلت "أنتم تفسّرون الأمر بشكل خاطئ، كلّ ما أردته أن أفعل الصواب في حقها، ثمّ بفرض أنّني أحبّها، ماذا بعد، لا يزال هناك شروط أخرى، مَن أخبر الجزيرة أن

أروى تحبّني، وهل علمتم أنّها امرأة تعاني من الحزن والألم؟!".. فقالت العجوز "لم نعرف بعد، مهمّتك أن تكتشف بنفسك إنْ كانت بقية الشروط تنطبق عليها أم لا، سنبقيها معك في الجزيرة أسبوعًا".. صحتُ في غضب "كلّا، أريد أن أعيدها إلى حيث تنتمي، لا أريدها أن تعاني من أجلي".. قهقهت العجوز ساخرة وقالت "أنتَ تتمنّى في داخلك أن تستبقيها ذلك الأسبوع وأنت أيضًا لا تعلم المكانَ الذي تنتمي إليه هذه المرأة، هي ولدتْ وعاشت بعيدًا، لكن هناك الكثير من البشر يعيشون حيث لا ينتمون، ماذا لو كانت تلك الإنسانة تنتمي إليك أنت؟!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٥

أروى- موتو موايا- مايو ٢٠١٩

فتحت عيني بصعوبة وأنا أداريها بكفّي من أشعة الشمس، مرتبكة الأفكار، مشوشة الحواس، كنتُ أحاول تذكّر ما حدث لي. آخرُ ما بقي في ذهني أنني كنت أرتجفُ من البرد وأفقد الوعي، ثمّ شعرت بقوّة ترجني، وسمعت صوتَ صفير دولفين، كان زياد بالتأكيد، أذكر أنني غفوت وانتبهتُ عدّة مرات، آخرها حين شعرت أنّنا ندور في إعصار أو دوامة، وشعرت أنني لا أستطيعُ حتى أنْ أصاب بالفزع من فرط فقداني لإرادتي.

نظرتُ حولي، ثمّة رماد كثير، وأخشاب محترقة تحيطُ بي، والمحيط هادئ الأمواج يداعب الشّاطئ ذا الرمال السوداء. انتبهت واستيقظتْ حواسي حين وجدت رجلًا مرميًّا بالقرب مني، كان نائمًا أو فاقدَ الوعي لم أدْرِ. اقتربت منه، كان أسمر البشرة، ملامحه تشبه ملامح السكان الأصليّين، عريض الوجنتين، ضيّق العينين، ناعم الشعر، مفتول العضلات، يرتدي بزة رمادية جلدية تلتصق بجسده، قصيرة الأكمام تكشف ساعديه، بينما تغطي ساقيه حتى منتصف ربلتهما.

انتبه مرّة واحدة، بدَا عليه الفزع حين رآني، وهتف "أروى، متى استيقظت؟" أصبت بالذهول والخوفِ حين نطق بالعربية، سألته "أنت مين، وتعرفني إزاي؟".. اعتدل في جلسته مرتبكًا كأنّني سألته عن سرّ حربي، ثمّ قال متلعثمًا "أنا صياد أعيش مع أهلي في جزيرة مایاو، وقد تكسّر قاربي في العاصفة التي جاءت بك هنا".. نظرت إليه رافعة حاجبي الأيسر المتسائل منتظرةً أن يكمل إجابته، فقال "وصلت الجزيرة هنا قبلَ طلوع الفجر بقليل، ثمّ رأيت دولفينًا يقذفك على الشاطئ، سحبتك سريعًا، وأشعلت نارًا لتدفئتك؛ فقد كنت تعانين من انخفاض شديد في درجة حرارتك".

زياد أنقذ حياتي فعلًا، لم أكن أتوهّم، لكن هذا الرجل الواقف أمامي- يدافع عن نفسه أمام أسئلتي الاتهامية- أكملَ المهمّة، وأنقذني هو الآخر. شعرتُ بالإحراج أمامه؛ فهو له جميل في عنقي، لكنّ فضولي تغلب على شعوري بالعرفان، فسألته ثانية "إزّاي عرفت اسمي، وازّاي بتتكلم عربي؟!".. فقال "أنت قلت اسمك حينَ كنت تهذين، أمّا تحدثي بالعربية فله قصة طويلة".. كان حديثُه بالفصحى مثيرًا للتعجب أكثرَ ممّا لو كان يتكلم بأيّ لهجة من لهجات العربية.

انتبهتُ ساعتها أنني لم أسأل الأسئلة المهمّة، وهي أين أنا وكيف سأعود إلى بورا بورا، سألت الشابّ الغريب فقال "نحن في جزيرة غير مأهولة، هناك

الكثير منها في المحيط، وأملنا الوحيد أن يمرّ بنا قارب صيد أو يختٌ سياحي".. اتّسعت عيني في استنكار، وقلت "وافرض مفيش مراكب مرّت؟!".. فمطّ شفتيه وقال "لن ننتظر طبعًا، سأبدأ بصنع طوف صغير ينقلنا إلى أقرب جزيرة مأهولة، أنا خبيرٌ بالمنطقة، لا تخافي".. لم يعجبني اقتراحه، وتمتمت قائلة إنني سأنتظر زياد الدولفين الذي أنقذني ليأخذني مِن هنا، فاستنكر اقتراحي وقال "هذا جنون بالطبع، لا يمكن لدولفين أن يسافرَ بك في الماء".. فقلت له بالفصحى مقلّدة طريقته "إنّه أذكى من البشر، وبيننا رابطٌ مختلف لا يمكن أن تفهمه".

هزّ كتفيه لا مباليًا، ثمّ قال لي "ألا تشعرين بالجوع؟" لم يعجبني سؤاله، أي جوع وأي طعام أفكّر فيه الآن، وأنا على جزيرة مهجورة بصحبة رجلٍ غريب لا يعرف كيف يعيدني، ترى هل يبحثونَ عني الآن، وماذا سيحدث لأبويَّ عندما لا تصلهم رسالة مني، هل ستعثر ديبرا على هاتفي، وتتّصل بهما وتخبرهما أنّني سقطت في المحيط، قد يحدث لهما شيء من الخوف على مصيري وأنا على بُعد عشرات الآلاف من الكيلومترات، ولا بدّ أنّ أبي سيقطع تذكرة طيران تكلّفه ثروة ليأتي للبحث عني. بحثٌ لن يفيد سواء عدت أو اختفيت، لكنها عاطفة الأبوة التي جعلته يتحسّس طريقي منذ طفولتي ينشد لي الأمان أينما ذهبت.

"اسمك إيه، أو.. ما اسمك، هل تفضّل ذلك؟".. ابتسم بأدب، وقال "نعم الفصحى أيسر عليّ في الفهْم من المصرية".. فقلت "ماذا تقترح علينا للأكل إذا؟".. فاقترح أن نمضي بين الأشجار نقطفُ بعض الثمار الصّالحة للأكل في هذا المكان. "هل تعرف المكان هنا؟".. سألته فهزّ رأسه نافيًا بقوة كأنّه يدفع عن نفسه اتهامًا، فقلت "إذًا سوف.. نمشي نخبط في هذا المكان"، وضحكت وأنا أسير جواره.

رأى شجرة قصيرة طولها لا يزيد عن المترين، أوراقها عريضة تصل إلى الأرض، جمع منها عدّة ثمرات، الواحدة في حجم تفاحة كبيرة، لونها أخضر مصفر، وسطحها محبّب، قال إن اسمها فاكهة الخبز، وقسم واحدة منها نصفين وأعطاها لي. ذقتُ طعمها بتشكك، كانت قريبة الطّعم من البطاطا، أكلت واحدة ونحنُ نكمل سعينا بين الأشجار، وأنا أدعو أن نجد شيئًا أفضل. لحُسن الحظ كان في الجزيرة أشجارُ أناناس وموز وبابايا، وفاكهة أخرى اسمها نوني في حجم البطاطس، طعمها به شيء من المرارة، لكنّه قال إنها مفيدة جدًّا، ربما أكثر من البقية وأنني لا بدّ أن آكل منها ثمرة يوميًّا على الأقلّ طالما بقينا على تلك الجزيرة. أثناء بحثنا عن الثمار ملأ الرجل قربةَ ماء كانت معه من أحد الجداول وشربنا منها ثمّ ملأها ثانية لنعود بها.

أخذ يقصّ عليّ- ونحن عائدين- حكايةَ تعلمه اللغة العربية بعدما ألحيت عليه، قال إن أباه كان يعمل في السعودية سائقًا وهو في طفولته، وأنه درس العربية هناك، وأحبّها، واستمرّ في تعلمها بعدما عاد. "وما الذي يجعل أباك يذهب إلى السعودية، أنتم تعتبرون فرنسيّين!".. أومأ موافقًا لكنّه قال إن رجلًا سعوديًّا جاء هنا، وكان أبوه قد أخذه في رحلة صيد، وأعجب الرجل بعمله فطلبَ منه أن يعمل معه في شركة صيد يمتلكها هناك.

كانت قصّة غريبة بها الكثير من الثغرات، لكنّني صدقتها على أية حال، جلسنا على الشاطئ، نزلت للماء قليلًا وبقي هو بعيدًا عنها. كنت أتمنى أن يأتي زياد في تلك، اللحظة بصفيره الذي يشبه الموسيقى ورقصاته الرشيقة، يلفّ بجسده حولي ثمّ يأخذني إلى بورا بورا. ناديت بصوت مرتفع "زياد، زياد" لكن لم أتلقّ إجابة. ناداني الشابّ الغريب متسائلًا "هل تظنين أنه سيسمعك، ثمّ ما اسم زياد هذا!".. فقلت له "أنا سمّيته زياد"، وأكدت له أنّني واثقة من أنه سيعود لي.

عدتُ إلى الشاطئ بعد أن يئست من استجابة زياد لندائي، بقينا على الرمال وقتًا طويلًا كنت أشعرُ فيه بالملل، أخذت أبني قلعةً بالرمال لتمضية الوقت، جاء الغريب واستأذن أن يساعدني في بنائها، فلم أمانع، ثمّ سألته عن اسمه الذي تجاهلت محاولة معرفته فقال "ماوري" فقلت "تشرّفنا يا ماوري". بدأ يحاول إكمالَ سور القلعة الخارجي الذي كنت نسيت بنائه في البداية. استأذنني وتوجّه ناحية الأشجار ثمّ عاد بمجموعة من الأغصان الجافة وبدأ يكسرها ويقيم بها نقاطًا تسند الرمال، وتعطي شكلًا إضافيًّا للبناء، لم أره مع أحد من قبل. كنت أذهب لأحضر الماء لعجن الرمال وهو يحضر المزيدَ من الأغصان حتى مرّ منتصف اليوم ولم أشعر بالوقت.

في تلك الأثناء كانت عيوننا على المحيط نترقّب أيّ أثر لسفينة، وأترقب وحدي أيّ أثر لزياد. كان داخلي إحساس غريب بالطمأنينة أنّني بمأمن، وأنني سأعود خلال وقت قصير عن طريق سفينة إنقاذ، أو بحث، فنحن لم نعدْ في ذلك العالم الذي يختفي فيه إنسان على جزيرة غير مأهولة. كنت أيضًا على ثقة من حبّ ويليام وديبرا لي، وأنهما يعتبران أنني كابنتهما، ولا بدّ أنّهما يفتشان عني الآن، وحتى إذا لم يجدنا أحدٌ فيبدو لي أن "ماوري" هذا خبير بالمحيط وسيستطيع أن ينقذنا. كنت قبل ركوبي الطائرة الأولى في تلك الرحلة قد قررت أن أتخلى عن كلّ المخاوف والأفكار، وأن أستمتع بكلّ لحظة. لهذا بعد أن أمضيت ساعتي الأولى على تلك الجزيرة في خوف وترقب، قرّرت أن أترك كلّ شيء للظروف، وأن أستمتع بالوقت هنا.

بعدَ انتصاف النهار قال "ما رأيك سأصيد لك أرنبًا ونشويه".. فقلت "ابن حلال فكرة عظيمة" واقترحت عليه أن نشوي أيضًا بعضًا من ثمرة الخبز تلك لنأكلها

مع اللحم، فقد كنت واثقة أنها ستكون كالبطاطا المشوية. “أشعلْ لي النار قبلَ أن تذهب” قلت له، فوافق متحمسًا، ثمّ ذهبنا معًا وأحضرنا الكثير من الأغصان الجافة، وأشعل لي النيران فيها، ثمّ اختفى بين الأغصان. بعد دقائق من اختفائه سمعت صوتَ الصفير المحبب يأتي من ناحية الماء، نظرت هناك مبتهجة فرأيتُ زياد يقفز في الماء، ويكرّر صفيره كأنّه يدعوني لنزول الماء لأشاركه رقصة سريعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٦

زياد- موتو موايا- مايو ٢٠١٩

تركتُ أروى بعد أن أشعلت لها النار، وعدوت بين الأشجار متوجّهًا للشاطئ الصخري لأقفز منه في المحيط، لأعود لها في صورتي الأصلية التي كانت تتمنى رؤيتها. شيء عجيب إحساسي المختلف عندما تعاملت معها وأنا بشري، كانت عيناي تبصران أشياء أخرى لم أدركها وأنا دولفين، لمسة يدي ليدِها شعت دفئًا يفوق ما شعرت به حين كانت تلتصق بي وأنا دولفين، إحساسٌ جعلني أتساءل عن ما يمكن أن يعتريني لو تلامس جسدانا معًا.

خفتُ أن أصارحها بحقيقتي، لم أعرف سببًا لذلك، ربما خفت عليها من صدمة ومفاجأة يصعب استيعابها، ربما خفت أن تتغيّر عاطفتها- التي لم أصنفها بعد- نحوي، وتتعامل معي على أنني سحرٌ أسود، أو مسّ شيطاني، أو أي خرافة بشرية من هذا النوع. فضلت أن تعرفني كبشري أيضًا فإنْ أحبتني كشفت لها عن نفسي وإلّا ساعدتها على العودة دون أن تعلم مَن أنا، ويكفيني أنّني عرفت إنسانة اقتربت من روحي الحقيقية بهذا الشكل.

عدتُ دولفينًا وذهبت إليها عند الشاطئ، رأيت الفرحة في عينيها، نفس الفرحة التي صرت أراها كلما أبصرتني لكنّها تلك المرّة كان يزيد عليها شيء آخر لم أعرف كنهه. نزلت للماء وسبحت حتى وصلت لي، لم أخاطرْ بالاقتراب من الشاطئ حتى لا يجرفني للجزيرة ويتحول نصفي العلوي ويبقى نصفي السفلي فتصاب بفزع لا يمكن علاجه.

أمضيتُ معها بضع ساعة نمارس رقصتنا المائية التي صرنا متمرسين فيها أكثر من أي راقصين يتدربان معًا منذ عقود، نعلو ونهبط، نغطس ونقفز ونلفّ في الهواء. كانت تطلع نحو الشاطئ كلّ فترة لتطمئن أنّ ماوري (صورتي البشرية) قد عاد بالأرنب. قالت ونحن نستريح في الماء بعدَ وصلة الرقص الطويلة "نفسي آكل سمك وماوري ده شكله ما بيعرفش يصطاد". كانت تستخدم لهجةَ بلدها حين تحدثني كدولفين، وتتحدث الفصحى حين تخاطبني كبشري، وهو أمرٌ مستغرب، ولا أفهم لماذا افترضت أنّ الدولفين سيفهم لهجتها أكثر من بشري يتحدث الفصحى. ربما لأنّها تشعر أنني وأنا دولفين أفهمها بغضّ النظر عن طريقة نطقها للكلمات أو حتى بغضّ النظر عن الكلمات.

تركتها وذهبتُ نحو الجزء العامر بالأسماك، وعدتُ وفي فكّي سمكة. أمسكتها بيديها وخرجت للشاطئ ووضعتها جوارَ مجلسها، وحينما عادت كنت قد جلبت لها سمكة أخرى، وهكذا حتى جلبت لها ستّ سمكات. حينما عادت في المرة

الأخيرة بعد أن وضعت سمكتها مسحت رأسي في يديها، واستدرت كأنّني أودعها مؤقتًا، ثمّ غطست في الماء وأنا أسمعها تقول "ما تتأخرش بكره".. كان من الواضح أنها اكتفت بهذا القدر لزياد، وأنّها اقتنعت باستحالة أو خطورة أن يأخذها دولفين من هذه الجزيرة، ويسافر بها في المحيط مئات الأميال لجزيرة أخرى.

كان دخول الجزيرة من الشاطئ الصخري أصعبَ كثيرًا، اضطررت للقفز في الماء وأنا أعتلي موجة كانت في طريقها للاصطدام به، فطرت في الهواء مسافة لا بأس بها قبل أن أقع على الصّخور وأعود بشريًّا أشعر بكدمات وآلام من ارتطام جسدي بها. قررت أن أبحث عن أرنب لأصيده لأروى كي لا أثير فضولها، فلا يعقل أن أختفي كلّ هذا الوقت وأعود خالي الوفاض.

بحثتُ بين الأشجار بدون جدوى، لم أذهب ناحية الجبل أو الجدول رغم أن فرصة إيجاد أرنب هناك أفضل، لكنني كنت أشعر برغبة شديدة في العودة لأروى. أخذت طريق العودة والتقطت بعضَ الثمار من عدة أشجار. وصلت عندها وتصنّعت الدهشة حين رأيتها تشوي السمك وأنا أسألها من أين أتت به، فقالت "زياد كان هنا".. سألتها "زياد! الدولفين! وأين ذهب؟".. فقالت "جاء لعبَ معي قليلًا، وأحضر لي الأسماك لمجرّد أنني أخبرته برغبتي".. قالتها وهي مزهوة ثمّ سكتتْ وشردت لثانيتين قبل أن تقول "لا أذكر أنّ أحدًا اهتمّ بما أريد لهذه الدرجة من قبل".. ارتبكت كأنّها قالت كلامًا لا يجب أن تقوله، ثمّ انصرفت نحو السمك وهي تقول مازحة "يبدو أنّك صياد فاشل".. فقلت "وجدت أرنبًا واحدًا، لكنه هرب مني فقررت أن آتيك بهذه الثمار".. ضحكت وقالت "يقولون عندنا يا ما جاب الغراب لأمّه"، ثمّ أكملت ضحكتها.

تذوّقت أول سمكة لتتأكّد من تمام نضجها، مضغتها سريعًا وهي تقطب ملامحها في تركيز ثمّ أشارت بالموافقة، ودَعتني للجلوس لنبدأ الأكل. أخذنا نغمس قطع السمك بثمار فاكهة الخبز التي قامت بشيّها، ثمّ قالت "هذه الوجبة ينقصها بعض الملح".. ثمّ قالت كأنها تذكرت شيئًا "يمكنك أن تحضرَ لنا صخرة مجوفة نضع فيها ماء المحيط ونغليه حتى يتبخر الماء ويترك الملح في القاع".. فقلت لها "بسيطة، سأحضرها بعد أن ننتهي". أنهت سمكتين، ثمّ قامت وتوجهت نحو المحيط، غسلت يديها بعناية ثمّ جلست، قمت بدوري بعد أن مسحت يدي في الرمل وورق شجر وتركتها داخلًا نحو الغابة، سألتني "ألن تغسلَ يديك؟".. فقلت "سأغسلها في الجدول، وأحضر ماء، وأبحث لك عن صخرة مجوفة".

لم أنتظر ردّها وانطلقت سريعًا، خطر ببالي أنْ أذهب نحو كهف العجائز، وأسألهم أن يعيروني إناءً حجريًّا. وصلت إليهم، استقبلنني بترحيبٍ غير معتا،د وقالت وسطاهن "هناك إناءان على الأرض خلف الجذع، خذهما، وخذْ تلك

القربة معك”.. أصبت بالدهشة وكدت أسأل كيف عرفت، لكنّها قالت “الجزيرة تخبرنا بكلّ شيء، وأخبرتنا أيضًا أن أروى لا تنطبق عليها الشروط”.. تسمّرت في مكاني وقلت في ضيق وأنا آخذ شهيقًا طويلًا “ماذا؟ كيف عرفت الجزيرة ذلك؟”.. فقالت العجوز بحزم “الجزيرة تعرف كلّ شيء عن كلّ مَن يضع قدمه عليها”.. فقلت غاضبًا “إذًا، لماذا جاءت بها هنا، لقد كنت أريد إعادتها لجزيرة قريبة وموتو موايا هي مَن قررت أخذها”.

أخبرتني أنّ المرأة لم تمرّ بذلك الحزن العارم الذي تشترطه الجزيرة، لم تدخل في تجربة قاسية بما يكفي، كلّ ما في الأمر أنها أحبّت رجلًا وخانها ذلك الرجل، فقلت مدهوشًا “أليس الحبّ شيئًا هامًّا عند البشر، وفقدانه سببٌ من أسباب الحزن العارم؟”.. فقالت “هي لم تصلْ في حبه إلى تلك الدرجة، أحبّته ووثقت به لكنّ التجربة لم تتغلغل في روحها، لم تنتزع جزءًا من قلبها وترمي به في الجحيم، أروى فقدتْ حبًّا لم يستهلك من حياتها أكثر من عام، ولم يجبرها على تضحية لا يمكن التراجع عنها، ستحتاج أن تبحثَ عن غيرها يا زياد”.. قلت مدهوشًا “زياد؟”.. فقالت “نعم، أليس هذا هو الاسم الذي أطلقته عليك أروى! ووافق هوى في نفسك، أنت أحببت الاسم ولذلك قررت الجزيرة إعطاءك إياه كما أحببت”.

تجاهلت موضوعَ الاسم هذا، وعدت إلى موضوع الحزن الذي يشترطونه، كنت أريد أعارضهم وأطلبُ من الجزيرة أن تستثني ذلك الشرط المجحف، إنّها حزينة وهذا يكفي، ليس من الضّروري أن يتمزّق كيانها من الحزن كي تليق بي. أخذت الآنية الفخارية وقفلت عائدًا، مطأطئ الرأس، لا ألوي على شيء، لقد بدأت أشعرُ بحبّها، أشعر أنّها جزء منّي، وأشعر أنها تحبّ زياد الدولفين، وتتقبّل ماوري الإنسان، وسرعان ما تحبني بصورتيّ المختلفتين، فالبشر يحبّون سريعًا، ثمّ يتطور الأمر معهم، ويجعلون الحبّ جزءًا هامًّا من حياتهم ويربطون سعادتهم به، وهذا سيجعلها تشعرُ بالفرحة حين تعلم أنّني واحد في صورتين؛ روح واحدة تتجسد أمامها بطرق مختلفة.

لا شيء يهمّ الآن، كنت أسير عائدًا ببطء، أردّد ذلك لنفسي، وأفكّر في سبب صدمتي لذلك الخبر، لقد كنت منذ أقلّ من يوم فقط أقول إنني سأعيدها لحياتها أيًّا ما كان، وأنني أكتفي منها بذلك الوقت الذي قضيته معها. هل تأثرت بها لهذه الدرجة، أم أنني طمعت في المكافأة، أن أكون إنسانًا في أيّ يابسة، وفي أيّ وقت أريد وأعيش بين البشر دون أن أحرم من نعمة الحياة في المحيط. كلّا، كانت المشكلة الأكبر أنّ العجائز حين زرنني في المنام أقنعنني أنني أحبها، وأنّها قادرة على أن تكون نصفي الآخر الذي يكتمل تكويني به. هل كانت العجائز حقًّا في منامي، أم أنّه كان مجرّد حلم من خيالي، أطياف من

أمنيات رجاها عقلي الباطن، وصاغها في شكلِ حلم وضعَ فيه العجائز لإكسابه مصداقية إضافية.

وصلتُ إليها وقد أوشكتِ الشمس على المغيب، وجدتها قد رتبت المكان بعد أن تخلصت من فضلاتِ أكلنا والرّماد المتخلف عن النار. افترّ ثغرها العذب عن ابتسامة فرحة حين رأت الأواني معي، وسألتني كيف حصلت عليها، فقلت لها "بقايا وجدتها في كهف قرب الجبل".. فقالت في وجل "هذا يدلّ على وجود آخرين في الجزيرة".. لوّحت بذراعي نافيًا، وقلت "كلّا بالطّبع، في الغالب أناس آخرون كانوا هنا منذ زمن، ثمّ ذهبوا". مطّت شفتيها وقالت في صوت حسير "محظوظون، لا بدّ أن سفينة أنقذتهم".

أقنعتها أنّهم قاموا بذلك دون مساعدةٍ من أحدٍ في الغالب، وأنهم بنوا طوفا كالذي أريد أن أبنيه لنا، فقالت "احتياطًا نبدأ في بنائه غدًا".. فأومأت بالإيجاب، ثمّ قمت أجمع بعض الأحطاب لأشعل نارًا تؤنسنا في الليل. قبل أن أتحرّك سألتني عن المبيت في العراء هكذا، وإن كان آمنًا فطمأنتها، فقالت "لا أعرف هل أستطيع النوم هكذا".. فاقترحت عليها أن ننام في أحد الكهوف أو تحت أجمّة كثيفة لكنّها رفضت بشدّة قائلة "يجب أن نظلّ قرب الشاطئ طوال الوقت ربما يمرّ أحدهم فينقذنا".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٧

أروى- موتو موايا- مايو ٢٠١٩

“هذا الشابّ فيه شيء غريب، أشعر به لكنّني لا أستطيع أن أصفه، شيء غير مقلق، نوع من الغموض لا يثير الريبة قدرَ ما يثير الفضول والتعلق”.. قلت ذلك لنفسي وأنا أتابع ماوري ببصري وهو يغيب بين الأشجار بعد أنْ أشعل نارًا، وقال لي إنه سيحضر بعض الثمار سريعًا ويعود. مرّ أوّل يوم لي معه هادئًا، كنت أشعر أنني في حلم أو مقلب سينتهي بعد قليل، لم يكن شكّ في حقيقة ما أنا فيه بل كان عقلي لا يتعامل مع الأمر بجدية كافية.

أجملُ ما في اليوم كان مجيء زياد، أحببتُ هذا الدولفين وتمنّيت لو أنّ هناك طريقة لآخذه معي، أو لو يقدر هو على الهجرة للبحر الأحمر مثلًا، وأذهب للعين السخنة لزيارته حتى لو اضطررتُ لتأجير مكان هناك نهاية كلّ أسبوع. أنارت الفكرة في رأسي وأخذت أفكر في طريق هجرته، وفي الكيفية التي أبلغه بها بالفكرة، وكيف أشرح له جغرافيا المكان، ووصل الأمر لدرجة أنّني قارنت بين القرى السياحية التي أعرفها هناك، أيّها أفضل هل تلك التي تقع ناحية طريق السويس، أو الأخرى التي تقع ناحية طريق الزعفرانة.

ظللتُ أقلب الفكرة مستمتعة بها وأنا أتخيل نفسي أسبح معه أمام شاطئ ستيلا دي ماري أو بورتو سخنة، والناس يشاهدونني معه، تعلو وجوههم الدهشة، ويطلّ من عيون بعضهم الحسد. في غمرة تلك الأفكار المجنونة وجدتُ ماوري قادمًا، وفوق كتفيه حملٌ كبيرٌ من جذوع الأشجار المورقة ذات الأوراق العريضة الكبيرة. جريتُ نحوه وساعدته في إنزال حمله، سألته عن السّبب، فأجاب “لا يصحّ أن تبيتي في العراء هكذا ولدينا كل تلك الأشجار”.

أحرجني بذوقه وأدبِه ذلك الشاب الغامض، الحقيقة أنّني أعرف أنّ أهل هذه الجزر من السكان الأصليّين أناس طيبون، وأصحاب واجبٍ كأهل الريف لكنّني لم أتوقعه بهذا الكرم، أم تراه أراد أنْ يبهرني على طريقته، فنحن معًا وحيدين على جزيرة منعزلة، وهو كأيّ رجل لا بدّ يفكر في التّأثير علي. تخلّصت من تلك الأفكار سريعًا، واستغرقت معه في بناء خصّ صغير على مقاسي بالضّبط. غرس أربعة جذوع طويلة في البداية، تميل نحو المنتصف ثمّ ربط بينها بجذوع أصغر، وأنا أساعده وأسند الجذوع معه، حتى أكملنا الجدارين الأيمن والأيسر، وتبقى الأمامي والخلفي.

ذهبت معه لإحضار المزيد من الجذوع والسعف، وأكملنا بناء الخصّ على طبقتين وقويناه ليقاوم الهواء. كانت أبعادُه عند قاعدته مترَيْن ونصف طولًا، ومترًا ونصف عرضًا تقريبًا، وارتفاعه عندَ رأسي بالضبط، وأبعاده عن سقفه

تقلّ عن النصف بقليل كأنه مخروط ناقص. بعد أن انتهينا قلتُ له "الآن سنبني لك واحدًا".. رفض بأدب، وقال "لا يهمّ، أنا أستطيع النوم في العراء، يكفيك تعبًا اليوم".. رفضت بشدّة وأصررت أن نبني له واحدًا، فلا أريد جمائلَ من أحد حتى لو كان شابًّا دمث الخلق هادئ الطباع. لو قبلت أن ينام في العراء سأكون كأنّني سمحت لشاب غريب أن يدفعَ لي فاتورة مطعم أو مقهى، حاول التمنع لكنني أقسمتُ أن أذهب وحدي وأحضر الأغصان اللازمة فوافق مجبرًا، الحقيقة أنّني لم أكن جادّة في قسمي فلا شيء يستحق أن أدخل غابةً وحدي في الظلام، وكان من حسن حظّي أنه وافق بدون مناقشة طويلة.

قضينا نفس الوقت تقريبًا نعدّ في خصّ لماوري، كدت أقع مرّة وأنا أسند أحد الجذوع في وضع عجيبٍ فانفجرت في الضحك وأنا أحاول إعادة توازني وهو مبتسم في ارتباك، لا يدري كيف يتعامل معي.. هل يمسك بي أم يسندني، أم يسند الجذع. شعرتُ أنه يحاول قدر الإمكان ألا يقوم بأيّ فعل من شأنه أن يتعدّى على خصوصيتي، أو يمكن تفسيره بطريقة خاطئة. رغم تحفظي وتوجّسي الذي صار يغلف تعاملي مع أيّ رجل، وجدتني أعتادُ على ماوري بسرعة، وأشعر بألفة محببة أثناء قيامنا ببناء الخصيْن.

ودّعته ودخلت غرفتي الفاخرة، وافترشت الرمال السوداء، ورحت في النوم على الفور، كان نومًا عميقًا هادئًا لم تخالطني فيه أحلام، ولم أشعر بضيق التنفس المعتاد الذي يصيب أنفي أثناء النوم، والذي نتج عن حساسيتي الأنفية المزمنة. بدا وكأنّ هواء المحيط النقي عالجها، وجعل نومي أكثرَ سلاسة دون حاجة لأدوية.

استيقظتُ في الصباح، وجدت ماوري قد استيقظ قبلي، وجلس محاولًا إشعال النار وبجواره أربع سمكات مازالت إحداها تتلوّى محاولة العودة للماء. كان جواره أيضًا قدرٌ خزفي ممتلئ بالماء أعدّه لتكثيف الملح كما رغبت وبضع ثمرات من فاكهة الخبز، سألته "كيف اصطدت هذه الأسماك؟".. فقال "استيقظت ورأيتها على الشاطئ، ثمّ رأيت دولفينًا يقذف بسمكة أخرى نحوي وحينَ ذهبت لالتقاطها هربَ سريعًا".. ابتسمت سعيدة وقالت "إنّه زياد بالتأكيد، يبدو أنه يعرف أنّك لن تستطيع صيدها من أجلي".

لم أنتظرْ إجابة منه رغم سخافة تعليقي، توجّهت نحو المحيط وناديت عدّة مرات باسم زياد، لكنّني لم أجد إجابة. عدت لماوري وساعدته في شوي الأسماك، ووضعت القدر الخزفي المملوء بالماء لأستخرج منه الملح، تركته على الشاطئ وأخذت القربة، وصلت نبع الماء، جلست أملأ القربة منه وأنا أتأمل الجبلَ البادي غير بعيد، والذي تحتلّ سفحه شجيرات كثيفة وتكسوه الخضرة مثل كلّ الجبال في تلك المنطقة. قفلت عائدة وأنا أمتع عيني بطبيعة

المكان، ولاحظت شجيراتٍ مزهرة فذهبت وقطفتُ بعض الأزهار ذكية الرائحة، وحملتها معي لأضعها في خُصّي لأضفي عليه لمسة جمالية.

بعدَ الإفطار قال لي "سأحضر بعضًا من قطع الصخور الحادة كي أستخدمها لتقطيع الأشجار التي سنصنع منها قاربنا".. فقلت له "حسنًا، سآتي معك". في الطريق حدثته عن نفسي وعن رحلتي الطويلة التي أفضت بي لتلك الجزيرة، وعن عملي وعن القاهرة وزحامها. حدثني عن حبّه لوطنه، تلك الجزر المتفرقة التي تتبع فرنسا، الجزر التي نشأت كلّها من براكين قديمة، ولذلك تنبت الخضرة في كلّ بقعة فيها، برّها خلّاب، وبحرها ساحر، كان يتحدث عن وطنه حديثَ شاعر عن حبيبته.

قلت له "عندك حقّ، بلادك تستحقّ أن تحبها؛ فجمالها لا يقاوم".. فقال "بلادك أيضًا ساحرة، الصّحراء لها جمالها أيضًا كالأراضي الخضراء".. قلت له مستنكرة "مصر ليست كلها صحراء يا هذا".. احمرّ وجهه خجلًا، وارتبك واعتذر إنْ كان قد أساء لي. ضحكت وقلت له "أنت طيب جدًّا يا ماوري".. ثمّ قلت له إنّ مصر أغلبها صحارى فعلًا، لكن فيها الكثير من الأماكن الخضراء؛ فيها طرق بين مدن الدلتا ترى فيها الخضار على امتداد بصرك رغم وجود كتل أسمنتية متناثرة. أضفت قائلة "فيها شطوط جميلة أيضًا، وأحيانًا يظهر فيها دلافين مثل زياد رغم أنّني متأكدة أنه لا يوجد دولفين مثله".. فقال مندهشا- وقد كانت لا تزال الحمرة تكسو وجهَه، وإن خيل لي أنّها زادت قليلًا- "معقول؟".. فأجبته "نعم، زياد يشعر بي مثلما لم يشعر بي أحدٌ من قبل، ذكي وعطوف ومستعدّ لفعل المستحيل من أجلي، وهو ما لم أجده في إنسان".

بحثنا عن صخور حادّة وكبيرة، وجد بعضها واستطاع جلب صخرة خشنة استخدمها لجعل طرف الصخور الأخرى أكثر حدّة. عدْنا لمكان فيه أشجار رفيعة الجذع يمكن أن نقطعها. اخترتُ واحدة واختار واحدة، وبدأنا ننقر فيهما بهدوء وصبر. كانت الأشجار حولنا بها بعض الطيور التي كان بعضها يغرّد بصوت عذب وإنْ لم أتمكن من رؤيتها. بعد وقت لم أحصه رأيتُ أرنبًا يتسلل بالقرب منّا، وينظر حوله بتوجس، همست لماوري وأنا أشير للأرنب، قام بهدوء شديد وتسلّل نحوه، ثمّ قفز محاولًا الإمساك به لكنّ الأرنب أفلت، فقمت من مكاني محاولة قطعَ الطريق على الأرنب، ورميت نفسي عليه لكنّه أفلت ثانية فانفجرت ضاحكة وقمت أجري خلفه، وماوري يحاول محاصرته من الناحية الأخرى.

لم أتوقّف عن الضحك لحظة ونحنُ نحاول صيدَ الأرنب معًا، فيما كان ماوري يتعامل مع الأمر بمنتهى الجديّة حتى استطعنا الإمساك به أخيرًا، وسقطنا بعدها على الأرض نستريح وأنا غارقة في الضحك، وهو ينظر لي بدهشة قبل أن يغرق في الضحك معي هو الآخر.

“هل تأخذين كلّ شيء ببساطة هكذا؟!”.. سألني وهو يلتقط أنفاسه بعد نوبة الضحك، فقلت “كلّا بالطبع، لكنني هنا خارج الزمان والمكان يا ماوري”.. قلت له إنّني منذ هبطت في المطار في تاهيتي وأنا أحاول أن أنسى كلّ شيء تركته في مصر، أن أنسى كلّ أحزاني وأشغالي والخذلان المتكرّر من الدنيا والناس، وأن أجدد قلبي بعيدًا عن كلّ هذا، ثمّ أضفت وأنا أشيح بنظري عنه وهو يسلخ الأرنب “كلّ هذا كوم، ومجيئي لتلك الجزيرة كوم آخر، هنا انفصلت عن العالم كله رغمَ أنني مازلت في اليوم الثاني”.

كانت تلك حقيقة، كنت أشعرُ أنني أجدّد قلبي في تاهيتي وبورا بورا، لكنني في هذه الجزيرة كنت أشعر أنّني أرمّم روحي، ومعي هذا الشاب الغريب يساعدني، وزياد يرعاني من بعيد، ويطمئنّ علي. لم أعرف ساعتها هل كان ذلك شعورًا حقيقيًّا أم أنني كنت في حالة إنكار للموقف العسير الذي كنتُ فيه من وجودي على جزيرة غير مأهولة واستعدادي للذهاب في رحلة مخيفة عبر المحيط على طوف خشبي بدائيّ حتى لو كان هناك بحار يرافقني ودولفين يحاول الحفاظ على حياتي. ربما لم يكن إنكارًا قدر ما كان استخفافًا بكلّ شيء، ماذا سيحدث لأخاف منه فلأعتبر نفسي في إجازة من العالم شهرين أو عامين حتى ماذا سيحدث لي.

انتهينا من قطع شجرتين في منتصف اليوم التالي، وبدأنا في اثنتين أخريين. كنت أعتاد على ماوري شيئًا فشيئًا، كنّا نفعل كلّ شيء سويًّا ولا يتركني إلّا أوقاتًا قليلة جدًّا، زارني زياد مرتين حين كنت أترك ماوري وأعودُ إلى الخصّ عند المحيط لأستريح من العمل، لكن رؤية زياد كانت تنسيني تعبي وتجعلني أنزل المحيط وأسبح معه، عندما كنت أعود لماوري في الغابة أجده عائدًا لتوّه من السباحة في الجدول تاركًا العمل، فأنهره بمزاح ونعاود العمل.

استطعت- دون قصد- أن أجعل ماوري ينفتح في الحديث معي أكثر، ويمزح أكثر ويضحك أكثر، كان يهتمّ بي ويخشى أن يضايقني مهما كان الأمر تافهًا. في اليوم الثالث طلبت منه أن يبقى لقطع الأشجار وألّا يأتي عند الجدول مهما حدث، كنت أريد أن أستحم بماء عذب، وأن أغسل ملابسي، وأن أغير رائحة جسدي قليلًا، أخذت معي حفنة كبيرة من الأزهار العطرة، قمت في البداية بخلع ملابسي الخارجية وبقيت مرتدية شورتًا وقميصًا رياضيًّا داخليًّا بلا أكمام. لم أجرؤ أن أخلع تمامًا في العراء رغم يقيني أنّني وحدي، وأن ماوري لن يأتي.

قمتُ بغسيل الملابس جيدًا، ثمّ وضعتها على جذع شجرة معرض للشمس، نزلت الجدول وكشفت نصفي العلوي ودلّكته بالزهور جيدًا، وغطست في الماء مكررة الأمر عدّة مرات قبل أنْ أقذف حمالة الصدر بعيدًا للأرض

المكشوفة في الشمس لتجفّ وأرتدي القميص الرياضي الضيّق وحده، ثمّ أغمس جسدي في الجدول ثانية.

بقيتُ مغمورة في الماء فترة كافية مستمتعة بالماء العذب الدافئ الجاري الذي ينساب من النبع القريب منتظرة ثيابي لتجف. قمت في النهاية وخضت في الجدول لأعبر للناحية التي نشرت ملابسي فيها. بينما كنت أستندُ على الصخور لأخرج، فوجئت بجرذ كبير الحجم يخرج من بين صخرتين ويعبرُ على ذراعي لينطلق في الغابة فصرختُ بصوت عالٍ مرتين أو ثلاثة وأنا أحاول أن أخرج من الماء سريعًا، وقفت وأنا أمدّ ساقي خارج الماء ففاجأني جرذ آخر أكبر حجمًا يقفز من بين الصخور، فصرخت ثانية قبل أن أنزلق وأسقط لترتطم رأسي بالصخور في عنفٍ وأفقد الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٨

زياد- موتو موايا- مايو ٢٠١٩

سمعتُ صرخة من أروى حفّزتني أن أخالف طلبها وأجري ناحية النبع لأطمئنّ عليها ولكنني تجمّدت وأنا أقول لنفسي قد تكون صرخة عارضة بلا معنى، وأكون قد اتخذتها حجة لأجرح خصوصيّتها، أو أرى منها ما لا تحبّ أن أراه. حين تكررت الصرخة، لم أجد بدًّا من التحرك، لم أبصرْ على هذه الجزيرة حيوانًا مفترسًا أو مفزعًا من قبل، لكنني قلت إن الاحتمالات لا تنتهي، وقد تكون هذه الجزيرة تتلاعب بنا.

وصلت إليها عدْوًا، فوجئت بها ملقاة على الأرض على حافة النبع، ساكنة مغمضة العينين وقد سالَ منها دم قليل على الأرض عند رأسها. اطمأننت أنّها تتنفس بانتظام، حاولت إيقاظها فندّت منها أنّة مكتومةٌ دون أن تفتح عينيها. عدلت وضعَ جسدها ليكون مريحًا أكثر وتناولت بعض الماء وغسلت به رأسها وهي بعدُ لم تفق، كان الجرحُ صغيرًا لكنّه لا يزال ينزف. تركتها وعدوتُ سريعًا نحو أرض عشبية قريبة أعرف بها عشبًا لتضميد الجروح، اقتلعت حفنة منه وعدتُ لها، فركتُ العشب في يدي، ثمّ كتمت به الجرح فتأوّهت من الألم وفتحت عينيها.

انتبهتْ لوجودي فاحمرّ وجهها وعكست ذراعيها أمام صدرها وكفّاها على كتفيها ثمّ صاحت بي "أدرْ وجهك ناحية النبع".. انتبهت تلك اللحظة إلى أنّها كانت ترتدي قميصًا مبتلًّا بلا أكمام كشف منها أكثرَ ممّا غطى. التفتّ في خجلٍ وأغمضت عيني وصورة جسدها تلوح في خاطري، شعرتُ بضربات قلبي تتسارع، هيئتها النائمة بجسدها المبتلّ الغضّ أصرت على مداهمتي، شعرتُ بضيق وحرجٍ من نفسي وحاولت طردَ الصورة وأنا لا أزال مغمضَ العينين موليًا وجهيَ ناحية الجدول. هتفت ثانية "إيّاك أن تلتف"... صوتها المحذر كان يثبت الصورة أكثر ويحرّك في داخلي شيئًا جديدًا بشريًّا تمامًا، نظرة من ذكر لأنثى تختلف تمامًا عما عهدته في حياتي كدولفين مقترنة بإحساس خفيّ بالذنب كأنني سرقت منها شيئًا.

كان تكرارُ الصورة في ذهني يكشف تفاصيلَ جديدة فيها، كنت أضبط نفسي أستمتع بتلك التفاصيل، فيزيد إحساسي بالذنب فأحاول إبعادَ الصورة فتختفي لحظة ثمّ تعود أوضح وأنصع، وبها تفاصيل جديدة. "الآن يمكنك أن تستدير".. قالت بجدية زائدة، فقلت لها معتذرًا "آسف، حين صرختِ مرّتين متتاليتين أصبتُ بالفزع وجئت عندك، لم أقصد أن..".. لم أجد ما أكمل به جملتي؛ هل أقول لم أقصد أنْ أتأملك أو أنْ أحتفظ بصورتك في عقلي، لم أقصد أن أستدعيها عدّة مرات في تلك الدقائق القليلة وأستمتع بها كلّ مرة. قالت

وهي تسبقني في طريق العودة دونَ أن تلتفت إلي "حصل خير يا ماوري، أشكرك على إنقاذي، وعلى ذلك العشب فظيع الرائحة الذي كتمت به الجرح".. فأجبتها وأنا أسير جوارها متخلفًا بخطوتين "إنه عشب فعّال".. فقالت وهي تضحك "لا يوجد بن هنا؟".

استبشرت خيرًا عندما ضحكت، وعدْنا نتحدث كأن لم يحدث شيء، عدنا عند الشجر الذي كنّا نقطعه، طلبت منها أن تعود لخُصِّها وتستريح قليلًا. حاولت التملص وقالت إنّها بخير لكنني قلت لها بإصرار وأنا آخذ الصخرة الحادّة من يدها "سأكمل وحدي، هيّا اذهبي لتستريحي".. فابتسمت بامتنان وقالت "كما تحب". انصرفت نحو الشاطئ وأنا أتأمّلها لكنني أشحت بوجهي حينَ عادت لي تلك المشاعر التي تشتهيها، حاولت أن أفرغ طاقتي في تكسير الشجرة، شعرت أنّ جسدي يفور، وأنا عقلي مشوّش بصورتها وهي نائمة وصورتها وهي تنصرف مبتعدة، شعرت أنّني بحاجة لأن تلمسني وتهدئ من ذلك الذي يجيش بصدري أيّا كان اسمه، فكرت قليلًا ثمّ أخذت قراري وعدوتُ نحو الشاطئ الصخري ثمّ قفزت نحو المحيط.

عدتُ سابحًا كدولفين نحو الشاطئ الرملي، كانت داخل خصّها، أخذت أطلق صفيرًا وطقطقات متتالية حتى خرجت، أخذت أقفزُ في الماء محاولًا أن أحثّها أن تنزل معي؛ كنت أشعر بحاجة لضمّتها القوية التي تضمّها لي حين أغطس بها أو أقفز في الهواء. كانت تشير إليّ بما يعني أنها لا تريد نزول الماء، ثمّ تحت إلحاحي أقبلت نحوي لكنّها تجنّبت أن تبلل رأسها.

ضمّتني بقوة وسبحت معي، وقالت "رأسي فيه جرح، بلاش نغطس".. استجبت لها بصفير ناعم موافقًا، لكنني لم أستطع منعَ نفسي فأخذت أدور بها وهي تضحك وتحذّرني، ثمّ غطست قليلًا لتحتضنني، ففعلت، لكنها قالت "بلاش غطس ولا تنطيط يا زياد".. سمعت كلامها لكنني انتهزت فرصة كانت تمسك بي بقوّة وقفزت بنعومة فأمسكت بي أكثر ثمّ حذّرتني من تكرارها. وقفت في الماء، وصفرت بصوتٍ خافت مرّات عديدة وأنا أتمسّح بها، فقالت وهي تضحك "تموت في اللّعب، خلاص نغطس وأمري لله".

لا أستطيع أن أصفَ مدى فرحتي، ليس فقط لأنها وافقت أن تغطس معي، بل لأنها فعلت ذلك رغمَ خوفها من أن يتأذّى جرحها أو ينزف، أحسست وأنا دولفين أنّها تعاملني أكثر من إنسان مقرّب منها، تعاملني كحبيبٍ تتحمل من أجله الأذى، جعلني هذا أكتفي بغطسة واحدة وقفزتين مرتفعتين، ثمّ ثالثة، درت بها في الهواء رأسيًّا وأنا أشعر بضمّتها تلك المرة مختلفة تمامًا عن أيّ مرة سابقة، أحسست الضمّة حضنًا بشريًّا دافئًا مكتمل المشاعر، متدفقًا بالعاطفة ممتزجًا باختلاط النبضين المتقاربين.

أعدْتها نحو الشاطئ، وتركتها وقد هدأت نفسي وعدتُ أدراجي نحو الشاطئ الصخري لأعود نحوَ منطقتي ثانية، وأكمل تقطيع الأشجار، عدتُ إنسانًا لكن شتّان بين ذهابي وعودتي، سكن خاطري تمامًا، وشعرت أنّني أشبعت رغبة كانت تجتاح كياني. أكملت قطع الشجرة التي كانت معي إلى أنْ وجدتها عائدة وهي مبتسمة في خجلٍ تطلب منّي أن آتيها بقليل من العشب الذي داويتها به من قبل، واعتذرت قائلة "زياد أصرّ أن يغطس بي في الماء فأفسدت الجرح ونزف قليلًا".. فقلت لها متصنّعًا الدهشة "زياد أصرّ! تتحدّثين عنه كأنه إنسان يمكنه أن يملي عليك شرطًا!".. فقالت "له كلّ الحق، إنه أكثرُ مَن اهتمّ بي في هذه الدنيا، وله الفضل في إنقاذ حياتي".

شعرت بالخجل ممزوجًا بفرحة حاولت أن أخفيها وأنا أرافقها نحو الأرض الموجود بها العشب، وقلت أنا أنظر بعيدًا عنها "كيف فهمتِ أنّه مصرّ على الغطس، هل تفهمين لغة الدلافين لهذه الدّرجة؟".. فقالت "كلا، لا أفهم لغة الدلافين، وإنّما أفهم لغة زياد فقط، أشعر به كما يشعر بي".

وصلنا لمكان العشب، حصدت قليلًا منه، وفركته بيدي، وأعطيته لها لتضعه على رأسها لكنها مالتْ نحوي ووجّهت مكان الجرح ناحيتي وهي تشير لي أنْ أضعه أنا. كانت قريبة منّي جدًّا، وضعتُ العشب على الجرح وضغطه بيدي اليمنى وأنا أستند بيدي اليسرى على كتفها. تألمت فربّت على كتفها وأنا أتأسف، فقالت وهي ترفع وجهها نحوي "شكرًا".. كانت قريبة مني لدرجة أنّني كدت أستنشق أنفاسها، ابتعدتُ في حرج عندما شعرت أنّنا اقتربنا أكثر من اللازم، وعدْنا أدراجنا إلى حيث الشجر.

مرّت بنا الأيام على نفس المنوال تقريبًا، لا جديد يذكر غيرَ أنني كنت أشعر أنني كبشري أقتربُ منها أكثر، وأنها تتعامل معي بأريحية أكثر، كنت أفرغ طاقتي ولهفتي نحوها حين أعود دولفينًا، كنت أطيل فترة السباحة وأكثرُ من الرقص والقفزات كأنّني أحاول أن أشبع من حضن لا أقدرُ على الحصول عليه إلّا وأنا على تلك الصورة، وكنت أحيانًا أشعر أنها تضمّني بقوة عن ذي قبل، وكأنّها تستعين بعطف الدولفين على اقترابها الخطر من البشري.

كانت الأمور بيننا تسير كلّ يوم نحو الاقتراب، وكأنّ ماوري وأروى زوج متجانس من سنين رغم كلّ الحرج والخجل بيننا. كان الحرج يقلّ مع الوقت، لكنه لا يزال موجودًا، لا يختفي إلّا حينما أعودُ زياد الدولفين ثانية، اقتربت منها أكثر من مرّة، وكدنا نتلامس تمامًا؛ ونحن نعمل، ونحن نصيد الأرانب، ونحن نطهو بل إننا نزلنا النبع معًا ذات مرّة، ولهونا بالماء وسقطنا على الأرض معًا. كنت أنتقل في عالمها بصورتي البشرية ببطء، كنت أشعر بي أتوغل في روحها شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى قناعة أنني صرتُ في هيئتي البشرية قريبًا

منها بنفس الدرجة التي نقترب فيها وأنا دولفين، حتى جاء اليوم الذي عرفتْ الحقيقة وأبصرتني وأنا أتحوّل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٩

أروى- موتو موايا- مايو ٢٠١٩

خلدتُ إلى النوم في نهاية يومي السادس على الجزيرة المنسيّة- كما أسميتها- دون أن أرى أثرًا لأيّ سفينة، أو شبح سفينة في المحيط، ولو في نهاية الأفق. تعايشت مع حقيقة أننا يجب أن نكملَ بناء قارب أو طوف نخرجُ به منها، لم أشعر باطمئنان كثير لقدرة الطوف الذي نبنيه على الإبحار، ماوري كان يؤكّد لي يوميًّا أنّه يصنعه بالطريقة المثلى، وأنّ هذا الطوف يمكنه الإبحار إلى أمريكا لو توفرت لنا المؤن.

كنتُ أتقلب قلقة في داخل الخصّ الذي بناه لي، وأفكار عديدة تداهمني، ومشاعر متناقضة تحاول إيقافَ سقوطي في دوّامة النوم. كلّ يوم كنت أقترب من ماوري أكثر، وأشعر أنّ المسافات الشّاسعة التي تفصل بين عالمينا تتهاوى، وأنّنا نتحول بالتدريج إلى زوج متجانس لا يعرف شيئًا عن العالم الخارجي. مرّت عليّ لحظات معه مشحونة بعواطف كانت تقودني نحوه رغم ارتباكي، وتجتاحني في بعض الأحيان لرغبة عارمة في الالتصاق به. كنت أتغلب على تلك الرّغبة بحيلة مجنونة، كنت أتهرّب منه بأيّ حجة، وأذهب نحو المحيط أغمس نفسي في مياهه وأنادي على زياد، فيأتي سريعًا كأنّه يقيم بالقرب من الجزيرة، أضمّه بقوة وأسبح معه، أغطس وأقفزُ وأدور في الهواء ملتصقة به حتى أهدأ تمامًا، وأشعر بإشباع نفسي تامّ يغنيني عن أيّ مشاعر تنتابني نحو ماوري، ثمّ أعود لمواصلة العمل معه بشكل طبيعي.

حين غرقت في النوم رأيت حلمًا غريبًا، رأيتني أمشي وحدي في الجزيرة، أصعد الجبل الذي ينتابني الفضول نحوه دومًا، توقفني عجوز مألوفة الملامح، تسألني عن وجهتي فأخبرها فتقول لي "لا تتركي زياد يقطع الأشجار وحده".. ضحكت وقلت إنّها تخرف، أكملت صعودي نحو قمّة الجبل، وجدتني على جرفٍ صخري يشرف على الماء، ورأيت ماوري واقفًا يوشك أن يقفز، حاولت أن أناديه، لم يخرج منّي أيّ صوت، قفز في الهواء، غاب في المحيط وقلبي ينخلع خوفًا عليه، ثمّ رأيت زياد يخرج من الماء في نفس البقعة، قفزت أنا أيضًا، سألت زياد عنه لم يجبني، وأخذني نحو الشاطئ، وخرج بي، ووجدته يتحوّل أمام عيني من دولفين لإنسان، من زياد إلى ماوري. الغريب أنّني لم أشعر بالدهشة، شعرتُ أنه طقس عادي نقوم به، نرقص في المحيط وهو دولفين، ونخرج منه وهو إنسان، أخذَ يدي ودخل معي نحو الخص، احتضنني واعتصرَ جسدي بين ذراعيه، وطبع قبلةً طويلة على شفتي، وحين حاول أن يفلت نفسه جذبته أكثرَ لأمنعه من إنهائها، ثمّ فتحت العجوز باب الخصّ وقالت "هناك أشياء أهمّ يجب أن تنجز أولًا".

استيقظت قبلَ طلوع الشمس بقليل، جريتُ نحو الجبل، كنت مرتبكة وذهني مشوش، لا أعرف إنْ كنت أهذي، أم أنّ الحلم كان رسالة، الحلم غريب جدًّا، لا يعقل أن يكون كله من وحي نفسيتي المضطربة، أؤمن بشدّة أنّ الأحلام ليست كلّها هواجس من نفوسنا، وأنّ الكثير منها رسائلُ من الله، أو من أحبائنا البعيدين.

وصلتُ عند سفح الجبل، بحثت عن بقعةٍ أصعد منها، وعندما وجدتها فاجأتني عجوز تنادي باسمي. أصبتُ بالفزع، كانت نفس العجوز التي في حلمي، قالت إنّها حارسة الجزيرة، قالت إنّها زارتني في الحلم منذ قليل، وإنّها تريدني أن أعرف أنّ زياد هو ماوري، سخرت منها قلت إنّ هذا مستحيل، إنّها خرافات عجائز، لسنا في عالم فيه عروس البحر التي تتحول إنسانة على اليابسة. ضحكت العجوز وقالت "كلّ أسطورة لها معادلٌ في العالم الحقيقي، الدلافين منذ القدم يتحوّل بعضها لبشر، بعضهم مثل زياد يتحوّلون فقط على هذه الجزيرة، وبعضهم يتحول حسب رغبته في أيّ أرض وأي محيط".

كلامُها كان صادمًا وغريبًا، ويشبه كلام المجاذيب في الأفلام القديمة، تركتها وعدت أدراجي متراجعة عن فكرة صعود الجبل التي كانت أساسًا فكرة بلا هدف، نادتني ثانية وقالت "راقبيه وسوفَ تعرفين".. ذهبت إلى الشاطئ، فكّرت أن أراقبه كما قالت العجوز، أو أطلب منه أن ينزل المحيط أمامي، أو حين يأتي زياد أختبئ داخل الخصّ وأصرخ كأنني أصارع الموت فيخرجُ من الماء ويتحوّل أمامي. تراجعت واتهمت نفسي بالجنون، لكن ماذا سأخسر لو اختبرته، هل هناك شيء معقول في قصتي منذُ قابلت زياد، دولفين يفهم العربية ويتفاعل معي بطريقة لا يمكن تفسيرها وينقذني من الغرق، ثمّ أجد نفسي على جزيرة غامضة مع شاب نبت من الهواء، أيّ إعصار ذلك الذي يقذف بي وبه هنا دون إصابة واحدة، ثمّ كيف يعرف العربية الفصحى فقط وليس لهجة السعودية إنْ كان ذهب هناك، هل يعقل أن يسافر شخص من هنا ليعمل صيادًا في الطرف الآخر من العالم.

حين عدتُ طلبت منه أن يذهب لتقطيع الشجر، وأنّني سوف أنتظر زياد على الشاطئ وأجعله يحضر لنا سمكًا لنأكله، وافقني بدون نقاش، اختبأت داخل الخص وراقبت الشاطئ من فتحة صغيرة. سمعت صفير زياد ورأيته يقفز في الماء لينبّهني بوصوله، انتظرت قليلًا ثمّ أطلقت صرخة مفزوعة عالية، وجدتُه يقفز بعدها مباشرة كأنّه يحاول استطلاع الأمر، صرخت مرة ثانية وثالثة حتّى وجدته يجنح نحو الشاطئ، كدت أصابُ بالفزع وأخرج، فجنوح دولفين إلى الشّاطئ خطرٌ على حياته، وقد يكون موضوع التحوّل هذا مجرّدَ هلاوس لا أساس لها.

خرجتُ من الخصّ في نفس اللحظة التي خرج جسده من المحيط ورأيته أمامي بعيني هو يتحول من دولفين لإنسان في مشهدٍ يشبه أفلام الجرافيك، صرخت في فزع وأنا أردّد لنفسي أنني أهلوس، جرى نحوي وأمسكَ بي وهو يحاول تهدئتي، كنت في صدمة حقيقية أرتجف وأرى الدنيا أمامي كصورةٍ مهتزّة التقطها طفلٌ يعبث بكاميرا هاتف.

أخذَ يحاول تهدئتي ويشرح لي أنّه لا يدَ له في ذلك، وقال إنّ كلّ ما يريده أن يعيدني بأمان لبورا بورا، ويقسم أنه لم يقصد أنْ يأتي بي إلى هنا. بدأت أهدأ وأسلّم بحقيقة ما رأيته لكنني كنت أشعرُ بغصّة في أعماقه من كذبه علي، زياد وماوري مخلوقٌ واحد، وفي الحالتين اهتمّ بي وأحبّني، لكن كذبه عليّ يزلزل يقيني بتلك الحقيقة. ظلّ يحاول تهدئتي ويتحجج أنه كان خائفًا من صدمتي حين أعرف الحقيقة، ثمّ فعل شيئًا جعلني على وشك قذفِه بحجر في وجهه.

بكى، دمعتْ عيناه وهو يحاول إقناعي، كانت تلك هي غلطته الكبرى، في لحظة واحدة شعرت أنّ كامل بكلّ حقارته وكذبه هو مَن يبرر الكذب أمامي، لم يكن هناك منطق خلف شعوري هذا فشتّان بين الموقفين، لكنّ منظر الدموع في عين رجلٍ صار عندي مجرد رمز للخداع بعد تجربتي المريرة مع كامل.

تركته ودخلت الغابة وحذّرته أن يتبعني، جلست عند النبع، المكان الذي شهد المرة الأولى التي شعرتُ فيها بحرارته نحوي، والتي هربت منه إلى المحيط لأسبح معه هو نفسه، وأحتضنه في صورته الثانية لأهدئ خاطري، كنت أهرب منه إليه دون أن أدري.

جلستُ أتأمّل الماء الفائر من النبع، والمنساب نحو الجدول، وذهني خاوٍ من فرط الصدمة، أحاول تخيّل حقيقة ما أنا فيه، كانت عاطفتي نحوه في حالتيه جديدة لم أصنّفها، هل أنا المجنونة التي تيّمت بكائن غريب، أم أنني إنسانة عاقلة خارجة من صدمة عاطفية جعلتني أسقط مشاعري على أيّ شخص أو كائن، أم وجودي على تلك الجزيرة، هو ما خلق بين وبين نصفه البشري هذه الحالة الشبيهة بالحبّ، وهي معتادة بالطبع في حال وجود أيّ رجل وامرأة وحدهما فترة طويلة. حسنًا، كلّ هذا لا يهمّ، أريد العودة الآن إلى بورا بورا، ومادمت قد جئت بطريقة سحريّة فليعدني بطريقةٍ سحرية، وليكفّ عن هراء صنع الطوف.

قمتُ ناحية الجبل حيث قابلت العجوز من قبل، كنت أتمنّى أن أراها وأسألها أكثر، لم يكن في بالي أسئلة محددة لكنّ رأسي كان يمور، وكنت أتمنّى أن تحدثني لتهدئ من روعي.

قابلتُها قرب السفح كانت قادمة في طريقها إليّ تمشي ببطء لكن بقوة لا تتناسب مع وجهها الذي يعطيها عمرًا يتعدى السبعين. قصّت عليّ حكاية مصير زياد منذ البداية، قالت لي إنه من أجل أنْ يكون دولفينًا متحوّلًا بشكل دائم؛ فلا بدّ أن يعثر على امرأة يحبّها، ويأتي بها الجزيرة، وأن تبادله المرأة ذلك الحبّ، وأن تكون امرأة تعاني من حزنٍ جارف. قالت إنّه رغم احتياجه لذلك التحوّل، وحلمه أن يكون واحدًا من الدلافين المعدودة التي تمتلك تلك القدرة، ورغم أنه أحبني حقًّا، لم يحاولْ أن ينتهز الفرصة ويأتي بي للجزيرة، وأنّه فضّل أن يحاول إنقاذي لمكان قريب لأنّ الجزيرة بعيدة، وهو كان يشعر بقلقٍ عميق وخوف على حياتي.

"تريدينَ إقناعي أنه لم يأتِ بي هنا عمدًا!؟".. قلت لها في شكّ، فقالت "ولماذا أكذب، ليس لدي أصلًا قدرة على الكذب، زياد يحبّك، وفضّل إنقاذ حياتك على المغامرة بك، وأنت تحبينه يا أروى، تحبّينه أكثر ممّا أحببت كامل بكثير، كامل لم يكن حبًّا حقيقيًّا، بل مجرّد فرصة زواج مغلّفة بزخارف رومانسية تهاوتْ عند أول اختبار".. شعرت بالغيظ من كلامها، وبأنه تدخل بي في طريق لا أريد الخوض فيه، فقلت "تريدين طبعًا أن تقولي إنّني تلك المرأة، لأنني أيضًا أعاني من حزنٍ جارف، يا للصدفة السعيدة!".

ضحكتِ العجوز بصوت مكتوم، ثمّ سعلت قبل أن تقول "أنت لا تعانين من حزن جارف، أنت فقدتِ فرصة زواج مثالية، تكسّرت أمامك صورة فاتنة رسمها لك كامل، وهذا سبّب لك ضيقًا ستنسينه مع أوّل رجل يأتي بعده، ويكون مخلصًا لك".. ثمّ ضحكت ثانية، وقالت "إن كان هناك وجودٌ لذلك النوع أصلًا!".. قلت لها غاضبة "مَن أنت أصلًا لتحكمي على مشاعري وتقيّمي حزني، أنا أعلم بنفسي، ثمّ كيف عرفت كلّ هذا؟!".. فقالت "أنا أعرف أكثرَ ممّا تتخيلين، كلّ إنسان لديه شعورٌ ظاهر يكشفه لنفسه، ويبرر به أحاسيسه وكلامه وأفعاله، ولديه أيضًا شعور باطن، حقيقي عميق لا يكشف عنه لنفسه لأنّه يرتاح دومًا للحقيقة السهلة التي توافق قناعاته، أنتِ مثلًا يسهل عليك تصديق أنّ حزنك على كامل حزنٌ على حبّ مفقود، لكنّك ستنكرين بشدة أيّ خاطر يمرّ بذهنك ويقول إنّك حزينة لفقدان فرصة في حياة أفضل".

كان كلامها غريبًا كطبيب نفسي يصدمك بأفكار لا تتخيّلها عن نفسك، طلبت منها أن تكفّ عن الجدال، وتعيدني إلى بورا بورا، فقالت "وزياد، ألا تريدين إسعادَه وتحقيق أمنيته؟".. قلت في بالي هذه المرأة المجنونة تريدني أنْ أحبّ دولفينًا ولم يعدْ ينقص إلّا أنْ تقول مثلًا شعبيًّا تخترعه على غرار "خدي دولفين يصونك، وما تخديش راجل يخونك".

قلتُ بفرض أنّني أحبّه؛ وهو أمرٌ مستبعَد، كيف أحقق أمنيته وأنا لستُ تلك المرأة الحزينة التي تشترط الجزيرة وجودها؟ فقالت "يمكن أن نحقّق ذلك

الشرط".. فقلت مستنكرة "كيف هل ستشوّهين وجهي، أو تقتلين أحدًا من عائلتي!".. فقالت "ستخوضين تجربة تجعلك تجربين الحزنَ المطلق الذي لا تتخيّلين وجوده، سيعيش وعيُك تجربة حقيقية تنسين أثناءها أنك أروى، ستكونين امرأةً أخرى في مكان وزمان آخرين تعيشين تجربة كأنّك أنت مَن يتعرض لها في الحقيقة".. قلت محاولة فهمَ المزيد "تعنين مجرّد حلم؟!".. فقالت "أشبه بالحلم، لكنك ستعيشين فيه حياة كاملة، وتكونين ذكرى حقيقية تمامًا لا تختلف عن أيّ تجربة مررت بها، ستبكين بكاءًا حقيقيًّا، وتتألمين ألمًا حقيقيًّا، وتعاودك ذكرى ذلك الألم دومًا كأنّه مرّ عليك في حياتك من قبل".

كان الكلام غريبًا ربّما أغرب من تحوّل دولفين لإنسان، قلت لها "على العموم، أنا لست مضطرّة؛ لذلك فأنا لست أحبّه فعلًا، ثمّ إنني لن أربط حياتي بزواج أسطوري كهذا، نحن لسنا في حكاية أطفال، أريد أنْ أتزوّج وأنجب وأعيش حياة عادية".. مطّت العجوز شفتيها وقالت "أنا أتحدّث عن الحب الحقيقي، عن الشعور نفسه، لا عن تبعاته".. فقلت بحزم "أنتِ تناقضين نفسك، تقولين إنّ الحبّ شرطٌ قبل أن أدخل تجربة الحزن التي تدّعين وجودها، فكيف أدخلها وأنا غير واثقةٍ من وجود الحبّ نفسه؟ فقالت وعيناها تلمعان بظفر "لأنّ موافقتك على المرور بتجربة كتلك دليل على حبّك الصادق له، لا أحد يعرض نفسه لألمٍ كهذا من أجل رد الجميل فقط، اسمعيني يا أروى، حبّك لزياد- سواء سلّمت بوجوده أم لا- ليس مجرّد إيجاد رجل مناسب للزّواج؛ هذا نوعٌ من الحبّ يغير نظرتك للحياة، يخرج قلبك من صدرك وينظّفه من أدرانه ويعيده جديدًا كقلب طفل، لا تأخذي قرارَك الآن، ابقي اليوم في الغابة بعيدًا عنه، وفكّري وحدك، خذي قرارك إنْ كان يمكن أن تقدّمي تلك التضحية من أجل مخلوق طاهر كهذا يحبّك بطريقةٍ لا توجد في عالمك الذي تعيشين به، خذي قرارَك، وفي حال رفضك ستعيدك الجزيرة إلى بورا بورا خلالَ دقائق".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٠

زياد- موتو موايا- مايو ٢٠١٩

الحبّ هو ما لا تدركه إلّا حين تكون غارقًا فيه، كلّ ما كتبه البشر عن الحبّ وقالوه لا يصف إلّا بعضًا ممّا شعرت به عندما أحببت أروى، وأنا بعدُ لم أدرك حقيقة شعوري، لم أعرف توصيف تلك المشاعر الكثيرة إلّا عندما انصرفت عنّي غاضبة مولية وجهها شطرَ الجبل غير مقتنعة باعتذاري لها بعد أنْ أعطتني رسالة بعينيها تقول "أنا لا أعرف من أنت".

العجيبُ أنني شعرتُ حين صرخت وهي على الشاطئ أنّ في الأمر حيلة، بعد صرختها الأولى حاولتُ استكشاف وضعها بموجاتي الصوتية، عرفت أنّها جالسة في الخصّ، وأنه لا يوجد حولها ما يهدّدها، قلت لنفسي إنّها قد تكون مصابة، لكنّ المصاب يتألم أو يطلب النجدة، أمّا الصّرخة فتأتي من مفزوع متفاجئ بوضع خطر. رغم ذلك لم أشأ تركَ الأمر للظروف وخرجت لأرض الجزيرة وتحوَّلت أمامها، قلت إنه لا بدّ أن تأتي لحظة وتعرف فلتكنْ تلكَ اللحظة، لم أتوقّع هذا القدر من الغضب والاتّهام الذي حاولت أن أنفيه وأبرّره، لكنّها انصرفت بهذا الشكل.

مكثتُ ساعة بعد أنِ انصرفت أفكّر فيما ينبغي عمله، هل يجب أن أذهب إليها ثانية، هل النساء حقًّا كما يقال؛ يقلنَ غيرَ ما يُردن، تنهاك الواحدة عن الاقتراب منها ومحاولة الاعتذار وهي جالسة في ركنٍ قصيّ تنتظر اعتذارك، تقول لك لا أريدُ أن أسمع صوتك وهي تنتظر كلمة تطيّب خاطرها، هل هذا حقيقي؟ هل هذا منطقي أصلًا أم مجرد خرافات كتاب علمتني الجزيرة إيّاه بدون سبب. أم ترى هناك سبب، المفترض أنْ تعلمني الجزيرة حكمة البشر وتاريخهم فهل العلاقةُ بين الذكر والأنثى والتعقيدات التي تملؤها تعتبر جزءًا من تلك الحكمة. يقولون إن تلك العلاقة بين الجنسين حركت مجريات كثيرة في تاريخ البشر وحياتهم، هناك حرب قامت من أجل علاقة حب مرفوضة، وهناك حرب قامت لأنّ رجلًا ما انتهك حرمة أنثى. كلّا، أعتقد أن هذا تبسيط مُخل، الحقيقة في ظنّي أنّ الجزيرة علمتني ذلك لأنها تجهّزني لأن أحب امرأة وأحتفظَ بها، وأستطيع بذلك أن أتحوّل التحول الأسمى؛ التحول الاختياري.

بعدَ كلّ ذلك التفكير قمت من مكاني داخلًا الغابة، اصطدت أرنبًا وشويته وشويت بعض الثمار وأخذتها وذهبتُ إليها في الغابة، لم يكن هدفي أن أسترضيها، ولا أعرف كيف ستفسر تلك الخطوة، لكنّني لم أستطع تركها هكذا بدون غداء. كانت عند النبع شاردة تنظر للماء المنساب كأنّها تحاول فكّ شفرة، رأتني فقطّبت جبينها دون أن تنطق، فردتْ على الأرض ورقة شجر

كبيرة، ووضعت لها نصفَ الأرنب المشوي وثمرتين، وانصرفت دون أن أتكلم، انصرفت ببطء وجعلتُ نفسي في مرمى بصرها لأطول فرصةٍ لعلّها تناديني لكنها لم تفعل.

حين اقترب الليل ذهبت قرب مكانها بحيث لا تراني، بنيت لها خصًّا بين ثلاثة أشجار، سهلت لي بناءه بسرعة، وأعطته دعمًا قويًّا. حين انتهيت منه ذهبت إليها عند النبع، لم تكن هناك، شعرت بالخوف وناديتها، لم تجبني، بحثت عنها، وجدتها آتية في تجاه النبع صامتة كأنها لا تريد أن تردّ علي، "هل يعقل أنها تنتظر اعتذارًا؟".. سألت نفسي ولم أجد إجابة، قلت لها "لقد بنيتُ لك خصًّا لتنامي فيه بالقرب من هنا".. فقالت "لماذا؟".. قلت "خفت أن تنامي في العراء".. فقالت "لماذا؟".. فأسقِطَ في يدي، ولم أجدْ إجابة، واكتفيت بأنْ أشرت لمكان الخص.

حين رأته شعرت أنّها تقمع فرحتها، ولا تريد أن تشعرني بها، لم أحاول أن أسألها إن كان أعجبها وكدتُ أنصرف، حين ولّيت وجهي عنها منصرفًا قالت "لماذا؟".. فقلت "لا أدري، لا يمكن أن أتركك تنامين في العراء، ولا يمكن أن أدفعك لتتنازلي وتأتي للنوم عند البحر وأنت لا ترغبين بذلك".. مسحت وجهي بعينيها، وشعرت أن ثمّة لمعة دموع تتألق فيهما، ثمّ قالت بصوت أكثر خفوتًا "لماذا؟".. قلت "لا أدري، أنت ... أنت".. اختنق الكلام في حلقي ولم أعرف ما بقيّة الجملة التي ينبغي قولها، فردّت علي تستحثني أنْ أكمل "أنا..؟".. فقلت لها "أنت أروى، أنتِ لا تستحقّين أن تهملي، أو تُتترَكي لمعاناةٍ أو تجبري على شيء تكرهينه، أنت...".. فقالت وهي تقترب منّي "أنا ماذا؟".. فقلت "أنا لا أعرف ما ينبغي قوله، أعرفُ لغتك لكنني لا أعرف كيفَ أوَصِّفها في شرح ما لديّ بدقة، كلّ ما أريده أن أسعدك وأطمئن عليك، كأنها غريزة لا تفسيرَ لها، ولدت معي وكانت تنتظرُ ظهورك في الدنيا لتعبر عن نفسها".

فوجئت بها تميلُ عليّ، وتفتح ذراعيها وتضمّني بقوة، وتنخرط في نشيج مرتفع، وتقول "هل ظننتَ أننا يمكن أن نعيش معًا؟".. فقلت لها وأنا أضمّها لي بالمقابل "لم أظنّ شيئًا، لم أخطط لغد، مازال داخلي قلبُ دولفين لم يختبر قدرةَ البشر على التخطيط لمستقبل أعوام قادمة، أنا أحبّ أن أراك، أحبّ ضحكاتك الجذلة، وبساطتك معي في أي حال كنت فيه معك، أنا أخاف عليك، لا أستطيع تخيّل أنك تعانين، أنا عرفت معك عاطفة لا أستطيع وصفها، لكنني أيضًا لا أستطيع التفكير في تبعاتها، لا أعرف إجابة سؤال ماذا بعد؟ الذي تجيدون الإجابة عنه، كلّ ما أريدُه الآن أن أعيدَك للأمان دون أيّ تفكير في تبعات ذلك، والغد الذي سيأتي بعده".

ظلّت ممسكة بي لدقائق، صامتة لا تتحرك، دقائق طويلة كأنها سنوات، على عكس المألوف عند البشر، كانت الدقائق بطيئة لأنّها كانت حلوة وليس لأنّها

كانت مرّة، كانت بطيئة لأنني شعرت فيها بآلاف النبضات والهمسات، شعرت ببوحها دونَ أن تتكلم، ونقلت لها بوحي دون أن تفلت منّي همسة، فقط بعض الأنفاس المضطربة وضربات قلب سريعة الإيقاع قلتُ فيها كلّ ما يموج في نفسي.

"أناديك زياد أو ماوري؟".. سألتني، فقلت لها "وهل تحتاجين إجابة لهذا السؤال، زياد صار اسمي منذ اخترته أنتِ لي".. اعتدلت وهي تفلتني وتمسحُ دمعة من على خدّها وتقول "هل تريد أنْ تقنعني أنّ اسمك صار زياد لمجرّد أنني قررت ذلك؟!".. فقلت "نعم".. فقالت ضاحكة "أمر غريب".. فقلت لها "لله في خلقه شئون، ليس أغرب بالطبع من قدرتي على التحول البشري".

جلستْ على الأرض أمام خصّها الجديد، ثمّ قالت "زياد، أنا أشعر أنني مضطربة جدًّا، هل يمكن لي أن أنام هنا وحدي، وأن تعود أنت إلى الشاطئ؟".. قلت لها "بالطبع، أردت فقط أن أصلح ما أفسدتُه، وأن أثبت لك أنّني لم أقصد الكذب عليك لسبب سيئ".. فقالت "حسنًا، عدْ إلى مكانك، وفي الصباح سنلتقي لنكمل صنعَ الطوف ونرحل من هنا".. فوافقت متحمسًا، وانصرفت عنها لكنّني لم أذهب نحو الشاطئ، وإنما استلقيت على الأرض على بُعد مسافة قصيرة منها دون أن تراني.

كانت تلك هي المرّةَ الوحيدة التي أتمنى فيها لو كان نومُ الدلافين متاحًا لي وأنا في صورتي البشرية، أردت أن أنام بنصف مخّي وفقط، وأبقي النصف الثاني يراقبني. غبت في نوم عميق جاءت معه أحلامٌ عجيبة كلّها حول أروى. حلمت بها في أماكن غريبة وثياب غريبة وتقول كلامًا غريبًا، ثمّ حلمت بها راحلةً عنّي، والسفينة التي كانت فيها تطير في الهواء وتأخذها لتختفي خلف سحب كثيفة، وحلمت بي معها في بيت يطلّ على الجبل، بيت فسيح مثل بيوت البشر، وأنا وهي نتبادل الحبّ كلمات وأفعالًا، همسات وزفرات، نمتزج أجسادًا في رقصة جديدة عليّ لم أشعر بها من قبل، رقصة ينغرس فيها كلانا في الآخر، ويعلو إيقاعها لذروة أيقظتني من نومي على أوّل خيط من خيوط الصبح.

قمتُ وتسحّبت بهدوء نحو خصّها لأطمئن عليها، لكنني لم أجدها فيه، ذهبت عند النبع سريعًا ومشيت بمحاذاة الجدول باحثًا عنها حتى وجدتها. كانت تدفنُ جسدها كله تحت الرمل ولا يبدو إلّا وجهها، عيناها مغمضتان، تبدو نائمة لكنْ ملامح وجهها تتقلص وتنفعل، وأنفاسها تعلو وتهبط كأنّها تعاني. حاولت إيقاظها لكنها لم تستجب، حاولت بقوة أكثر، دون جدوى. حين يئست بدأتُ في إزالة الرمال عنها، ثمّ توقفت حين سمعت العجوز تقول مِن خلفي بصوت آمر "توقف، سوف تؤذيها لو كشفت الرملَ عن جسدها".. التفتّ للمرأة متسائلًا، فقالت "إنّ جسدها هنا وروحَها في مكان بعيد، إذا أردت أن تستعيدها

فعليك أن تدفنَ نفسك أنت أيضًا، وترسل روحك إليها".. لم أفكر ولم أحاول نقاشَ العجوز، فأنا أعلم أنّ الجزيرة لا تتناقش، حفرت الأرض جوارها، ثمّ دفنت نفسي سريعًا، وأغمضت عيني، وكلّ ما أفكر فيه أنني أذنبت في حقها حين عرفتها أصلًا، وأنّ لقاءها بي كان نقمةً عليها بقدر ما كان نعمة لي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣١

أروى- موتو موايا- مايو ٢٠١٩

لم أعرف ما دهاني، كيف تركتُ نفسي أنجرف للحظةٍ مع زياد، وألقي بنفسي بين ذراعيه وأبكي على كتفيه بكلّ هذا النحيب، شعوري معه لم يشبه شعوري مع أيّ رجل، لأنه ليس كأي رجل، كانت مشاعره بها قدرٌ من الصدق لم يتوفّر لبشر، ذقت الحبّ الاجتماعي مع زوجي السابق، والحبّ الحماسي مع رجليْن بعده، والحبّ الحماسي هو ذلك الحبّ الذي تدخل فيه المرأة متحمّسة لتجربة جديدة تنتشلها من ركود مشاعرها مع وجود احتمال كبير أن يتطور نحو الارتباط والزواج، وغالبا ما يفشل لأنّه مبنيّ على التعجل في التجربة. ذقت الحب السينمائي مع كامل؛ كان حبًّا مبهرجًا من الخارج، فارغًا من الداخل. حبّ زياد يمكن أن أسميه الحبّ الروحي الذي لا يحمل أي اعتبارات أخرى، ولا أهداف أو خطط. يمكن أن أسمّيه الحب الأصلي؛ الشعورُ الذي تفرعت منه كلّ قصص الحب التي تحدث عنها الناس بعد ذلك، الحب الذي لا يفنى ولا يستحدث من العدم، تمامًا كطاقة الكون.

كنتُ قد أخذت قراري بالمضيّ قدمًا نحو التجربة التي قالت عليها العجوز، طلبت منّي- إذا قرّرت الموافقة- أن أدفنَ جسدي كله، وأترك رأسي فقط مكشوفة وأغمض عيني، فعلت كما قالت، استسلمت تمامًا، وجسدي كلّه تحت التراب، تنشقت هواء الجزيرة بعمق ثلاث مرات ثمّ غبتُ في النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظتُ من النوم وقلبي منقبض، كانت الساعة السابعة كما يظهر أمامي على المنبه ذي الصّوت الغليظ الذي يفزعني دومًا، هاتفي المحمول بديل أفضل كمنبّه، لكنّني فشلت على الدوام في استخدامه لهذا الغرض، رغم أنّ عليًّا- ولدي الأكبر- حاول كثيرًا أن يشرح لي الطريقة وفشلتُ في تطبيقها. رنّ الهاتف، كانت زميلة علي في العمل، قالت "طنط نادية، روحي لعلي بسرعة عشان ما يتأخّرش ع الشغل، فيه تفتيش، هعدي عليكِ في المستشفى بعد الشغل عشان أجيب الدوا بتاع أحمد".. تأكّدت منها أنّها أحضرت الدواء المستورد الذي أوصى به الطبيب فأقسمت أنّها تأكدت منه، فقلت "روحي يا بنتي، الله لا يسيئك في غالي، ويرزقك بابن الحلال".

قمتُ بإعداد طعام أحمد سريعًا، المسكين ممتنع عن الطعام منذ يومين، قال طبيبه إنها أعراض اكتئاب من طول فترة إقامته في المستشفى والألم المتكرر الذي يعاني منه أثناء الغيار على جروحه، دعوت له وذكرتُ اسم الله على كلّ لقمة لعلّها تكون من نصيبه ولا يبصقها كما يفعل. مرّت سبع سنوات

منذُ رحل أبوهما وأنا لهما الأمّ والأب، عليّ أنهى دراسته في معهد الكمبيوتر ويعمل في شركة في مدينة العبور، وأحمد الصغير أنهى الثانوية وتخلّى عن إكمال الدراسة وبدأ يعمل في أيّ مهنة تقابله، كان شقيًّا مدلّلًا لكنّه كان رجلًا أيضًا، ورفض إكمال تعليمه لأنه أبى أن يكونَ أخوه هو مَن يتولى الإنفاق عليه.

نزلت درجات السلم العتيقة ذات الدرابزين الخشبي، عبرت المدخل الطيني لبيتنا، ألقيت التحية على عاطف سائق التوتوك قبل أن أفتح الباب وأحشر نفسي داخله. "صباح القشطة يا خالتي أمّ علي، أحمد عامل إيه؟".. قال الفتى، الذي كان من عمر علي تقريبًا، وهو يعدل المقود بزاوية حادّة ليستدير عائدًا به إلى الطريق. نزلنا الطريق الهابط من قلعة الكبش حتى الشارع الرئيسي متوجهين لمستشفى المنيرة حيث يرقد أحمد في عنبر الحروق، رآنا شرطي المرور (الأمين سعيد)، تعرّف علينا وحذّر عاطف- كعادته كلّ يوم-؛ فالتوتوك ممنوع في الشوارع الكبيرة، قلت له كالمعتاد "صباحك قشطة يا سعيد يا ابني، معلش أصلي اتأخّرت على أحمد ومفيش تاكسي".. فقال بطيبته المعتادة "خلاص يا امّا، ربّنا يشفيهوولك"، ثمّ عاد لتعنيف سائق ميكروباص يحمّل زبائنه وسط الشارع.

دخلت المستشفى، الكلّ يعرفني فأنا أدخلها يوميا منذ شهرين ونصف، وصلت عنبر الحروق حيث يتغيّر اسمي من "أمّ علي" إلى "أمّ أحمد"، كان أحمد معتدلًا على فراشه، نصف جسده مغطّى بالشاش وقد ظهرت البقع عليه كأنّها نداء من جراحه تطلب تغييرَ الشاش، عليّ يقف جوارَه ممسكًا بعلبة عصير، ويلحّ عليه أن يشربها بدون فائدة.

أخذت موقعي جواره، فتحت علبَ الأكل التي يحبّها، أشاح وجهه- الذي كان مبقعًا من أثر حروقه التي التأمَت- رافضًا دون أن يتكلم، ملأت ملعقة صغيرة من الشوربة- كان فمه ضيقًا بعد التئام الحرق، وقال الأطباء إنّه سيحتاج جراحة لتوسعته إذا نجا- رفض أن يشربها، انفعل وقال إنّه لا يريد، واتّهمني أنا وأخاه بالغباء، لأنّنا لا نفهم الكلام من مرّة واحدة، مؤكّدًا أن "مليش نفس يعني مليش نفس".

أقسمتُ أنني لن أحضر معه غيارَ جروحه إذا رفض الأكل، فأخذ يزعق ويسبّ الزمن الذي حوجه إليّ، وكأنّ ابن الخائبة لم يكن محووجًا لي منذُ ولدته وأرضعته. صحت به في المقابل وانقلبَ صياحي توسّلًا، لكنّه لم يوافق، ثمّ انخرط في البكاء وهو يقسم أنّه لو أكل سوف يقيء، وأنّه سيموت لو دخل غرفة الغيار من دوني.

شهران ونصف للآن أمرّ بتلك اللحظة، خمسة وسبعون يومًا منذ دخل أخوه صارخًا يخبرني أن أولادَ الحرام قذفوا أحمد بمولوتوف وحرقوه أثناء شجار،

خمسة وسبعون مرّة أقف جوارهم وهم يغسلونه بالماء ويزيلون الشاش والقطن من عليه، يتغيّر لون جروحه من البني للأصفر للأحمر، وأحيانًا تكتسي بلونٍ يميل للزرقة من العدوى، ولون حزني عليه واحدٌ كالقطران. بعد المرة العشرين صرتُ أقوم بجزء من العمل، أساعد الممرضة في كشف جرحه، وأناول الطبيب بعض أدواته، إضافة لعملي الرئيسي وهو تهدئته والضّغط عليه ليصبر، وتحمّل شتائمه وهو يقول إنني لستُ مكانه لأطلب منه الصبر، وهو لا يدري أنّ كلّ خيط مِن كلّ قطعة شاش تتحرك من على جرحه تمزّق قلبي، تسيل دمي أكثر ممّا تسيل الدم من جروح أحمد، لم يكن أحمد قليل الاحترام لي من قبل، لكن اللسان الذي يتكلم به وهو يعاني لسان قدّ مِن وجع.

خمسة وسبعون مرّة والوجعُ واحد، التأمت نصفُ حروقه تقريبًا، لكن الجزء الباقي صار أكثر إيلامًا كأنّه يعوّض ما التأم. وفي كلّ مرة أمسك يده وأقبّلها وأقسم أنّ النهاية اقتربت، وأنّ الأصعب قد فات، وأنا أكذب وهو يعلم أنّني أكذب.

اليوم جاء طبيبٌ جديد، جادّ، وحادّ النظرات، وقليل الكلام، طلب منهم أن يغيروا قسطرته البولية (للمرّة الثانية عشرة) ويغيّروا الإبرة الوريدية (للمرة الخمسين)، ويركبوا قسطرة وريدية في رقبته (بعد أنْ أمضى شهرًا دونها، فقد تسببت السابقة في التهابٍ كاد يقتله) ثمّ أمر أن يضعوا له أنبوبًا من أنفه لتغذيته. بكيتُ له، وقلت إنه تعذّب كثيرًا من ذلك الأنبوب في المرة السابقة، لم أعترضْ على خمسة وسبعين جلسة تعذيب في غرفة الغيار، ولا على كلّ تلك الوخزات التي تثقب روحي معَ جلده كلّ مرّة، والتي أحصيتها واحدةً واحدة دون تدوين، لكن أنبوب التغذية يعذّبه طول الوقت، حتى لو كان في صالحه.

ذهبتُ إلى طبيبه المعتاد "دكتور شنودة، وحياة والدتك الغالية، أنا عارفه إنك بتحبّ أحمد وبتعامله زيّ أخوك، كلّم الدكتور الجديد ده قولّه بلاش".. فقال إنه لا يملك حيلة؛ فهو رئيس القسم الجديد، وكلامه أوامر. دخلنا في موجةِ عذاب إضافية مع تركيب ذلك الأنبوب، وانخرطت في بكاءٍ مرّ، وفوجئت باستدعاء الطبيب الجديد لي في مكتبه.

ذهبتُ إليه وأنا أدعو عليه في سرّي، كان جالسًا على الأريكة في وجود شنوده، وطلب منّي أن أجلسَ جواره، شرح لي سببَ إصراره على تركيب الأنبوب لأحمد وأنه في صالحه، استمعت إليه بدون اكتراث، فهُم يبرّرون الكثير ويفعلون القليل، حبّة عيني لا يزال معذّبًا، وحياته مهددة وهُم لا يفعلون شيئًا.

كلّ هذا كوم، وما طلبه كان كومًا آخر، قال إنّه يريد أن يأخذ جلدًا من علي ليعالج به شقيقه، نظرتُ إليه كأنّه مجنون يهذي، ما هذا الكلام! ولماذا لم يقترح أحدٌ تلك الوسيلة العبقرية من قبل، هل يريد أنْ يجرّب في ولديّ الاثنين، قلت له مستحيل، عليّ ينفق علينا، ويحضر لأخيه الأدوية ويرعاه في غيابي، مَن يفعل كلّ هذا، وماذا نفعل إنْ أصيب بمضاعفات هو الآخر؛ هل أجلس أندبُ الاثنين وأموت بحسرتي؟!

قال الطبيب المتجهّم بحزم "اسمعي يا مدام نادية".. قال اسمي هكذا دون أمّ أحمد، أو أمّ علي، وهو ما جعل كلامَه مخيفًا لسبب لا أعرفه. "ابنك هيموت لو أخوه ما اتبرعلوش بجلد".. فقلت معترضة "فالَ الله ولا فالك! أنتَ مفتري كده ليه".. تدخّل شنودة معتذرًا لرئيسه، ومحاولًا تهدئتي وإقناعي، فاقترحت أن يأخذوا منّي جلدًا، فرفض بحجّة أنني حاملة لفيروس سي، ولم أتمكّن من التبرع بدمي من قبل. وقفت وأنا أنظرُ للطبيب الكبير بمقت، وقلت إنّني لن أسمح أن أعرّض عليّ لهذه التجربة "بيقولوا إنك اتعلّمت في بلاد برّه، اتصرّف؛ شوف طريقة غير إنك تحرق قلبي ع الاتنين".

جاءني عليّ في المساء، ورجاني أن أقبل، رفضت بإصرار، فقال والدموع في عينيه "هنسيب أحمد يموت يا امّا!".. نهرتُه وقلت إنّ هذا الطبيب يخرف، وإنّه لا يزال يظنّ نفسه يعيش في بلادِ الخواجات، فقال إنّهم يملكون العلم، والطبيب يستخدم ما تعلّمه ليعالج أحمد، فقلت وأنا أربّت على صدره "يا حبيب أمّك، إحنا غيرهم، جلدنا تخين، ونستحمل، إنّما دول زي الفراخ المستوردة".. لم يعجبه الكلام، وعاد يترجاني، وعندما يئس أخبرني أنه سيتبرّع لأخيه حتى لو رفضت، فأقسمت إنّه لو فعل فسأقطع الأكل والشرب حتى أموت، وانهمرت في البكاء.

يكفيني وجعُ طفل واحد، إنه أكثر ممّا أتحمل، لست خائفة من فشل العملية فقط؛ أنا خائفة من سماع أنين كليهما في وقتٍ واحد، أيّ عذاب هذا، لن يتحمل قلبي صرخة من أحمد، وآهة من عليّ، وأنا جالسة بينهما. الولد لم يكفّ عن التوسل لأوافق، وتدخّلت طبيبة أخرى تحاول إقناعي فسألتها إنْ كان الطبيب يستطيع أن يقسمَ أنّ أحمد سيموت دون التبرع، وأنّه متأكد أنه سيعيش لو تبرّع أخوه، وهل يقسم أنه لن تحدُث أيّ مضاعفات لعليّ، فقالت "يا أمّ أحمد، كلّ حاجة بإيد ربنا، إحنا بنعمل اللي علينا".. فقلت زاعقة "وربّنا ما قالش أضيّع ولادي الاتنين عشان حاجة يا تحصل يا ما تحصلش!".. ثمّ قلت لعلي "اسمع يا ابن البهيمة، ما اسمعكش تجيب السيرة دي تاني، وحسّك عينك تقول لأخوك".

انفضّ المولد، وخضع الجميع لإرادتي، ومرّت الأيام، وأحمد حاله كما هو ثابت، وإن كان وزنه قدْ تحسّن قليلًا بعدما صاروا يطعمونه من الأنبوب بشكل

أفضل، حتى جاء يوم ووجدته يهذي ويذكرُ أشياء من طفولته، ويستدعي أباه ويحدّثه كأنه يراه، ساءت حالته مرّة واحدة، ووضعوه على جهاز تنفّس صناعي، ومنعوني من زيارته إلّا في وقت الغيار لأساعدهم، كان يحتضر لكنه لم يكنْ يشعر بألم الغيار، أو هكذا ظننت، حتّى جاء اليوم الذي ولولت فيه الأجهزة، وأعلنت أنه يموت، وجاء أطباء كثر، يحاولون إنعاشه بدون جدوى.

كنت أواجه موتَه بثبات، حتى جاء عليّ ورأى أخاه الوحيد وقد أسلم الروح، انهارَ باكيًا وهو يتّهمني أنّني قتلت أخاه، أنّني حرمته من فرصته الوحيدة في الحياة بدون مبرر. لم أفهم قصده في البداية إلى أن قال "فيها إيه لو سبتيني أتبرّع بجلدي ليه، حرام عليكِ يا امّا، ذنبه ف رقبتك".. وقفت مصدومة من كلامه، اسودّت الدنيا كلها، وقعت على الأرض أحاول أن أفهم وأنا أدفن وجهي بكفّي. سمعت صوت الطبيب المتجهّم ينهر علي، ويقول له إنّ حالة شقيقه كانت خطرة، وكان يمكن أن يموت حتى لو تبرّع له، قال إنّه عمر الفتى، ولا يمكن أن يتحمل أحدٌ ذنبَ موته إلّا مَن تسبّب في حرقه في البداية.

لكنّ الكلمة قد جرت على لسان عليّ، رصاصة انطلقت من فمه فتّتت كبدي واستنزفت بقية ما تبقّى في روحي المنهكة، شعرتُ بالهواء ينسحب من صدري، ولا أستطيع أن أستنشقه ثانية، ثمّ أظلمتِ الدنيا وأنا أرتجف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتحتُ عيني، أنا أروى، لست أمّ أحمد ولا أمّ علي، لكنني أشعر بطعنة في خاصرتي، هذا ليس حلمًا، لقد كنت أنا، وكان قراري هو ما جعل ذلك الشابّ يموت حتى لو برر الطبيب وحاول أن يهدّئ من روع علي. يا للوجع، فقد ابن، كراهية من فم ابن آخر، ذنب قتيل أتحمّله، فقد الضنى الغالي، وحمل الذنب الأعظم، هل هناك ذنبٌ أعظم من التفريط في روح أمّنك الله عليها؛ أنا مَن أخذت القرار، أنا أروى التي قرّرت أن أترك أحمد ليموت وجرى الكلام على لسان أمّه فقط، هذا ما أشعر به الآن، أشعرُ بألم فقْد الولد كأنّني نادية أمّ أحمد، وأشعر بذنب الفتى كأنّني أروى التي وقّعت على قرار قتله، يا لقسوة تلك الجزيرة اللعينة، يا لخسّة تلك العجوز، أو هي قسوتي أنا وخسّة عقلي، أنا لا أستحقّ أنْ أكون أمًّا، لن أقوى على فقد طفل، ولا على إحساس الذنب إذا أخذت قرارًا خاطئًا آذاه بعد ذلك.

الدنيا تدور بي، تختلط صورة الأشجار بمياه النبع بالأرض من حولي، أجرب تحريك ذراعي للخروج من هذا المدفن الاختياري، لكنّني لا أستطيع، ليس لديّ طاقة، لم أعدْ أرغب بشيء، أغمض عيني ثانية في استسلام، أشعر أنّ قيودي انحلت، أجدني جالسة، في غرفة صغيرة في بيتٍ قديم، ثمّ أسمع صوتَ انفجار في الخارج، والبيت يهتزّ بعنف، فأنكمش على نفسي وأسأل بصوتٍ

مرتفع صارخ "أين أنا؟".. يأتيني صوت العجوز قائلة "أنتِ في بلد صغير محاصر وسطَ حرب ضروس، سيأتي زياد لإنقاذك الآن، لكنّه قد يموت في الطريق، وعندها سيكون دمُه على يديك بالضّبط مثل المسكين أحمد الذي قتلتيه بعنادك ورأيك الفاسد، لو ماتَ زياد محاولًا إنقاذَك سيموت في الحقيقة أيضًا، وستعيشين بذنبين، غير أنّك ستدفنين زياد بنفسك".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٢

زياد- مدينة مجهولة- الزمن غيرُ محدد

كنتُ في بيت على أطراف مدينة لا أعرف اسمها، أروى في وسط المدينة، في بيت آخر في أحد الأحياء التي تتعرّض للقصف من السماء والأرض، أصوات الانفجارات التي تدكها تخلع قلبي، لا بدّ أن أمرّ من الأحياء التي يدور فيها القتال بين جنودٍ من طرفين كلاهما مجنون يريد السّيطرةَ على أرض المدينة حتّى لو كانت أكوامًا من أنقاض وجثث.

قلت لا بدّ أنّ هذا خيال مريض من الجزيرة، عرفت كثيرًا عن حروب عبثية دخلها البشر وذبح بعضهم البعض بالآلاف والملايين بلا مبرر يقنع عقلَ طفل، كلّ مبررات الحروب تناقض كلّ المبادئ التي يتغنّى بها كلّ البشر، الجميع صالح والكلّ مجرم، لكن السماع عن الحرب شيء ورؤيتها شيء آخر. كلّ ما عرفته عن تاريخ البشر لا يثير في نفسي ذلك الغثيان الذي يسري فيّ عندما سمعت أصواتَ القصف والرصاص عالمًا أنّ كلّ صوت يمزق جسدًا أو أجسادًا في المقابل. صوت مدفع يضرب، يليه صوتُ طلقات كثيرة، أيّها قتل أكثر، الصوت الضخم الوحيد أو الأصوات الرفيعة المتكررة، أيّهم اقترب من أروى، وهل قتل أحدهم صورتها في هذا المكان أم لا.

قالت الجزيرة إنّني ينبغي أن أنقذها، أصل إلى البيت المحاصرة فيه روحها، وبمجرد أن ألمسها ينتهي كلّ شيء، تتخلّص من حزنها وإحساسها بالذنب، ومن رعبها الشديد الذي تعيش فيه الآن تحتَ القصف والضرب وخوفها على حياتي. قالت العجوز "لو وصلتَ إليها ستشفيها من كل ما لحقَ بها من التجربة التي خاضتها من أجلك، ستظلّ تذكرك وتذكر حبّك دون إحساس الألم والذنب المرتبطين بالتجربة، وأنتَ ستعيش وتصير من نخبة النخبة، تكون دولفينًا بين الدلافين وبشريًّا بين البشر في أيّ وقت حسب رغبتك".. سألتها "ماذا لو فشلت؟".. فقالت "لا يوجد فشل، مجرّد دخولك سينقذها، لو متّ وأنت تحاول إنقاذها فستفقد ميزتك وتعود دولفينًا عاديًّا تمامًا، وتنسى وجودها وهي ستنسى وجودك، ستعود إلى بورابورا، ولن تذكر إلّا أنها غرقت وأنقذتها يد القدر".

لم يكن الاختيار صعبًا كثيرًا، مجرد دخولي في التجربة سينقذها من ذكرى الألم والذنب الذي خاضته من أجلي حتّى لو فشلت فيها، يكفيني أن أعيدها آمنة، وأخلّصها ممّا لحقها بسببي. المسافة طويلة نحو وسط المدينة والقصف لا يهدأ، خريطة المدينة في ذهني كأنني ولدت فيها، خرجت إلى الشارع، وعدوتُ ملتصقًا بالحائط، الشارع خالٍ من المارة ، الناس ولا بدّ مختبئون، أكثرُ من نصف بيوت الحي الذي أنا فيه مهدّمة، تبدو على الجدران المتبقية

منها ثقوب من أثر الضّرب والقذائف، أتأمّل الخراب الصّامت الذي تحاول أصوات القذائف القادمة من بعيد أن توقظه، ماذا يكسبون من كلّ هذا، أين الناس؟ أين أهل تلك المدينة؟ هل دفنوا تحت أنقاضها أم هجروها خوفًا على حياتهم؟

لم أفهم كيف يتحاربون، هل يقفون على ناحيتين متقابلتين، ويضربون القذائف والرصاص، ثمّ يحصي الفريقان عددَ القتلى، ومَن لديه قتلى أكثر يعترفُ بهزيمته وينسحب أم ماذا، في عالم الدّلافين إن حدث شجارٌ تكون الغلبة للعددِ الأكبر وانتهينا، لكن لا بدّ أن للبشر قواعد أخرى. فكّرت في احتمالات كثيرة قبل أن تقطع أفكاري سيارة كبيرة تولول بصوت عال، وعليها أضواء متراقصة تبدو رغم أنّنا في وضح النهار.

فهمتُ بعد لحظات من التأمل أنّها سيارة إسعاف، أرجو الله ألّا تكون أروى هدفًا لندائها، مجرد ورودِ الفكرة بخاطري جعلني أعْدو في طريقي، كنت أقترب من منطقة تتصاعد فيها أصوات الرصاص، قلت لنفسي سأبدأ بالحذر عندما أصلُ إليها. تذكّرت أنّ هناك طريقًا أطول قد يكون بعيدًا عن تلك الأصوات، لو قطعته عدْوًا فستكون المدّة أقل، انحرفت في أول شارع يقود نحو ذلك الطريق، عدوتُ بكلّ قوتي، حماسي توقّد، وشعرت بالأمل حين سمعت أصوات الرصاص تخفت، خففت من سرعتي لألتقطَ أنفاسي لكنني لم أتوقف حتى تعثرت وانكفأت على وجهي، استندت على الأرض لأقف ثانية لكنّ يدي ارتطمت بجسد بشري.

كان ميتًا، جسده لا يزال دافئًا، ثمة بركة دم كانت تمتدّ منسابة من رأسه الذي تفتت جانبه، أول مرّة أرى بشريًّا مقتولًا بالرّصاص، لم يكن هناك وقت للتأمل أو لامتصاص الصدمة، كنت في مهمّة حرجة، اعتدلت سريعًا لكنْ سمعت صوتًا قاصفًا وأزيزَ رصاصة تمرّ جواري، لم أدرِ كيف أتصرّف، قمت مهرولًا في طريق متعرّج كأنّني في المحيط أهرب من القروش النمرية وصوتُ طلقات تئزّ من حولي حتى وجدت أمامي حاجزًا من براميل وإطارات حوله مجموعة من المسلحين، شهروا بنادقهم باتجاهي، وأحدهم يقول "توقف".

تسمّرت مكاني، سألني أحدهم "مَن أنت؟ تبدو غريبًا عن هنا".. قلت "أرجوك يا سيدي، إنني هنا لإنقاذ امرأةٍ مريضة محصورة وسط المدينة".. تفحّصني الرجل بنظراته المتشككة، وقال "من أين أنت؟".. قلت له "أنا صحافي من البيرو، وزميلتي تركتها منذ يومين وأريد استرجاعها".. ضحك الرجل ساخرًا وقال "زميلتك فقط، وتخاطر بحياتك لتسترجعها!".. ثمّ ابتسم بشراسة أوركا توشكُ على التهام حوتٍ وليد، وهوى على وجهي بلكمة قوية أسقطتني أرضًا.

شعرتُ بغضب شديد، وكدت أهاجمه رغم ما معه من أسلحة هو وزملاؤه، لكنّني تذكرت أنني سأخسر كثيرًا لو متّ في تلك المدينة؛ سأعود مجرّد دولفين عادي آكل السمك وألهو مع أقراني، وهو ما أخشاه جدًّا. أمسكني أحدُ المسلحين وجرّني جرًّا قرب حائط، وأجلسني على الأرض، ثمّ ركلني وهو يسألني "مَن أنت؟ تكلم.."‏.. فكرّرت كلامي فركلني ثانية، ثمّ أمسكني من عنقي وأوقفني وألصقَ وجهي بالحائط وهو يتشمّمني كأنّني فريسة يوشك على التهامها.

سأل ثانية "تريد أن تقنعني أنّك لست أحدَ المخابيل الذين أتوا من آخر الدنيا ليقاتلوا في صف أعدائنا؟!"‏.. فقلت متصنّعًا البكاء "أقسم لك إنّني لم أمسك سلاحًا طيلة عمري، أرجوك اتركني أمضي في حالي"‏.. فأمسكني من رأسي وضربَ بها الحائط عدّة مرات وهو يسبني بألفاظ مقذعة ضايقتني رغم أنّني لا أفهم معناها بشكلٍ كامل، ثمّ ألقاني على الأرض ثانية وأنا أشعر بالدوار يكتنفني.

سمعتُ صوتًا آخر يسأل اللعينَ الذي ضربني عن ذلك المرمي على الأرض، فقال إنه يشك بي، فقال الآخر "يبدو لي أنّه فعلًا من أمريكا اللاتينية، ملامحه تشبههم"‏.. فقال اللعين "أنت أعلم منّي يا سيدي، لكنني أرى أنْ نستبقيه حتى نتأكد"‏.. بقيت نصف ساعة مرميًّا على الأرض وهُم يتحرّكون ويتحدثون ولا أحد ينتبه لي. كنت أفكّر ثانية في محاولة الهرب منهم، فكلّما طال الوقت كلّما طالت معاناة أروى، وزادت احتمالية قتلي أيضًا. حاولت الاعتدال في جلستي لكنني فوجئت بركلةٍ قوية تعيدني للأرض مجددًا.

كنت أتألم لكنّ دهشتي ومقتي لسلوك هؤلاء أقوى كثيرًا، تخيلت لو أنّني إنسان حقيقي يعيش تلك التّجربة في الحقيقة، كيف يتحمل بشرٌ أن يُهان ويُضرب هكذا، ويعامل كأنه نفاية ألقاها بشري أحمقُ من سفينته، أو كأنّه طحلب ضارّ ينبغي اقتلاعه. بل كيف يتحمل ذلك اللعين الذي يركلني كلّ تلك الحقارة في داخله، أيّ غريزة ملعونة تحرّك البشر ليفعلوا ذلك، إن الميزة العظيمة التي سأتمتّع بها لو صرت بشريًّا بينهم هي أنني لنْ أمتلك تلك الغريزة؛ فأنا لم أولد بشريًّا، ولم أرضعْ من لبن البشر الذي- ولا بدّ- يحمل شيئًا يغذّي تلك الغريزة فيهم. من حسن الحظّ أيضًا أنّ أهل الجزر في جنوب الهادي مسالمون طيبون، لا تدور بينهم تلك الحروب في الزمن الحالي على الأقل.

مكثتُ وقتًا أطول محاولًا تركيز كلّ حواسي لأجد فرصة أخرى للهرب من هذا المأزق. رأيت الشخصَ الثاني- الذي كان يفترضُ صدْقي- واقفًا بالقرب مني. همستُ له بصوت متعب راجيًا أن يستمع إليّ، فقال بغلظة "ماذا تريد؟"‏.. قلت له "أقسم لك إنّني لا علاقة لي بـ.." لم أكمل كلامي فقد قاطعني صوتُ

طلقة رصاص مرتفع، ورذاذ كلّه دم يغرقني، وجثّة الرجل تسقط فوقي، ثمّ انطلقت معزوفة مجنونة من بنادقَ تصيح من كلّ اتجاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٣

أروى- مدينة مجهولة- زمن غيرُ محدّد

افترشتُ الأرض دافنة وجهي بين كفّي، البساط خشن يؤلم كفّ قدمي، والجدار يهتزّ كلّ قليل من وقْع الانفجارات التي تدكّ الأرض على بُعد مئات من الأمتار تزيد وتنقص دون ترتيب محدد. كلام العجوز واتّهامها أنني سأكون المذنبة أيضًا لو مات زياد هنا؛ يستحوذُ على تفكيري لحظات قبل أن تحتلّه صورة أحمد وهو يحتضر، وعليّ وهو يصرخ متّهمًا. لم أفهم حقًّا ماهية ما يحدث.. هل حلّت روحي مثلًا في روح "أمّ أحمد" وأخذت القرار بدلًا منها، أم أنّني كنت في حلم عميق يتبدّى كالحقيقة. أيًّا كانت حقيقة ما حدث فقد كنت أتذكّر أحداثًا مؤلمة من حياتها حتى قبل أحداث الحلم كأنّني عشتها بكلّ تفاصيلها، أتذكر وفاة زوجها وسنين الوحدة والمعاناة من الفقر والحاجة بعد سنين عاشتها منعّمة معه، أذكر انتقالها من بيت نظيفٍ إلى جحر فقير في بيت مُتهالك، أذكر خبرَ إصابة أحمد وأيام ألمِه كلّها، بل كلّما داهمتني ذكرى معاناته تداهمني ذكرى آلام ولادته التي كانت متعسّرة طويلة، أجبرت الطبيب على أن يستخدم شفاطًا لمساعدته على الخروج منها.

لم أستطعْ مقاومة حزني على حياتي كـ "أمّ أحمد"، لكنّني كنت أقدر في مقاومتي لمحاولة العجوز الخبيثة إشعاري بالذنب تجاه زياد. إنه قراره هو؛ لقد خضت ذلك الألم كله من أجله بغضّ النظر عن السبب لأنني أحبّه، أم أردّ له جميلَ إنقاذ حياتي. ثقب طبلة أذني صوت انفجار قريب جدًّا، وكسر زجاج النافذة ألف قطعة، تناثرت الشظايا عليّ، نفضتها في فزع وأنا أتساءل عنِ احتمال أنّ ثمة انفجارًا قد يقتل زياد فيمَن يقتل. انفجار آخر أقرب رجّ البيتَ تمامًا، ومن النّافذة رأيت جانبًا يتهاوى بالكامل من المبنى المجاور، وأصوات صراخ وتحذيرات تتصاعد من كلّ مكان.

لم تقلِ العجوز شيئًا عن احتمال موتي أنا، هل سأموت في الحقيقة أم سأنجو وأفقد زياد، أم أن هذا البيت لا يمكن أن يتأذّى، وسوف أظلّ بأمان فيه حتّى يأتي زياد أو يموت فتنتهي التجربة، أم أنّ الأمر برمّته خدعة، غرضُها إثبات أنّ أحزاني القديمة كانت أتفه من أن تذكر. حين أقارن أقسى لحظات حياتي بالمعتاد في حياةِ نادية أدرك مدى حمق مقولة أنّ الحزن والسعادة مقسمون بالتّساوي بين البشر، فحظّها من الأوجاع أوفر منّي بمراحل، وحين أقارن بين أقسى لحظات نادية وأيّ امرأة من اللواتي يصرخن بالأسفل أدرك أنّ المعاناة درجات، فهنّ يعشن بالتأكيد معاناة أسوأ منها. جعلني ذلك الخاطر أفكّرُ في صوت المرأة الذي يصلني من أسفل تستغيث، زحفتُ نحو النافذة متجنّبة شظايا الزجاج، ثمّ نظرت بالتدريج نحو الأسفل.

كانت المرأة تصرخ، جزءٌ من جسدها مدفون تحت الأنقاض، وهي تحاول بيأس أن تزيل الأكوامَ من حول الباقي وتصرخ طالبة النجدة بصوتٍ يعلو وينخفض. نظرت نحوي، أجفلت فسقطت للوراء وانغرستْ شظية في كفي. أزلتها وأنا أصرخُ من الألم وأبحث حولي عن شيء يصلح كضمادة، المرأة في الأسفل تصرخ بي "أرجوك، أنقذي طفلتي، الجميع هرب ولا يوجد غيرك".. طفلتها! لم أبصرْ أطفالًا، هذه المرأة تكذب "أرجوك، ستموت البنت لا أريـ... بووووم قطعَ صوتها انفجار آخر، قصف يرميه وحش يقف بعيدًا ولا يعلم ما يجري هنا. صمت كلّ شيء، أطليت من النافذة ثانية، رأتني المرأة، كانت تنظر حولها في فزع لعلّها تريد التأكد من أن ذلك الانفجار لم يقتلها، نظرت نحوي ثانية، وقالت بتوسل "أرجوك..." ثمّ نظرت ثانية نحو الأنقاض في الأسفل، وقالت بصوت مرتفع حاولتْ أن تجعله هادئًا "لا تخافي يا حبيبة ماما، سأخرجك حالًا".

لم أقوَ على المقاومة أكثر، فتحت الباب ونزلتُ السلالم قفزًا، لم يقابلني إنسان واحد كأن الجميع فرّوا، خرجت من الباب ودرتُ حول المبنى، كانت أغلب المباني مهدّمة، على الأقل من ناحية واحدة، وصلت للمرأة وحاولتُ أن أساعدها على الخروج لكنّها استوقفتني وطلبت مني أن أخرج ابنتها، وقالت باكية "لقد صمتت، لا أعرف ماذا حدث لها".. أشارت بيدها نحو بقعة أخرى، كانت فجوة بين الأنقاض زحفتُ داخلها فوجدت طفلة لا تتجاوز الخامسة تعفّرت بالتراب بالكامل. مسحت التراب عن وجهها، كانت صامتة لكنّها تتنفس بانتظام، على خدها سحجات لم تفلحْ في إخفاء وجهها الملائكي. حاولت أن أخرجَها لكن قدماها كانتا عالقتين، تأوّهت البنت في ألمٍ، فنهرت نفسي وبدأت أزيلُ التراب والحجارة من عليهما، ثمّ رفعت قطعة خرسانية كبيرة كانت قدمها محشورة أسفلها.

تحرّرت البنت بالكامل، بدأت أجرّها برفق وأنا أسندُ ساقها المكسورة كي لا أزيد ألمها، خرجت بها أخيرًا من الفجوة، كانت الطفلة قد أغمي عليها ثانية، بكتْ أمّها وهي تحاول أن تنال منها كلمة، أو ردًّا أو بكاءًا حتى، لكنّ الطفلة كانت صامتة. حاولت تحرير المرأة لكنها قالت بصوت واهن "دعيني أرجوك وخذي البنت للمستشفى، إنّه قريب".. حاولت أن أقنعها أن تتركني أخرجها أوّلًا، لكنها أبتْ وقالت "الوقت حرج لها، لا بدّ أن يراها الأطباء حالًا، أرجوك".

وقفت حائرة، لو ذهبت بالطفلة للمستشفى فقدْ يأتي زياد ولا يجدني، لكن لا يوجد مبرر لترك هذه الطفلة تصارعُ الموت، خطرَ في بالي أنّ الأمر برمّته خدعة، فليس هناك أمّ ولا طفلة توشك على الموت، وهذا كلّه خيال. سألت نفسي "ما فرصة أن يكون هذا حقيقيًّا، وأكون قد جئتُ هنا بطريقة سحرية ما،

وأنّني في موقف حقيقي لو تركت تلك الطفلة فيه ستموت حقًّا؟". إنّها فرصة ضئيلة فعلًا، لكن حياة طفلة على المحكّ لا يمكن تجاهلها.

حملتُ البنت على صدري، سألت المرأة عن الطريق، أشارت بطول ذراعها نحو طريق كان رئيسيًّا ذات يوم، على ناصيته مبنى مُنهار تمامًا، وقالت إنّ المستشفى في آخره على بعد كيلومتر تقريبًا. هرولتُ وأنا محتفظة بمسافةٍ بيني وبين المباني مَخافة أن يسقط أحدها علي، دخلتُ الشارع الرئيسي، كان فيه مبانٍ سليمة أكثر من غيره، زدتُ سرعتي والفتاة تتأوّه كلما ارتطمتْ ساقها المكسورة بجسدي لكنّها علامة جيدة رغم أنّها مؤلمة.

سمعتُ صدى انفجار قريب، التفت خلفي فوجدتُه قد أصاب مبنى تجاوزته للتو، حمدت الله وأسرعتُ الخطى، دوّتْ قذيفة ثمّ انفجار ثانٍ بالقرب منّي قذفني على الأرض وأنا أحتضن البنت بقوّة أكثر، لم تصرخْ فشعرت بالرعب، وحاولت إفاقتها والاطمئنان عليها وأنا جالسة بالقرب من موقع الانفجار السابق. رأيت طائرة تحلق، صوتُها مزعج، تلته أصوات انفجارات غير بعيدة أيقظت البنتَ ثانية، وجعلتني أقوم لأهرول ناحية المستشفى.

شعرتُ بخوف شديد، قد يكون زياد ضحية انفجار منها، لم يسعفني الوقت للتفكير فقد دوّى انفجارٌ على شمالي، فأجفلت وزدتُ سرعتي، دوّى انفجار آخر خلفي وثان وثالث، تتوالى الانفجارات فتجعلني أسرع كأنّها سوط يهوي به حوذي على ظهر حصان، ضربة أخرى وسقطة ثانية، وصرخة ألمٍ من البنت بعد أن ارتطمت ساقها بالأرض وأنا أسقط، ثمّ اعتذارات منّي بلا معنى، وأنا أكمل في طريقي حتّى وصلت باب المستشفى، وكانت المفاجأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٤

زياد- مدينة مجهولة- زمن غير محدّد

فهمتُ بالسليقة- أو ربّما من معلومة عرفتها- أنّك حين تعلق وسط إطلاق نار عليك أن تلتصق بالأرض، وتزحف بعيدًا عن منطقة الاشتباك حتى تجدَ ملجأ أو جدارًا تحتمي خلفه. زحفت على الأرض ببطء، وأزيز الرصاص يكاد ينفذ من أذني إلى تلافيف مخّي، رأيت واحدًا من المقاتلين- نفس الشخص الذي أهانني- يطلقُ رصاصه بغزارة، ويفتش بعينيه عن ملجأ يحتمي خلفه وهو نصفُ واقف، كان وجهُه مرتعبًا كأنّه يتوقع أن تخترق رصاصة جسده في أي لحظة.

حكّت رصاصة جلدَ ظهري، وأخرى احتكّت بفروة رأسي، وأثارت كلّ واحدة ألمًا شديدًا ونزفًا قليلًا. اختبأت خلفَ جدار أخيرًا، كنت أرى الرجل لا يزال يطلقُ رصاصه ويتراجع، عيناه متّسعتان، وفكّه منطبق بقوّة تكاد تكسر أسنانه، وذراعاه ينتفضان مع خروج الطلقات من سلاحه، ثبت المشهد على تلك الصورة وقتًا ما قبلَ أن يسقط مضرجًا بدمائه ويزحف نحو مكمني.

المرّة الأولى التي أرى فيها بشرًا يحتضر، كان يتنفّس بسرعة، يتناثر الدم من فمه كالرذاذ الخفيف مختلطًا بريقه، لم أكنْ أعلم ما ينبغي فعله في تلك اللحظة، ارتبكت أكثر من أي لحظة سابقة في حياتي، الرصاص كالمطر يتساقط من جانب إلى جانب بدلًا من أن يتساقط من السماء، الرّجل يتألم ويئنّ ثمّ يبكي ويتوسّل بكلام لم أفهمه، أحاول أن أعرف معنى ما يقول لكن كلماته كانت مختلطة بغرغرةِ الدم في حلقه. شعرتُ بالأسى من أجله، كان منذ دقائق يدبّ الأرض بقدميه كأنّه يمتلكها، كان يركلني وهو يشعرُ بقوّة وسلطة تسري في كلّ خلاياه، والآن هو مجرد طفلٍ بائس لكنّه يستجدي بدل الحلوى أنفاسًا إضافية من الهواء الخانق.

الحربُ في الحكايات وكتب التاريخ شيء تافهٌ لا يقارن بلحظة واحدة كتلك التي أراها الآن. كيف استطاع الكتّاب والمؤرخون من البشر أن يختصروا الحروب في أرقام هذا قتيل واحد فقط، شخص قد يحكم عليه الكثيرون بأنّه مجرم حرب، ويحكم غيرهم بأنّه بطل، لكن تبقى الحقيقة الثابتة أمامَ عيني أنّه طفل مسكين يبكي محتضرًا في حجر أمّه، لا يختلف بأي حال عن صغير حوت أحدب يتنازع لحمَه اثنان من الأوركا وهو ينظر ناحية أمّه طالبًا منها الغوث، وهي عاجزة.

ماتَ الرجل، استفرغ أنفاسَه المعدودة في الدنيا، سال ما يكفي من دمه لتسلب الحياة معالمها من جسده، همدَ تمامًا، تحوّل من كائن ينبض بالحياة

إلى مجرّد غذاء للأرض ودودها. تباطأ صوت الرصاص وبدأت أتحرّك زاحفًا مبتعدًا عن ميدان قتالهم، توقف إطلاق النار أخيرًا، ربما يئس الفريقان من السيطرة على المكان، أو اكتفى كلّ منهم بعدد قتلاه.

استطعتُ الابتعاد عنهم وسرتُ في طريقي، رأيت رجلًا يمشي بصعوبة، وخيطٌ من الدم يسيل منه، ما إن تجاوزته حتى سقط على الأرض، وناداني بصوت مبحوح "أنقذني يا بني".. التفتّ نحوه، كان متغضّن الملامح، يبدو أنه عجوز قادَه حظّه العاثر لمكان القتال فاصطفته رصاصة دونًا عن المتقاتلين. عدتُ إليه لأطمئن عليه، فقال "خذني للمستشفى يا ولدي".. جلست جواره أفحصه، كان ينزف من أسفل فخذِه بغزارة، احترتُ ماذا أفعل، وجدته ينزع حزامًا جلديًّا من ملابسه، ويطلب منّي أن أربط أعلى فخذه بقوة لأوقف النزيف.

قمتُ بما طلبه وسط صرخات منه، قال وهو يلهث من الألم والخوف "شكرًا لك يا ولدي، لقد أوقفتَ النزيف، أعني عليّ الوقوف حتى أسير معك للمستشفى".. قلت له "إنّني ذاهب في مهمة عاجلة، لا أستطيع التأخّر عنها".. فقال "هل مهمّتك تستحقّ أن تترك رجلًا في عمر أبيك للموت في الشارع؟!".

أسقِطَ في يدي، ماذا أفعل، هل أترك رجلًا مسنًّا كهذا لمصيره، أم أترك أروى تنتظر أكثر، وقد يتعرّض مكانها للقصف وتموت قبل أن أصل، لم تخبرني العجوز بالمصير لو ماتت أروى هنا، ونسيت في غمرة لهفتي على إنقاذها أنْ أسأل، لكن تركها تموت هنا خطوة مخيفة. الذهاب بالرّجل للمستشفى سوف يؤخّرني عنها كثيرًا، كلّ دقيقة تحمل معها نذيرَ موت في هذه المدينة، القذائف تتساقط من أكثرِ مِن اتجاه، وأيّ واحدة منها قد تأخذ في طريقها البيت الذي تمكث فيه. قالَ الرجل ثانية "لا تتركني للموت يا ولدي، تبدو طيب القلب".

سأتأخّر عنها ساعة تقريبًا، يكتنفني شوق عميق لرؤيتها لا يقلّ قوة عن احتياجي للاطمئنان عليها، كلا الأمرين يضغط عليّ، ويقول لي "دعِ الرجل يقابل مصيره، لا يفترض وجودك هنا أصلًا، فليعتبر أنك لم تمرّ".. فأعود أقول "لا يصحّ الافتراض هنا، مَن يدري، ربما كان سبب وجودي هنا هو إنقاذَ حياته، ومهمّة إنقاذ أروى مجرّد مهمّة إضافية".. كنت أشعر أنني أهذي أو أتخبّط في أفكاري. توقفت لحظة، استجمعت أفكاري، قلت لنفسي أن أدعَ كلّ الأفكار وأعود للأساس، أحكمُ على الأمر كدولفين؛ لا كإنسان، أنْ أجرّد الموقف من ما يحيط به، كانت الإجابة مباشرة تمامًا، لا يمكن أن أترك رجلًا مهدّدًا بالموت المحقّق لمجرّد احتمال تعرض أروى للخطر، وهي في مكان مقفول عليها.

أمسكتُ الرجل وجعلته يستند علي، ثمّ مشيت معه ببطء نحو المستشفى، قال وهو يئنّ "أنت شابّ طيب، تذكّرني بولدي، آه، أوحشني كثيرًا، وأوحشتني

امرأته وأولاده، الأحفاد يا ولدي قرة العين ودفء القلب".. قلت له "أين ذهب ولدك وأحفادك؟".. سألته وكلّي خوفٌ من أن تكون الإجابة أنهم قضوا تحتَ أنقاض بيتهم، لكن العجوز قال "هاجروا مع مَن هاجر".. فقلت "ولماذا بقيت أنت؟".. فقال وصوتُ انفجارات متتابعة يتردّد من بعيد "هذه الأرض قطعة منّي لا يمكن أن أبترها".. قلت "وولدك؟ وأحفادك؟ أليسوا...".. قاطعني صوت انفجار قريب فسكتّ فابتسم مشجّعًا لي أن أكمل، فقلت "أليسوا قطعًا منك أيضًا؟".. فقال "بلى، لكنّ الأرض قطعة ثابتة مربوطٌ جسدي إليها، وأولادي قطعة تتحرّك كما قدّر الله لها".. قلت "لكنّ الأرض خربت، لم تعدْ نفسَ الأرض".. فقال "حتى لو صارت بلقعًا أو قاعًا صفصفًا، ستظلّ أرضي".. قلت "ألهذا يقتلون بعضَهم بعضًا، من أجلها؟".. فقال "الأرض تهبُ الحياة لا الموت، هؤلاء يقتلون بعضهم من أجل الدنيا ومطامعها".

اقتربنا من المستشفى صامتين، جعلتني كلماته أفقدُ قدرتي على الحديث، كلما اقتربت منهم شعرتُ أنني بعيدٌ جدًّا عنهم، لا عجب في ذلك؛ فالبشر جميعًا بعيدون عن بعضهم، في رأس كلّ واحدٍ منهم عالم يختلف عن ما في رأس غيره، لم أعرفْ مدى صحة كلامه، ولن أعرف يومًا، الحكمة المدوّنة التي وهبتها لي الجزيرة شيء، والحكمة النابعة من التجربة شيء آخر، ليست الحربُ فقط ما تقصر الكتب عن وصفه، بل شعور بسيط كشعور هذا الرجل يستحيل أن يصل إليّ من كتابٍ ويخترق قلبي كما فعلت نبرةُ صوته وهو يتحدّث عن أرضه بهذا الألم والصدق وهو يبرّر غياب ابنه وأحفاده.

دخلنا من باب المستشفى حيث الهرج والمرج، وحيث يجري الناس في مئات الاتجاهات ويفترش المصابون الأرض، أرحتُ الرجل على فراش صغير قامَ من عليه شابّ مصاب احترامًا لسنّه، تركته وبحثتُ عن طبيب، جاء واحدٌ معي وبدأ يفحصه، واستدرت أنا ناويًا الرحيل بدون وداع؛ فقد قمت بواجبي. ناداني الرجل، عدت إليه، أمسك يدي وربّت عليها وشكرني، وقفتُ لا أدري كيف أردّ عليه حين سمعت صوتَ أروى تناديني "زياد... يا إلهي".

التفتّ إليها، كانت مغبرة الوجه والثياب، تحملُ طفلة على كتفها، جريت نحوها، كدت أضمّها لوْلا الطفلة، تناولتها منها، وجريت للداخل، دلّني أحدهم على غرفة خاصّة للأطفال، وضعتها على الطاولة، وأقبلتْ ممرضة وطبيبة يفحصانها ويتعاملان مع إصابتها، خرجتُ من الغرفة، كانت أروى بالخارج تنتظرني بابتسامةٍ ملهوفة وعينيْن دامعتيْن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٣٥

أروى- مدينة مجهولة- الزمن غير محدّد

وقعتْ عيني على زياد في ممرّ المستشفى، واقفًا يحدّث الطبيب، ويُطمئنُ رجلًا مسنًّا على شيزلونج ممزّق، يهمّ بالابتعاد عن الرجل، فيسمع الرجل يناديه، فيملأ التأثر وجهه ويعود للرجل يمسك يده ويربّت عليها بحنان. مشهد جعلني أراه إنسانًا حقيقيًّا، لا مجرد فانتازيا على جزيرةٍ مسحورة يتحوّل فيها الدولفين إنسانًا مثل عروس البحر. أدركت أننا متشابهان، وأنه فضّل أن يقوم بدورٍ إنساني مع هذا المسنّ لم أكن عرفته ساعتها، مثلما فضّلت أن أنقذ الطفلة وآتي بها للمستشفى وأنا أعلم أنّ هناك احتمالًا- ولو ضئيلًا- أن أضيع من زياد.

ناديتُ اسمه، كنت مرتبكة، أريد طبيبًا أو أيّ مساعدة، لم أجدْ غير اسمه ساعتها، التفت نحوي، امتلأ وجهه بشرًا، وركض نحوي متجاوزًا الأجساد، كاد يضمّني لكنّه لمّا رأى الطفلة على كتفي تناولها بحرص وجرى لينقذها وأنا في إثره، تعامل بتلقائية تامّة كأنه متطوع في المستشفى، كان قلبي يرتجف في تلك اللحظة ونحن وسط الناس ننقذ حياة معًا، وقفت أشاهده وهو يضع الطفلة بمنتهى الرفق، ويحدّث الطبيبة ويطمئنّ منها على حالتها، وأنا واقفة أتابعه من خارج الغرفة، أتأمّله كأنني أشاهد حلمًا، أهذا الرجل ولدَ دولفينًا حقًّا أم أنّه هكذا من يوم ولادته!؟.

اطمأنّ على الطفلة وأقبلَ عليّ بكلّ صفائه ونبله، والغبار الذي علق به، واحتضنني بكلّ عنفوانه وشوقه وحنانه. وسط الناس، وسط الهرج والفزع، وتحت القصف، كنت مطمئنة وأنا بين ذراعيه، لا أفكّر بشيء، تحوّل ألمُ المشاعر التي خلفتها تجربة "أمّ أحمد" إلى ذكرى قديمة مررتُ بها منذ سنين، وتحوّل خوفي في تلك المدينة إلى طمأنينة، وتردّد مشاعري نحوه وشكّي إلى يقين.

قلتُ له وأنا أتراجع عنه "هناك أمرٌ آخر ينبغي أن نقوم به قبل أن نعود".. فقال متعجّبًا "وما هو؟".. فقلت "أمّ هذه الطفلة لا تزال تحت الأنقاض، يجب أن نخلّصها ونعود بها".. وقف متردّدًا ثمّ سألني "هل تلك مدينة حقيقية حتّى..".. فقلت "لا أعلم، ولكن لا يمكن أن نترك الأمر للاحتمالات، تمامًا مثلما فعلتَ مع الرجل المسنّ الذي ساعدته".

أخذني من يدي، وسألني عن المكان فقلتُ إنّها في المبنى المجاور لبيت العودة، خرجنا من المستشفى، شعرَ بلزوجة بين يده ويدي فنظرَ لها وأبصر

الدم السّائل من جرحي، طلب أن نعود ونضمّدها جيدًا، فرفضت وأصررت على أن نمضي لننجد المرأة.

كانت لا تزال مدفونة حتّى منتصف بطنها، مستسلمة وقد أعادت رأسها للخلف كأنها تعبت من المعافرة، الشارع خالٍ تمامًا، والانفجارات هدأت، صوتُ أقدامنا نبّهها، فتحت عينيها، سألت عن ابنتها بلهفة، وصوتها مُتهالك بالكاد أسمعه، طمأنتُها فتنفّست بارتياح، وحمدت الله وانبرينا نحن نحاول إخراجنا وسط خلفية صوتية من الشكر والمديح.

اقتربَ الليل منّا ونحن نزيل عنها الأنقاض، لا يوجد صوتُ انفجار واحد، ولم يظهر أحد بالقرب منّا أيضًا كأنّ الناس نسوا هذا المكان، زياد يحمل قطعَ الخرسانة بدأب، والعرق يغطي وجهه وذراعيه المفتولين، أتأمّله وأنا أضمّ رأس المرأة لصدري أواسيها لتتحمل الألم، يلاحظ زياد أنّني أتأمله فيرميني بابتسامةٍ عذبة رائقة أتلقّاها كأنّه يهديني وردة زكية الرائحة بهية الشكل.

أخرجناها أخيرًا، جذبها زياد للخارج وهي تحتضنني حتّى خرجنا من نطاق المبنى ثمّ حملها زياد، وبدأنا نمشي في اتجاه المستشفى، رأيت سيارةً مهملة وبابُها مفتوح، حاولت تشغيلها لتخفيفِ الحمل عنه، طلبت منه أن يريح المرأة على الأرض، بينما حاولت تشغيل السيارة، كانت من نوع لادا، وكان عندي سيارة مماثلة كثيرة الأعطال في صغري. دارت السيارة أخيرًا، ساعدتُ زياد وفردنا جسدَ المرأة على الأريكة الخلفية، جلس جواري، وانطلقنا بالسيارة ببطء في الطريق الرئيسي الذي تقع به المستشفى وقد تهدّم عددٌ كبير من مبانيه، كان بعض الناس قد بدأوا الظهورَ في الشارع، تساءلت في نفسي عن السبب، وجاءت الإجابة حين رأيت بعضهم يقفون صفًّا في انتظار شراء مواد غذائية.

حين وصلنا، طلب زياد منّي أن أنتظره بالخارج، وأن يدخل ليوصلها بنفسه مبرّرًا ذلك بالحفاظ على السيارة لتعيدنا سريعًا نحو بيت العودة، لكنني لم أوافق، نزعت المفاتيح من السيارة وأغلقتها كأنّها تخصّنا وساعدته في حمل المرأة حتى الداخل، وقبل خطوات من الباب سمعنا صفيرَ قذيفة وارتجّ المكان ودفعتنا موجةُ الانفجار لنسقط ومعنا المرأة أمام باب المستشفى. اشتعلت السيارة مثيرة عاصفة من الاحتجاج انطلقتْ من فمي، ونحن ندخل باب المستشفى قبل أن تعاود الانفجارات ويشقّ صوت الرصاص جوّ المكان.

دخلنا بين آخرين يحاولون الاحتماء بالمستشفى، وضع زياد المرأة على فراش، ودخل يبحث عن ابنتها ليطمئنها عليها كأنّه يأبى إلّا أن يتمّ مهمتنا للنهاية، أصابني القلق في الثواني التي غاب فيها عن عيني كأنّه سيختفي ولنْ أراه، كأنني أودّع طفلي عند باب المدرسة في أول يوم دراسي، طالت غيبته،

كنت مِن لهفتي أعدّ الثواني بالطريقة التي علمني إيّاها مدرب السباحة في صغري "ألف مية وواحد، ألف مية واتنين... ألف خمسة وأربعين... ألف تسعة وسبعين" طالت غيبته "ألف ميتين وثمانية"، وظهر أمامي أخيرًا، كدت أقول له كما قالت ممثلة هزليّة ذات مرة "عوّقت ليه" وأنا أعني الجدّ لا الهزل، فقد أعاقت ثواني غيابه تنفّسي ونبضَ قلبي.

لم يكن مسموحًا أن نخرج من المستشفى، كان القصف على أشدّه، وإطلاق النار لم يتوقف، تحدّثنا للحارس عند الباب، قلت له إنّني أحتاج العودة إلى البيت، فأنا متعبة، قال الرجل "لقد قمتمَا بمجهود رائع أنتِ وزوجك، رغم أنّكما غريبين لكنّكما أخرجتما أمًّا وابنتها من تحت الأنقاض، وهو أنقذ أحدَ أعمامي، أقلّ واجب أفعله معكما أن أوفّر لكما مكانًا لتبيتا هنا الليلة".. كان من الطبيعي أن يتضرج وجهي بحُمرة الخجل حين افترض أنّنا زوجان، لكنني كنت أشعر بالتّعب بشدّة، وأنّ قدماي لا تقويان على حملي. لم ينتظر الرجل منّا ردًّا، أشار لأحد معاونيه وطلبَ منه أن يوصلنا.

نزلَ الرجل بنا سلمًا قصيرًا نحو القبو، ثمّ قادنا في ممرّ قصير وفتح لنا غرفة، كانت مهملة بها الكثير من الأغراض مُلقاة على الأرض، كان فيها فراشان صغيران دون ملاءات، وحمام صغير. حين أغلق الباب علينا انتابتني رغبةٌ عارمة في تجاهل كلّ شيء واحتضان زياد، لاحظت أنّه كان يفكر في الشيء نفسه. نسيت تخدل ساقي والتعب الذي كان يكتنفني وتركت روحي تنهلُ منه في حضنٍ طويل، تراجعت للخلف وجلست على طرف الفراش وتركت نفسي أذوبُ معه في لحظة عشقٍ صافية امتدّت لكلّ خلية في جسدينا، كنت أعلم أن جسدي الحقيقي موجودٌ تحت رمال موتو موايا، ولذلك لم أفكّر كثيرا في حدود ما يمكن أن يحدث بيننا في تلك اللحظة؛ ما يجوز وما لا يجوز.

كانت أجمل مكافأة حصلتُ عليها من ذلك الانتقال الروحي، أفرغت كلّ لحظات الكتمان والشوق التي انتابتني معه من قبل، لم يكنْ هذا حلمًا لأننا نتشارك اللحظة، أنا وهو، أو للدقة يمكن أن أقول "أنا وأنا".. كنّا واحدًا مقسّمًا على جسدين يبتعدان ويندمجان، لم أعرف روعة العشق الجسدي مثلما عرفتها معه، اكتشفتُ للمرة الأولى في حياتي بعد زواجين أن العشق الجسدي مجرّد امتدادٍ للعشق الروحي، فعل مكمّل له ومستمدّ منه. لا يجوز لي أن أقارن ما حدث بيننا بما كان يحدث مع كامل مثلًا، مع كامل الأمرُ يشبه صورةً بهاتف ذكي، ومع زياد الأمر يشبه لوحة رسمها دافينشي، تخيّل الفارق بين صورة التقطتها السيدة "ليزا جوكوندو" بكاميرا سيلفي مِن هاتف جوّال، وبين لوحة الموناليزا التي رسمها لها ليوناردو دافينشي، كان هذا هو الفارق، تفرّد اللحظة، مع زياد كنت واحدتَه، وكان واحدي، مع كامل كنت صورة

إضافية تلتقطها عدسته، اللوحة مع زياد كانت روعتُها في كلّ ضربة فرشاة، وكلّ درجة لون، وكلّ رعشة يد حين ترسم التفاصيل.

عشتُ معه الليلة بأكملها، نافذة الغرفة كانت قربَ السقف تطلّ على الشارع قرب سطح الأرض، كانت من زجاج مغبّش ينقل ومضاتِ انفجارات أحيانًا، وأضواء قذائف وأصوات إطلاق نار، لكنّنا كنّا غائبين عن كلّ هذا، كان زياد يكتشف نصفَه البشري معي، وكنت أكتشف ذاتي معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣٦

موتو موايا- مايو ٢٠١٩

زياد

استيقظت في الجزيرة، لم نحتجْ للعودة إلى البيت الذي كانت فيه أروى، وإنّما بمجرد أن طلع الصباح علينا في المدينة المجهولة وجدتُ الرؤى تغيم، والظلام يحلّ علينا وتنحلّ ضمّتنا الطويلة، ونجد نفسيْنا نائمين تحتَ رمل الجزيرة. قمت وأخرجتها سريعًا، ونفضت الغبار عنها لكنّها أبعدتني بحياء، وأكملت هي.

شعرتُ بالخجل أنا أيضًا، ما كنّا فيه بدا حقيقيًّا أكثر من اللازم، لم أعرف اسمَ المدينة، ولا مَن أهلها، لم أميّز لهجة ولا ملامح، لكنّهم كانوا عربًا بالتأكيد، ملأتني التجربة بمشاعر متضاربة تجاهَ العيش بين البشر، إنهم يسحقون الحياة ويقدسونها في نفس اللحظة، وهم طيبون وملاعين، متبلّدو المشاعر ومرهفو الحس، إنّهم كلّ شيء ونقيضه، لا أستطيع الجزم بأي شيء عن حقيقة ما حدث، لكنّني أعرف أنّ الساعات التي قضيتها في حضن أروى حقيقية، كلّ لمسة كانت تمسّ روحي، الإنسانُ منعم بتلك المشاعر أكثرَ من أيّ كائن آخر.

ذهبنا للنبع، غسلنا وجوهنا ونحن مازلنا نتبادل نظراتٍ خجلى، توقفت مرّة واحدة، وقالت "ما حدثَ كان حلمًا" فأومأت موافقًا، فقالت "نحن.. أنا.. مممم، أنا أشعر بالجوع".. قالت وهي تنظر في الماء وتغترفُ منه بكفّيها وتشرب. "مرحبًا بالبطلين الحبيبين".. كان الصوت جديدًا على أذني، نظرت تجاه صاحبته، فرأيت امرأة شابة، تشبه العجوز قليلًا، لكنّها تبدو كابنتها مثلًا، استدارت أروى ناحيتها، وقالت "مَن أنت؟".. فقالت "أنا روحُ الجزيرة".. ثمّ نظرت لنفسها وقالت ضاحكة "لكنني صغرت قليلًا".. قلت مدهوشًا "بل صغرت كثيرًا، أين أختاك؟".. فقالت "مكانهما، نريدك في كهفنا الآن".

مشيت خلفها مضطربًا، ترى ماذا تريد منّي، هل اكتفت الجزيرة بما مررنا به، أم أنّ هناك حيلًا جديدة، وصلتُ عند الكهف، دخلت أوّلًا، كان الكهف جميلًا خلافَ المعتاد، وبدل الجذع كانت هناك أريكة ملوّنة. جلست المرأة وسطَ أختيها اللتيْن صارتا شابّتين أيضًا، ثمّ بدأت بالكلام "لقد حقّقت الشروط جميعها يا زياد، وجدت امرأة تحبّك وتحبّها، امرأة قبلت أن تخوضَ تجربة حزن قاسية من أجلك، وخضتَ معها مخاطرة أثبتَ كلّ منكما أنه نبيل المعدن".

أعجبني إطراؤها، لكنّني كنت متعجّلًا لمعرفة أمرٍ آخر، فسألت "هل حبّها لي سيجعلها تعيش معي؟".. قالت المرأة "حبّكما كشفَ لكلّ واحد عن دواخل في

نفسه التي كانت خافية، الحبّ هذّب من شعوركما، وغيّر في منظوركما للحياة، أنت كنت تحبّها دون أن تسأل عن مصير ذلك الحب، ما الذي جدّ وجعلك تفكّر في الغد؟".. صمت، فقد كنتُ أجهل الإجابة، فقالت "تجربة الحياة معها خارجَ الجزيرة غيّرت نظرتك، خاصّة عندما..".. ثمّ أطلقت ضحكة عابثة فهمتُ منها أنّها قصدت الليلة التي بتناها في المستشفى.

"المهمّ الآن".. قالت وقد ارتسمتِ الجديّة على وجهها "أنت صرتَ دولفينًا بشريًّا، وهذا يعني أنّك تستطيع في أيّ وقت أن تكون على الصورة التي تريدها، فقط تغمض عينيك وتقول (باسم البارئ المصوّر)؛ ستتحوّل من فورك، لكنّك ملتزم بالحياة بين الدلافين ثلاثة أيام في كلّ شهر، تنضمّ لأيّ قطيع، سيرحّبون بك لأنك ستحمل نغمةً في صوتك تدلّ على أنك دولفين حكيم، وظيفتك أن تنقلَ لهم حكمتك، وتنقل للبشر أيضًا أخلاق الدلافين، إنّها ما يجعل بعض البشر يهتمّ بحياة الكائنات الأخرى، ويكافح من أجل إصلاح ما أفسده جشع البشر، ستعيش في تاهيتي، ستجدُ لك أوراقًا وبيتًا وتاريخ حياةٍ كامل أعدّه لك الدولفين البشري السابق، ستعرف كيف تصل إليه في قفزتك الأخيرة من فوق الجبل".. قلت "وأروى؟".. فقالت "هي سوف تخبرك بنفسها، اذهبْ لها، إنّها تقف بالقرب من هنا، أرسلها إلينا لنحدّثها".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أروى

تسلّلت خلف زياد، والمرأة التي كانت عجوزًا، وعادت شابّة حتى وصلَا لكهف يختفي خلف أشجار كثيفة. وقفت خارجًا وأصختُ السمع لكنْ لم تصلني كلمة واحدة، أسأل نفسي ماذا سأفعل بعدَ عودتي من هذا المكان، لقد أحببت زياد، وجرّبت معه أحاسيس لم أجربها من قبل، هذبت التجربة كلّها روحي، شعرت أنّ الحياة لها شكلٌ آخر غير ما اعتدت عليه، كنت أنظر للعالم من ثقبِ إبرة حرفيًّا، والآن أشعر أنّ تجربة قصيرة كتلك منحتني نافذةً بحجم مبنى كامل أنظر منها وأرى الأشياء من كل الزوايا.

خرجَ زياد وطلب منّي أن أدخل، قال إنهنّ ينتظرنني، لم أفهم، هناك أكثرُ من واحدة إذًا، كم عددهن، هل كلهنّ صغيرات وجميلات كالتي رأيتها؟ دخلت الكهف، كان يشبه استقبالًا فاخرًا في بيت نظيف، أريكة عريضة فستقيّة اللون، ذات مساندَ مزخرفة، وأمامها فوتيه كبير، اعتقدت أنه مخصّص لي، كان على الأريكة ثلاثُ نساء، المرأة التي رأيتها في المنتصف واثنتان على جانبيها.

قالت المرأة في المنتصف "أعرف أنّ في رأسك مئات الأسئلة، ها.. اسألينا".. قلت وقد طارت مِن رأسي كلّ أسئلتي "كيف.. كيف صرت شابّة جميلة هكذا؟".. ضحك الثلاثة وقالت الوسطى "نحن روحُ الجزيرة، والروح تتجدّد كلّما زارها دولفين مميّز كزياد، ومعشوقة مميزة مثلك".. نظرتُ لها في ضيق، وقلت "معشوقة!؟".. فقالت "اعذريني، هذا هو المصطلح الذي نستخدمه عندما نتحدّث عن المرأة التي تعطي الدولفين حقّ التحول الكامل".

قلت "هل يمكنه الإنجاب، هل سينجبُ أبناء عاديّين، أم...".. لم أعرف ما المصطلح الذي ينبغي استخدامُه. اتّسعت ابتسامات الثلاث، وقالت الوسطى "عاديّين، ولعلمك هو خصبٌ جدًّا، يمكنه إنجاب قبيلة، بالمناسبة هناك قبيلة تعيش في فيجي ينحدرون من نسل أحدهم".. سكتّ وقد انتابتني الحيرة، فقالت المرأة "هل تفكرين في الارتباط به بقية عمرك؟".. فقلت بسرعة وتبرّم "هل أنتما صامتتان دومًا هكذا".. فقالت الوسطى "أنا فقط مَن تتكلم، ها... هل تفكرين؟"..

قلتُ بصوت خافت "نعم".. فأطلقت المرأة زغرودة، ثمّ ضحكت، فقلت بغيظ "هل أنت مجنونة؟".. قالت "كلّا يا بنيتي، لكنّ ارتباطكما الأبدي يسعدني، ليس لميزةٍ إضافية، ولكن لأنّ الحبّ الحقيقي نادر جدًّا، ما حدث بينكما لم يحدثْ منذ نصف قرن تقريبًا".. ابتسمت رغمًا عنّي وأنا مدهوشة من كلامها، كنت أقولُ لنفسي منذ قليل إنّ الحبّ الذي نما سريعًا بيننا نادرٌ جدًّا، لكنّني كنت متشكّكة لأنّ كلّ امرأة تقول هذا الكلام عندما تجدُ رجلًا ترتاح إليه، أنا نفسي

قلته عن كامل، واتّضح لي أنّني كنت واهمة. قالت المرأة "الدلافين لا تخون، لا تخذل يا بنيتي، وزياد إنسانٌ بالفعل، لكنه ولدَ دولفينًا، وهذا الطبع لن يفارقه أبدًا".. قلت مستنكرة تجسّسها عليّ "هل تقرئين أفكاري؟".. فهزّت الأخرتان رؤوسهما نافيتين دون أن تنطق هي.

"الآن هناك هبة تعرضُها الجزيرة عليك، لأنّك أثبت نبلًا نادرًا، أنت أيضًا سوف تمتلكين موهبة التحوّل إلى دولفينة عندما تحبّين، ستعيشين حياتك بشكل عادي، عندما تكونين في المحيط وترغبين في التحول كلّ ما عليك فعله أن تغمضي عينيك وتأخذي القرار، ثمّ تقولين (باسم البارئ المصوّر)".. ابتلعت ريقي غير مصدّقة، تسارعت نبضات قلبي بقوّة وأنا أسألها "وإذا أردتُ العودة لطبيعتي، أغمض عيني وأصفّر كالدلافين؟".. فقالت "كلّا يا فتاة، ستقولين نفس الدّعاء، ولكن بلغة الدلافين، يبدو أنّ مستوى ذكائك سوف يقف عقبة لأنّ الدلافين أذكى من البشر، ولا بدّ أن تكوني إنسانة ذكية لتستطيعي التحوّل وقتما أردت".

كانت نبرتها ساخرة، لكنّني شعرت بفرحة عارمة جعلتني أتجاهل السخرية، سأجرب حياة أخرى وقتما أريد، وسأعيش إنسانة عادية، وسأرتبط بزياد بقيّة عمري، هل كنت أحلم بأكثر من هذا، لو تضايقت من دلفنتي فلنْ أتحوّل ثانية، هذا أمرٌ بسيط. قاطعت أفكاري قائلة "لكن هناك شرط".. سقط قلبي بين قدمي وامتقعَ وجهي، فضحكت المرأة ثانية، وقالت "لا تخشي شيئًا، إنه شرطٌ بسيط، سوف تصعدين معَ زياد لقمة الجبل وتقفزان معًا في الماء من ارتفاع شاهق، أغمضي عينيك وقولي (باسم البارئ المصوّر) قبل أن تلمسي الماء مباشرة، هيّا اذهبي".

لم أناقشها، واستدرت لأغادرَ ملهوفة على إخبار زياد، لكنّها أوقفتني وقالت "نسيت، إذا حدث وحبلتِ فلنْ تتمكّني من التحوّل طوال تلك الفترة".. احمرّ وجهي خجلًا ولم أرد، تركتها وانطلقت ركضًا، كان زياد في الخارج، ضممته بقوّة وقبّلته بعمق وهو مذهولٌ من فرحتي المفرطة، أخذتُه من يده، قلت له إنّني صرت له من الآن، وإنّه صار لي، جذبته لنصعد الجبل، سألني عن السّبب قلت له "سنقفز معًا".. لم أخبره بحكاية قدرتي على التحول، لم أكن أصدّقها تمامًا رغم أنّها ليست أغربَ شيء حدث لي في هذا المكان، صعدنا الجبل نتعثر ونقوم، وأنا أأبى أن نتوقف كأنّني اكتسبت طاقة خارقة. هو أيضًا، كان يتحدّث بحماس عن مستقبلنا، قال إن له اسمًا وبيتًا وحياة كاملة، قال إنه سيزورُ مصر معي، ونتزوّج هناك، ثمّ نعود إلى تاهيتي لنعيش فيها، طلبت منه أن يتمهّل؛ هناك حدثٌ أهمّ سيأخذ مجراه الآن، سألني "ما هو؟".. قلت له ضاحكة "عودتنا، سنقفزُ من الجبل ليبتلعنا المحيط، ويعيدنا إلى بورا بورا".

قفزَ معي متجاوزا شجيرة في طريقه وهو يكاد يرقص من الفرحة، كنت أصعد معه وأتأمله، آكله بعيوني كأنّه أشهى فاكهة خلقها الله، كنتُ أطير حرفيًّا وأنا في طريقي لقمة الجبل وقمة عمري، لا يهمّني الغد، وصلنا إلى القمة، كان المنظر رائعًا، لم أشعر بخوف رغم شدة الانحدار، أمسكتُ يده، رفعتها نحو شفتي وقبّلتها، اضطرب وجهه، ثمّ أخذ يدي وقبّلها بدوره، وقفنا على الحافة، قال بصوت عالٍ "اقفزي بقوّة للأمام".. أومأت متفهّمة، تراجعنا ثلاثَ خطوات، ثمّ عدوْنا وقفزنا، ويدانا متماسكتان.

طرْنا معًا كما سبحنا معًا، وكما أكلنا معًا، وكما عبرنا مراحلَ العشق السامي معًا، داعبنا الهواء يرقص محتفلًا بنا، الأمواج في الأسفل تعزف لحنًا مع الصخور احتفاءًا بقرب قدومنا، المحيط يغنّي، والأسماك تقفز في الهواء متشوّقة لمجيئنا، اقتربنا من الماء، أغمضتُ عيني وقلت بصوتٍ مرتفع "باسم البارئ المصوّر"، ثمّ سمعت صيحةَ دهشة تخرج من فمه قبلَ أن نغيب في الماء.

تمدّد جسدي وأنا في الأعماق، دون ألم، دون أحاسيس تضايقني، فقط صرتُ دولفينًا في لحظة واحدة، وتموّجت مع الماء بنعومة. قفزتُ في الهواء متراقصةً يتقاطع جسدي مع جسدِ زياد، ثمّ غصْنا معًا في الماء ثانية، وأنا أقول له "أحبّك" بصوت الصفير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس..

عن الرواية..

اهداء

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

٨

٩

١٠

١١

١٢

١٣

١٤

١٥

١٦

١٧

١٨

١٩

٢٠

٢١

٢٢

٢٣

٢٤

٢٥

٢٦

٢٧

٢٨

٢٩

٣٠

٣١

٣٢
٣٣
٣٤
٣٥
٣٦
أروى